المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والأنباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة

صور تاريخيّة

بقلم

علي أدهم

صور تاريخية

بقلم

علي أدهم

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة

مقدمة

هذا الكتاب مجموعة من الفصول ، عن بعض الشخصيات والمشاهد التاريخية التى راقنى أن أعرض لها وأكتب عنها ، وقد حاولت أن أنحو فى تقديمها للقارىء نحو أدبيا ، وأن أصورها تصويرا فنيا ، وهو رفيق كتاب لى آخر ظهر فى سنة ١٩٥٨ بعنوان « صور أدبية » وعلاقة التاريخ بالأدب والفن علاقة قديمة وصميمة ، والقرابة بينهما قرابة جد دانية ، بل هما توأمان حياتهما وازدهارهما فى الاقتراب والاتصال ، وفى تباعدهما وتناكرهما ما يعطل نموهما ، وما قد يقضى عليهما معا .

وقد ذهب بعض الباحثين الى أن التاريخ علم لاأكثر ولاأقل ، وذهب فريق آخر الى أن التاريخ فن قبل كل شىء ، والأرجح فى رأيى : ان التاريخ يأخذ بطرفى العلم والفن ، ففى جمع الحقائق واختبارها وعرضها على محك البحث يتبع المؤرخ مناهج العلم وطرائق المنطق ، ولكنه فى توضيح هذه الحقائق التاريخية وتفسيرها لا مندوحة له عن اتباع أساليب الفن ومذاهب الأدب .

وقد كان اعراض بعض الذين تصدوا لكتابة التاريخ عن

عنـاء البحث وكد التنقيب واطالة التحـرى هو المسئول عن التشكيك فى قيمة الصفة الأدبية والناحية الفنية فى كتابة التاريخ ، وقد عنى فنانو عهد احياء العلوم بدراسة التشريح ليجيدوا رسم الوجوه ، ويحسنوا تصوير صـورة الانسان ، وكان ليوناردو دافنشى معنيا بعلـم طبقات الأرض . ويبدو ذلك واضـحا فى تصويره للمناظر الطبيعية ، وكذلك الوصف التاريخى فى حاجة الى أن يكون وراءه التحليل والتقصى والتنقيب ، والتقصـير فى ذلك يضعف قوة البناء والانشاء فى الكتابة التاريخية ، ويقلل من قيمة حسن التصوير وبراعة العرض .

على أن دراسة الانسان لا تشبه دراسة الخواص الطبيعية لمادة من المواد ، أو دراسة حياة حيوان أو حشرة ، فما نعرفه عن ذرة واحدة يصدق على غيرها من الذرات ، وما نعلمه عن فرد واحد من أحـد أنواع الطيور أو الزواحف يصدق على سائر أفراد النوع ، ولكننا لا نستطيع أن نستنبط حياة الانسانية جميعها من حياة فرد بعينه ، ولا نستطيع كذلك أن ندرس حياة فرد دراسة علمية مستوفاة ، أو نحللها تحليلا كاملا ، لأن الانسان أشد تعقيدا وأكثر روحية من أن يخضع لتجارب العلم وموازينه الدقيقة .

وكاتب التاريخ ـ سواء كان يكتب عن حياة انسان أو حياة عصر من العصور ـ يريد أن يثير خيـال القارىء ، وأن يوحى اليه ويؤثر فى نفسه فلا مفر له من اتباع أساليب الأدب والفن ، ولا نزاع ـ فيما أعتقد ـ أن التاريخ المعروض عرضا أدبيا فنيا

يبعد مدى التفكير ، ويوسع الخيال ، ويخرجنا من قيود الحاضر وسدوده ، ويطلعنا على دنى أخرى مختلفة عن العالم الذى ألفناه ، وكدنا لطول الألفة أن نمله ونتطلع الى سواه .

وربما أكون قد اجترأت على اصدار أحكام على الشخصيات التى تحدثت عنها والحوادث التى وصفتها ، وأود أن أستدرك وأقول : ان أمثال هـذه الأحكام ليست بضرورة الحال أحكاما نهائية ، لأن الانسان يصدر أمثالها وهو متأثر بمزاجه الخاص ، ووجهة نظر العصر الذى يعيش فيه ، ومعتقدات البيئة التى نشأ بها ، وأحوالها بوجه عام ، وكلما حاول الانسان الخلاص من هذه المؤثرات كان ذلك أجـدى على البحث التاريخى ، وأدعى الى الاقتراب من الحقيقة التاريخية .

وقد اعتمدت فى كتابة هذه الفصول على طائفة من المراجع الموثوق بها ، سواء فى ذلك الفصول التى تحدثت فيها عن بعض الشخصيات الاسـلامية ، أو الفصول التى تناولت فيها بعض الشخصيات البارزة فى تاريخ الغرب السياسى ، وأرجو أن يجد القـارىء فيها الفـائدة والمتعة اللتين التمستهما حينما عالجت الكتابة فى موضوعاتها .

(١) الأسرة والعصبية والعرب

وجود الأسرة فى الجماعات البدائية من الأمور الهامة اللازمة ، والأسرة فى أمثال تلك الجماعات : هى التى تتولى حماية أفرادها ، وتدفع عنهم الشر والأذى ، وترفع الجور والبغى ، وترد الغارة والعدوان ، وحيث لا توجد حكومة ثابتة قوية الدعائم ، مرهوبة الصولة ، تكون الأسرة هى النظام الوحيد الكفيل بمنع الجريمة ، والابقاء على الأمن والنظام ، وفى الجماعات التى يسهل اثارة عواطفها وانقيادها لأهوائها يكون الكابح الوحيد الذى يحول دون وقوع الجريمة هو التأكد من أن دم القتيل لن يذهب هدرا ، وأن أسرته ستنتقم من قاتله ، وسنة أخذ الثأر هى فى الواقع ضمان لمنع الجرائم أو الاقلال من وقوعها ، وهى تستمد قوتها من نظام الأسرة .

ولا يزال هذا النظام متبعا بين قبائل البدو ، وكلما تقدمت الحضارة واستقام لها السلطان أصبحت الجماعة البشرية أحكم نظاما ، وأكثر تماسكا ، وصارت القوانين عزيزة الجانب ، مرعية المكانة ، مكفولة التنفيذ ، ووجدت وسائل لحماية الفرد والجماعة

أكثر ملاءمة للعدالة ، وأدخل فى النظـام ، وأدل على استقرار الحضـارة ، وبذلك تقل أهمية الأسرة ، وتضعف الحـاجة الى حمايتها ، والاستظلال بظلها ، ويصبح وجودها من المسائل التى قد يحرص عليها الانسان ويعنى بها ، ولكنه مع ذلك لا يراها مسألة حيـاة وموت كما كانت فى العهد السابق ، وبذلك تقل أهمية الأسرة ، وتتحلل روابطها ، وتضعف عصبيتها .

على أن الأسرة ـ سواء فى الحاضر أو الماضى ـ كانت لكثير من الناس المـأوى الذى يلوذون به لدفع الحاجة ورد عادياتها ، واتقاء نوائب الدهر ، وفواجع الحياة ، لأن حياة الانسان غير مأمونة ، وهو معرض للمرض والعجز والشيخوخة ، وقد تقعد به الفاقة ، وتلح عليه الحاجة ، فلا يجد من يفرج كربته ، ويسد خلته سوى أسرته ، فالأسرة ضرب من التأمين المتبادل ، فالآباء يعولون الأولاد فى الصغر ، والأولاد يعولونهم فى الشيخوخة والكبر اذا استلزم الأمر ، وكل فرد فى الأسرة يشعر بأنه فرع من دوحتها وأحد أسباطها ، وأن الواجب الأدبى يفرض عليه مساعدة سائر أفرادها والأخذ بيدهم ، وفى كثير من الأمم الراقية أخذت الحكومات والجماعات الخيرية المختلفة والنقـابات تقوم بواجب الأسرة ، وأصبح الفرد يشعر بأن أقوى ضمان لكيانه واسعاده هو المجتمع الذى يعيش بين أفراده .

ولكن الابقاء على نظام الأسرة مع ذلك لازم ، لايجاد المنزل الذى يسوده الصفاء والوئام والمحبة والاخلاص ، وقد أظهرت

البحوث النفسية الحديثة أهمية الأسرة فى بناء الأخلاق ، وتكوين العادات الحسنة ، وذلك لأن بيئة الطفولة السعيدة التى توجدها الأسرة تجنب الطفل الكثير من العقد النفسية والعلل العصبية ، ولعل الأسرة هى خير قاعدة يبدأ منها الانسان حياته ويبحر الى عوالم المجازفات والمخاطرات وجلائل الأعمال ، ويعود اليها اذا اقتضى الأمر ، حتى لا يشعر بالوحشة والعزلة ، ومهما كانت الجماعات الانسانية من التماسك والوحدة ، فلن يجد فيها الانسان هذا اللون من العطف الخالص الذى يشعر به فى حمى أسرته ، ولا نزاع فى أن الانسان مهما قوى وتسامى فانه فى حاجة ماسة الى العطف الذى يأسو جراحه ، ويشد من عزمه ، ويهون عليه عثرات الحظ ونوبات اليأس .

ووجود الأسرة فى حالات كثيرة يحول بيننا وبين التورط فى الشر والامعان فى الاساءة ، ويميل بنا الى السلوك الحسن والأخلاق الفاضلة ، والرجل الذى لا أسرة له قد تقل رقابته على أعماله فلا يتورع عن الدنية ، ويداهن فى أمور دنياه ، والأسرة نوع من الرأى العام فى حدود ضيقة ، يقدر الانسان حكمه ، ويحرص على ارضائه ، وأفرادها يشاركونه فى أمجاده ، ويعتزون به ، ويألمون لما يصيبه ، ويقاسمونه همومه ، ويفرحون لفرحه ، والأسرة تخرج الانسان من حدود أثرته ، وتوسع دائرة عطفه ، وتغريه بباسق الأعمال ، وروائع الخلال ، لتتوطد مكانتها ، وتظفر بالسمعة الحسنة ، والذكرى الباقية ، ولا نزاع فى أن نظام

الأسرة من النظم التى ساعدت كثيرا على بقاء وحدة الأمم وثباتها واستقرارها ، وكان هو أحد أسس عظمة روما والصين واليابان وكثير من الأمم الخالية والراهنة .

على أن نظام الأسرة على ما له من مزايا وآثار حسان قد يصبح وسيلة من وسائل اضعاف الأمم والقضاء على وحدتها ، وتعريضها لخطر التفكك والانحلال ، مما يستتبع سقوطها وفقدان هيبتها ومكانتها ، ويحدث ذلك : حينما يعمد أفراد الأسرة الى وضع مطالب الأسرة فوق كل اعتبار ، ولا يزعهم عن ذلك وازع دينى أو قومى أو حضارى أو أى وازع آخر من العدالة والانسانية والعطف والمروءة . والذى يقرأ تاريخ العرب فى تبصر ونزاهة وينظر اليه نظرة موضوعية فى الحدود التى تسمح بها الطبيعة البشرية يرى أن امعان العرب فى التعلق بالأسرة — وهو ما يسمى بالعصبية — من أقوى الأسباب التى أدت الى سقوطهم وضياع ملكهم ، بعد أن ظفروا ظفرات واسعة ، وتقدموا بخطوات سريعة ، وأكدوا ما لهم من الصفات الانسانية العالية ، ومناقب الأريحية والبطولة والاقدام والاستبسال ، وتجاوبت جنبات التاريخ بأعمالهم العظيمة ، وأيامهم المأثورة ومواقفهم النادرة .

ولم تكن العرب فى جاهليتها أمة موحدة ، ولا مجتمعا متماسكا وكانت رابطة القبيلة هى الرابطة الاجتماعية والسياسية ، ولم يكن على أى فرد واجبات باعتباره أحد أفراد الأسرة الانسانية ، وانما كان عليه واجبات بوصفه فردا من أفراد القبيلة ، وفى خارج

نطاق القبيلة لا حرج عليه ولا كابح له ، فهو حر يصنع ما يشاء ، واذا استعملنا الاصطلاحات العصرية قلنا : ان الانسان العربى حينذاك كان « انسان القبيلة » وكانت الرابطة التى تجمع بين أفراد القبيلة هى رابطة الدم الحقيقى أو المتوهم المزعوم ، ولم يستطع العرب أن يكونوا مجتمعا أو وحـدة سياسية غير قائمة على العصبية وصلة القرابة ولحمة النسب .

ولما كانت واجبات الفرد تقف عند حدود القبيلة فليس من المستغرب أن يقع الخلاف بين القبائل المختلفة ، وأن تقف كل قبيلة من القبائل الأخرى موقف العداء والمناجزة ، ولذا كانت الحرب القبلية دائمة الاشتعال ، وكان أعظم ما يفخر به العربى : هو أنه من حماة الوغى ومساعره ، وقد عبر المتنبى عن شعورهم فى قوله : ــ

ومن تكن لأسد الضـوارى جدوده
يكن ليله صبحا ومطعمه غصـبا

وما دام الفرد لا يعرف أن عليه واجبات انسانية ، ولا يحس لونا من ألوان العطف على غير أفراد قبيلته ، ولا يقر شريعة غير شريعة القبيلة ، فلا مانع اذن من أن تقوم حياته على انتهاب الناس وقتلهم فى خارج حدود القبيلة ، ويكون من مفاخره وأمجاده : أن يعيش على الغزو والسلب وسفك الدمـاء ، مثل الحيـوانات المفترسة والوحوش الضارية .

وتاريخ العرب فى الجاهلية حافل بأخبار الحروب التى كانت تقوم بين مختلف القبائل لأهون البواعث ، وأتفه الأسباب ، حتى يخيل الى الانسان أن هؤلاء القوم لو لم يتداركهم الاسلام لأفنتهم الحروب المتوالية .

وكان نجاح التعاليم الاسلامية يقتضى ازالة هذا الضيق ، وخرق هذا النطاق الذى ضربته كل قبيلة حول نفسها ، وخلق شعور عام ينتظم جميع القبائل ، ويوجهها وجهة واحدة ، وقد حقق الاسلام ذلك فى بادىء الأمر ، وكان الفضل فى ذلك يرجع الى عاملين هامين هما : سمو مبادىء الاسلام الديمقراطية النزعة ، وعظمة شخصية النبى محمد التى ارتفعت بالعرب فوق منازع القبيلة ، والغايات القريبة والمطالب المحدودة .

وقد وضع الاسلام أساس الاخاء الاسلامى ، وحاول القضاء على العصبية القبلية ، أو التقليل من حدتها وجعلها معقولة محتملة ووضع مصلحة الدين والمجتمع الاسلامى فوق كل اعتبار ، ولم يندثر نظام القبيلة ، وانما اختفت اختفاء مؤقتا جوانبه السوداء المظلمة ، ونواحيه الباغية العاتية .

وقد قضى النبى على الحروب الداخلية بين القبائل المختلفة ، وعلم العرب احترام الحياة البشرية ، وتقدير الشخصية الانسانية ، وحول أنظارهم الى عوالم جديدة ، وآفاق واسعة ، فاستولى على أبناء الصحراء والمهامه الفيح ، طموح طريف ، وتجاوزوا حدود بلادهم فاتحين ومبشرين برسالة الاسلام ، وتناسوا الفخر

بالآباء والأجداد والأسرة والقبيلة ، وكان الذود عن الاسلام ورفع كلمته هو موضع فخرهم .

واختار الرفيق الأعلى النبى الى جواره وخلفه أبو بكر وعمر ، وقد استطاعا الاحتفاظ بهذه الروح الاسلامية العالية ، والابقاء على تلك الحماسة التى تزول عندها الحدود والفواصل ، وتنمحى الفوارق والحواجز ، وجاء بعدهما الخليفة الشهيد عثمان ابن عفان ، وكان رجلا صالحا تقيا من السباقين الى الاسلام ، وكان فيه كثير من الصفات الشخصية المحبوبة ، فقد كان رقيق القلب ، جم العطف كريما سخيا كثير الحياء ، ولكن مدى فهمى لتاريخ تلك الحقبة يجعلنى أرى : أن اختيار هذا الشيخ الورع المحبوب للخلافة لم يكن اختيارا موفقا ، وقد أكون عرفت شيئا وغابت عنى أشياء ــ ولست أستبعد ذلك ــ ولكن ما تيسر لى معرفته يجعلنى مقتنعا بصحة هذا الرأى ، ومن سوء الحظ : أن هذا الخليفة كان أحد أفراد الأسرة الأموية ، وهى أسرة قوية شديدة العصبية ، قوية التماسك ، تنظر الى الأمور من الناحية العملية الخالصة ، وتميل الى السيطرة والنفوذ والاستئثار بالمنافع ، وقد وقع الخليفة تحت تأثير هذه الأسرة ، التى قاومت الاسلام مقاومة عنيفة ، ولم تقبله الا بعد أن عجزت عن مقاومته وغلبت على أمرها ، ولا مانع من أن يكون أفراد هذه الأسرة قد حسن اسلامهم بعد ، فلسنا ندعى علم السرائر ، ولكن الذى يكشف عنه سلوك بعض أفرادها هو : أن العقلية الجاهلية كانت

لا تزال غالبة عليهم برغم دخولهم فى الاسلام ، وكان أشدهم سيطرة على الخليفة عثمان بن عفان هو مروان بن الحكم ـ ابن عمه ـ فقد أصبح هو الذى يصرف الأمور ، والخليفة يحمل تبعتها ، ولم يكن مروان من الشخصيات المحبوبة ، وكان أبوه الحكم قد خان ثقة النبى فغضب عليه ونفاه ، وقد استغل الأمويون سماحة عثمان بن عفان ورقة أخلاقه فى شغل المناصب التى تدر عليهم الأرباح الجزيلة ، وكان لذلك أثره السيىء البعيد فى ايقاظ روح العصبية الهاجعة ، واشعال نيرانها الخامدة ، فاستردت قوتها ، وأتلعت جيدها ، وهكذا عاد هذا الداء الوبيل الكامن فى حياة العرب الاجتماعية الى الظهور ، فعاق حركة الفتح ، وأثر فى الوحدة الاسلامية .

وكان هناك اعتبار آخر يزيد خطورة التعصب القبلى ، فقد كانت التقاليد تنص : على أن العرب المقيمين فى جنوب شبه الجزيرة قد انحدروا من شخص يسمى قحطان ، ولذا كانوا يسمون بالقحطانية أو اليمنية ، وأن العرب المقيمين فى شمال اليمن قد انحدروا من المدعو عدنان ، ولذا كانوا يسمون بالعدنانية أو المضرية ـ ومضر هو أحد أولاد معد بن عدنان ـ أو القيسية نسبة الى احدى قبائلهم القوية وهى قبيلة قيس ، وكان العداء مستحكما بين هاتين الشعبتين ، وأينما اتجه العرب كان هذا الانتساب الى القحطانية أو المضرية يؤرث بينهم العداوة ، ويثير الخلاف ، وينبه راقد الفتنة ، ويهيج الحرب ، ويسيل الدماء ،

وقد دارت هـذه المعارك القبلية المستعرة فى أودية الأندلس ، وصحراوات افريقية ، وأباطح العراق ، وسهوب خراسان ، وكان لها أقوى أثر فى التعجيل بسقوط العرب ، وزوال ملكهم ، وسأذكر فى الفصل القادم بعض الأمثلة التاريخية التى توضح أثر العصبية فى تاريخ العرب ، وكيف كانت تعصف بالاخوة الاسلامية ، وتذهب بالمروءة والعطف والانسانية .

(٢)

الأسرة والعصبية والعرب

كان الخليفة معاوية بن أبى سفيان أمويا من فرعه الى قدمه ، فكان محبا للدنيا ، مؤثرا للعاجلة ، نهازا للفرص ، ولكنه كان فى الوقت نفسه داهية من دهاة العرب ، وسياسيا محنكا ممتازا ، واسع الخبرة بالنفس الانسانية والدوافع البشرية ، وكان يريد أن يقيم دولة ويوطد ملكا ، وقد هدته غريزته السياسية ، وتجربته العملية الى أن خير سبيل لاقامة الدولة هو التوفيق بين مصالح الشعبتين العربيتين الكبيرتين : الشعبة اليمنية أو القحطانية ، والشعبة المضرية أو العدنانية أو النزارية ، وقد التزم هذه السياسة ولم ينحرف عنها ، وكان يمثل اليمنية فى الشأم قبيلة كلب ، وتمثل المضرية قبيلة قيس ، ورشح معاوية ابنه يزيد للخلافة بعده ، وكانت أم يزيد — كما هو معروف — ميسون بنت مالك بن بحدل الكلبية ، التى كانت تفضل حياة البادية على حياة الحضر وتقول : —

لبيت تخفق الأرواح فيه ... أحب الى من قصر منيف
وأصوات الرياح بكل فج ... أحب الى من نقر الدفوف

ولبس عبـــــاءة وتقر عينى أحب الى من لبس الشـــفوف

وقد نشأ يزيد فى البادية بين أخواله من قبيلة كلب ، ولذا عارض القيسيون فى اختياره للخلافة ، لأن أمه كلبية وأباها مالكا زعيم الكلبيين ، والطريقة التى تغلب بها معاوية على تلك المعارضة غير معروفة ؛ ولا نزاع فى أن الأمر استلزم دهاء معاوية جميعه ولباقته ، وحسن تأتيه ، وواسع حيلته ؛ ولم يطل عهد يزيد ؛ ولما خلفه ابنه معاوية الثانى — وكانت أمه كذلك كلبيه — لم يطق القيسيون ذلك ، وكبر عليهم أن يلى الأمر خليفة أمه كلبية وجدته لأبيه كذلك كلبية ، وقد مات يزيد فى مقتبل العمر ، قبل أن يعمل على تمهيد السبيل لاستخلاف ابنه بعد موته ، ويقال : ان معاوية الثانى نفسه كان زاهدا فى الخلافة ، ومهما يكن من الأمر فان حقيقة ميوله كان يحيط بها شىء من الغموض والخفاء ، لا يكفى فى ازالته تأكيد بعض المؤرخين : أنه كان غير راض عن سيرة أبيه وخطته السياسية ، وقد انتهى الأمر بانحراف القيسية عن الأمويين جملة ، ورفع أحد زعمائهم — وهو زفر بن الحارث الكلابى — علم الثورة ، ودعا لعبد الله بن الزبير ، ولم يطل عهـــد معـــاوية الثانى ، وسرعان ما اعتزل الأمر ، وأسندت الخلافة الى مروان ابن الحكم ، وناصره الكلبيون ، وقاومه القيسيون ؛ ووقعت بينهما تلك المعركة الدموية الرهيبة المعروفة بوقعة مرج راهط ، وقد أسفرت عن هزيمة القيسيين وانتصار اليمنيين ، انتصارا رائعا قوى به جانب الأمويين ، ومكنهم من استرداد الخلافة ،

والسيطرة فى سائر أنحاء العالم الاسلامى ، وفى وقعة مرج راهط يقول زفر بن الحارث — من أبيات له قوية :

لعمرى لقـــد أبقت وقيعة راهط
لمروان صـــدعا بيننا متنائيـــا

أتذهب كلب لم تنـــــلها رماحنا
ويترك قتـــلى راهط هى ماهيـا

فقـد تنبت المرعى على دمن الثرى
وتبقى حزازات النفوس كما هيـا

وقد وسعت هذه المعركة شقة الخلاف بين اليمنية والقيسية ، وقد ثبتت ملك الأمويين ، ولكنها فى الوقت نفسه كانت مصدر ضعف ملازم لدولتهم ، ومبعث علة كانت تسرى فى أوصـــال ملكهم حتى قضت عليه ، وقد استطاع عبد الملك بن مروان أن يحافظ على التوازن بين الشعبتين المتنافستين ، ولكن خلفاءه لم يتبعوا هذه السياسة الحكيمة ، وكان بعضهم يأخـذ جانب القيسية ويمعن فى ذلك ، وكان البعض الآخر يميل الى جانب اليمنية ويسرف اسرافا شديدا ، وكانت قبيلة كلب اليمنية هى أقوى سـند للأمويين فى الشأم ، فلما تنـكر لها بعض الخلفاء الأمويين مثل الوليد بن يزيد ومروان بن محمـد ضعف تعلقها بالأسرة الأموية ، وكان ذلك من أقوى الأسباب التى أدت الى سقوط الأمويين وذهاب دولتهم .

وقد حدث فى عهد عبد الملك بن مروان — فى ابان فتنة ابن الزبير وانصراف عبد الملك الى محاربة مصعب بن الزبير فى العراق — أن قبيلة قيس كانت قد أخذت جانب ابن الزبير ، وكان زفر بن الحارث الكلابى وعمير بن الحباب السلمى — وكلاهما من أبطال القيسية — يشنان الغارة على كلب اليمنية ويقتلان رجالها ، وكان أبناء القيسيات من بنى أمية يفخرون بذلك على أبنـــاء الكلبيات ، ويروقهم ما تفعل قيس بكلب فى البدو والحضر ، وأثار ذلك خالد ابن يزيد بن معاوية فقال لأقاربه من الكلبيين : هل رجل فيه خير يغير على بادية قيس وأكفيه تباعة السلطان ؟ ان أبناء القيسيات قد أهلكونا بالفخر علينا بما تفتك قيس فى الجاهلية والاسلام ، فأجابه حميد بن بحدل الكلبى — وكان من أخواله — :

أنا لها ان كفيتنى تباعة السلطان .

فقال خالد : أنا أكفيكها ان فعلت .

فأجابه حميد : كيف تكفينيها ؟

فقال خالد : أرسلك مصدقا على باديتهم ، وأكتب لك عهدا على لسان عبد الملك بن مروان بأخذ الصدقة منهم ، حتى تنـال حاجتك على غرة منهم ثم تنصرف .

فقال حميد وقد راقته هذه الخطة : هذا هو الوجه الذى تنال به كفايتى .

وكتب خالد لحميد بن بحدل عهدا على صدقات أهل البدو

أباح له فيه أخذ الصدقة ممن يلقاهم ، وسار حميد فى جمع غير كثير من قومه حتى لا يثير الشبهة ، وأغذ السير فى البادية حتى ورد على بنى عبـــدود وبنى عليم — وهما فرعان من قبيـــلة كلب — وكانا يقيمان فى البادية بجنوب دومة الجندل وخبت ، فأفضى اليهما بالخطة التى وضعها خالد ، فانضم اليه أبطـــال القبيلتين ، وقطعوا له عهدا بأنهم لا يترفقون بالقيسيين ، وأمعن حميد ورجاله فى الصحراء فأدركوا ناسا من بنى فزارة — وهى فرع من قيس — متفرقين للنجعة ، وكان أول من أدركوه رجلا اسمه زيد بن عيينة من سلالة حذيفة بن بدر ، الذى كان قائد ذبيان فى حرب داحس والغبراء ، وكان ابن أم ولد ، ولذا أبى قومه أن يزوجوه على فضله وعراقة نسبه ، فتزوج فى بنى بولان من طى ، فولدت له بنين ، فأدركه الكلبيون ، وهو آخر بنى فزارة ، وليس معه الا بنوه وهم صغار ؛ وقد دلهم عليه أذانه بصلاة الفجر . فذبحوه عنوة وأخذوا ابله ، ثم لقوا خمسة من الفزاريين فقاتلوهم قتالا شديدا حتى أمسوا ، ولم يكن معهم سلاح فأساءوا الضرب فيهم بالسيوف حتى ظنوا أنهم قتلوهم .

وسار الكلبيون من عشيتهم تحت جنح الظلام ، وأدركوا فى الصباح عبد الله بن عمار بن عيينة بن حصن يسير بأهله وليس معه غير ابنه الجعد ، فلما نظر الجعد الى الكلبيين لبس سلاحه ، وركب فرسه ، فنزلوا واعتزل الفتى ، والتفت اليهم الشـــيخ عبد الله بن عمار وقال لهم : من أنتم ؟

فأجاب الكلبيون : نحن سعاة بعثنا الخليفة عبد الملك ابن مروان على صدقات من لقينا من العرب .

فقال لهم الشيخ عبد الله بن عمار : أمعكم عهد ؟

فأجابه حميد بن بحدل : نعم .

فقال لهم ابن عمار : أقرئونيه .

فأطلعه حميد على سجل من عبد الملك يرخص له بجمع صدقات من يلقى من العرب ، ومن أعطاه وكتب له فقد برىء ، ومن عصاه فقد عصى الله ورسوله وأمير المؤمنين ونزع يده من الطاعة .

فقال عبد الله بن عمار : سمعا وطاعة ، هذه صدقة مالى فخذوها .

— وما تغنى عنا صدقة مالك ؟

— وماذا تريدون أن أصنع ؟

— تطلب قومك فزارة وتجمع منها الصدقات وتأتينا بها ، وتواعدنا مكانا من أرضك نقيم لك به حتى تأتينا بصدقات بنى فزارة .

فعجب الرجل لهذا الطلب وقال : ما أقوى على ذلك ، ما فزارة مقيمة ولا مجتمعة ، ان أولها بالمضاجع وانى لآخرها رجلا ، وأنتم أقوى على طلبها منى ، وقد سرتم أبعد من ذلك ، من الشأم حتى أدركتم آخرهم باللوى ، وما أنا بالشاب السن ، وما معى من

بنيّ وأهلي غير غلام واحد ، وأنتم مدركون كل يوم منهم صِرماً حتى تدركوا أولهم ، وانما هم منتجعون يرعون حيث أدركوا المرعى .

فأجابه الكلبيون : بل هم فارون بالصدقة من أمير المؤمنين مفارقون للطاعة ، ملازمون للمعصية .

— كلا — لعمرى انهم أهل سمع وطاعة ، وانما هم منتجعون .

— مالك بد من أن تطلبهم وتكفيناهم .

— ما أقوى على ذلك ، وهذه صدقة مالى فخذوها .

— كيف تعطينا الصدقة وتسمع وتطيع وهذا ابنك يكابرنا ؟..

— ما عليكم من ابنى ؟ خذوا صدقة مالى وانصرفوا ان كنتم مصدقيّ .

— هذا تحقيق ما كان من قتالكم مع ابن الزبير .

— ما فعلنا ذلك ، وانما نحن أهل بادية نؤدى الصدقة الى من قام .

— ان كنت صادقا فأنزل ابنك .

— وماذا عليكم من ابنى ؟ انه رأى رجالا وخيلا وسلاحا فخاف على دمه .

— فلينزل وهو آمن .

فأتى الشيخ ابنه وقال له : انزل . فقال له ابنه : يا أبت أرى عيون الذبحة . أعطهم ما أردت ودعنى أمنع دمى .

فرجع اليهم الشيخ وقال : دعوه وخذوا صدقتكم وانصرفوا فانه قد أشفق على دمه :

— ما نحن بقابلين منك شيئا حتى ينزل .

— قد أبى أن ينزل ، ومالكم فى نزوله من حاجة ، فخذوا صدقتكم وانصرفوا .

— لقد أبيت الا نزوعا الى المعصية .

ودعا حميد بالدواة والقرطاس وقال : لقد أدركنا حاجتنا وسنكتب الى أمير المؤمنين أنا وجدنا ابن عيينة قد حال بيننا وبين بنى فزارة .

— لا تفعلوا فانى لم أفعل .

فلم يعبأ به حميد ، وكتب الى أمير المؤمنين : « انا قدمنا على بنى فزارة فوجدنا أدناهم عبد الله بن عمار على المعصية ، فعازنا وحال بيننا وبين فزارة ، وأرسل بالكتاب راكبا الى عبد الملك .

— يا قوم لا تفعلوا ولا تدّعوا علىّ مالم أفعل ، وأنا أذكركم الله أن تعصونى وأنا طائع سامع .

— ان كنت كما تقول فأنزل ابنك .

— انا والله قد أربنا بكم ، أفهو آمن ان نزل ؟

— نعم .

فأخذ عليهم العهود والمواثيق العظام لئن نزل لا يريبوه ولا يجاوزوا به أخذ صدقاتهم ، وقام الشيخ الى ابنه وقال : بهلنى الله ان لم تنزل فنزل الغلام ، وضرب وجه فرسه ، ورمى

برمحه ، وقال لأبيه : أف لك بعد اليوم ، وأقبل به أبوه حتى أتاهم به ، فعاتبوه قائلين : دخلت فى المعصية وشققت الطاعة وكابرت السلطان .

— ما فعلت ، ولكنى كنت قد أغوتنى عشيرتى وذهبوا عنى ، ورأيت خيلا ورجالا وسلاحا فأشفقت منها .

فاشتدوا فى عتابه واقتادوه الى الصفا ليذبحوه عليه ، فالتفت الى أبيه فكلح اليه بشدقه ، يذكره أنه قد أقاده القوم ، وضربوا الشيخ ضربا مبرحا حتى ظنوا أنهم قتلوه ، ثم انصرفوا ، ولما استفاق الشيخ من غشيته ، كان لا يفتأ يردد قوله : « ان أنس لا أنس كلحة الجعد الىّ وأنا أقدته القوم » .

وزعموا أن فرس الجعد لم تزل تبحث على دمه فى المكان الذى قتل به حتى ماتت — ومر الكلبيون على ناس من بنى مازن — وهم فرع من فزارة — فى أخريات الناس فأصابوا منهم ما أصابوا ثم انصرفوا راجعين على أثرهم ، بعد أن قتلوا بردة ابن حلحلة ، أحد الشيوخ البارزين من القيسية .

تلاحقت بعد ذلك الركبان ، وتحدث الناس بما كان ، واستطار الفرح بالكلبيين وأخذتهم النشوة ، فاستطالوا وفخروا ، وعبر عن شعورهم شاعر من جهينة بهذه الأبيات : —

ألا هل أتى الأنصار أن ابن بحدل
حميدا شفى كلبا فقرت عيونها

وأنزل قيســـا بالهـوان ولم تكن
لتقلع الا عنـــد أمر يهينهـــا
فقـد تركت قتلى حميـد بن بحدل
كثيرا ضـــبـواحيها قليلا دفينهـا
فانا وكلباً كاليـــدين متى تقـــع
شـــمالك فى الهيجا تعنها يمينهـا

وشاع الفـرح كذلك فى نفوس الأمراء الأمويين أبنـــاء الكلبيات ، وكانت أم عبـد العزيز بن مروان كلبية ، وأم بشر ابن مروان قيسية ، فدخل عبد العزيز على عبد الملك وعنده بشر ابن مروان .

فقال له : يا أبا مروان هل علمت ما فعل أخوالى بأخوالك ؟

فقال بشر : ماذا صنعوا يا أبا الأصبغ ؟

فقال عبد العزيز : خرجت سرية من حى كلب حتى أتوا على حى قيس فأهمدوه .

فقال بشر . أخوالك أعجز وأجبن من أن يفعلوا ذلك .

وفى صباح اليوم التالى ، عرف بشر صدق ما قاله أخوه عبد العزيز ، وجاءه حلحلة بن قيس ، وسعيد بن أبان ، وخالد ابن دثار ، وقد شقوا جيبهم وليس عليهم عطاف ولا حذاء ، وشكوا اليه ما حل بهم ، وغضب بنو القيسيات من الأمويين ، ودخل بشر على عبد الملك وأخبره بذلك ، فأرسل الى حلحلة وصاحبيه ، وقال لهم عبد الملك : كم قتل منكم ؟ فذكروا له عدد من قتل ، فقال :

« الدية أخرجها لكم من أعطيات قضاعة » فلم يرضهم ذلك ، لأنهم كانوا ظامئين الى الدماء ، فلما رأى ذلك عبد الملك قال لهم : « لا بأس ! أعطيكم نصف الدية من بيت المال ، فان وفيتم الى قابل أعطيكم النصف البـاقى » فهموا بالرفض ، لولا أن زفر ابن الحارث نصح لهم بأخذ المال ليتخذوه قوة ، ويجعلوه فى السلاح والخيل ، فقبلوا ذلك وأخذوا المال وعادوا الى البادية .

وعقد رجال بنى فزارة اجتماعا ليتشاوروا فى الأمر ، فقال غلام منهم لحلحلة وبنيه : « والله ما أنتم بشىء ، ولا عندكم شىء ، ان هذه الضباع الكلبيين قتلت رجالكم وأخذت أموالكم ثم أنتم هؤلاء لا تخرجون الى الحرب معنا » .

فقال حلحلة : « يا ابن أخى ! استعد واعلم أنى غضبان وناقم على قوم قتلوا بردة ولدى ، وجددت الذكرى أحزانه وأثارت شجونه ، فأخذ يحث القوم على طلب الثأر حتى اجتمع رأيهم بعد الخلاف ، وأرسلوا الخيل ، وقتلوا من أدركوا من كلب فى الموضع المعروف ببنات قين ، وفيها يقول أحد شعرائهم : —

وقعنـا وقعـة برءوس كلب شفت قيسا وأغضبت الأميرا

ولما ذاعت أخبار هـذه الوقعة دخل بشر بن مروان عـلى عبد الملك — وعنده عبد العزيز بن مروان — فقال بشر : يا أبا الأصبغ ! هل علمت ما فعله أخوالى بأخوالك ؟

فقال عبد العزيز : أبعد الصلح وبعد ضمان أمير المؤمنين ؟

فنهاهما عبد الملك فسكتا ، وجاء مستغيث كلب الى عبد العزيز ابن مروان ، وقد شق جبته وطرح عطافه وحذاءه فأدخله الى عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين أخفرت ذمتك ، ونقض عهدك ، وأكل مالك ، وقتلت رعيتك .

فغضب عبد الملك غضبا شديدا ، وكتب الى الحجاج — وهو على الحجاز والطائف — بأن يضع السيف فى فزارة ولا يترك منهم محتلما الا قتله ، وصدع الحجاج بالأمر على كره منه ، وجهز اليهم الخيل ، وكان الحجاج يميل الى قومه من القيسية ، ولكنه كان شديد الطموح ، وهداه تفكيره ومنطقه الصائب الى أن المعارضة غير مجدية ، وأن تلبية طلب الخليفة هو خير وسيلة لاكتساب ثقته ، ولكنه كان يعانى ألما نفسيا وثورة داخلية ؛ لاضطراره الى محاربة قومه ، ولم يخف ذلك عن خاصته ، فقال لهم : « ما فى الأرض مولود فى هذا الحى من قيس أشأم عليها منى ان قتلت بنو فزارة » .

وفضلا عن ذلك — فان الموقف كان حرجا محفوفا بالأخطار ، فقد تجمعت غطفان ، وتحالفت مع فزارة ، وناصرت فزارة سائر قبائل قيس ، والاعتداء على فزارة فى مثل هذه الظروف يفضى الى اشعال حرب داخلية كبيرة لا تؤمن عواقبها ، وكان الحجاج لا يزال حائرا مترددا ، حينما تقدم اليه حلحلة وسعيد بن أبان وقالا له : « ما تصنع ببنى فزارة ونحن صاحبا كلب ؟ » وكان هذان الزعيمان قد شفيا غلهما من كلب ، وقدرا ما يجره من الخطوب

اشتعال الحرب الداخلية ، فاجتمع رأيهما على أن يضحيا بنفسيهما لدفع الأذى عن قبيلتهما .

وسر الحجاج هذا الحل السعيد الموفق الذى لم يكن ينتظره ، فشدهما فى الحديد وكتب الى عبد الملك بأخذهما ، وأن بنى فزارة قد تفرقوا وذهبوا ، وأن غطفان قد تحالفت وتعاقدت ، وأن قيسا فعلت مثل ذلك ؛ فخشيت أن أفتق على أمير المؤمنين فتقا لا يرتقه أبدا » .

وأعجب عبد الملك بما صنع الحجاج فكتب اليه : « قد أصبت وأحسنت » ولما قدم حلحلة الى الموت قال من أبيات :

فان تقتلونى تقتلونى وقد شفى
غليل فؤادى ما أتيت الى كلب

وأظهر هو وسعيد شجاعة نادرة وصبرا وثباتا حينما قدما للقتل . وظل موقف بنى أمية فى الشأم قويا حتى أغضبوا الكلبيين واستهاجوا صيالهم ، وكان ذلك من أقوى أسباب ضياع ملكهم وانتقاض أمرهم .

قيس بن سعد

على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ! ليس هذان الاسمان مجرد علمين يطلقان على شخصيتين من الشخصيات البارزة فى تاريخ الاسلام وسجل أحداثه الكبرى ، وتطوراته البعيدة المدى ، ومواقفه الحافلة بالعبر والدلالات ، وانما هما فى الواقع علمان على طرازين متناقضين من طرز النفوس ، قد توالى ظهورها منذ فجر التاريخ بأسماء مختلفة ، وفى صور متعددة ، وظروف متباينة .

والمعركة القديمة الدائمة الناشبة بين هذين الطرازين تكوّن محورا من محاور تاريخ العالم ، وتنطوى على سر من أسرار الوجود ، وحكمة من الحكم العميقة الخفية ، فعلى بن أبى طالب : علم يطلق على الطبائع المتصوفة الزاهدة ، النقية النبيلة ، التى تطلب الكمال وتبغى المثال ، وتضع مواهبها وحياتها وما أوتيت من جلد وقوة رهنا بخدمة المبدأ الذى تدين به ، وتعمل على نصرته وتأييده واعلاء كلمته ، ومعاوية بن أبى سفيان خير ممثل للطبائع العملية التى تصانع الضرورات ولا تعلو عليها ، وتستغل الظروف ، ولا تحاول أن تغير من طبيعتها ، وتأخذ الدنيا كما هى

فى الواقع ، وتفيد من الضعف البشرى والضعة الانسانية فى تحقيق أهدافها وبلوغ أغراضها ، والنجاح هو مقياس هـذه الطبائع الأدبى ، فكل وسيلة قمينة بتحقيق الغاية فهى وسـيلة مشروعة ، والوسيلة عند علىّ وأضرابه جزء من الغاية ، فسمو الغاية يتطلب كذلك سمو الوسيلة ، أما معاوية وأمثاله : فيرون أن الوسيلة شىء والغاية شىء آخر ، وأن الغاية مهما سمت تسوغ الوسيلة مهما اتضعت وساءت ، وفى اعتقادى : أن التفسير الصادق لسياسة معاوية يقتضينا بأن نصفها بأنها كانت سياسة مكياڤيلية من قبل أن يولد مكياڤلى ، وأن سياسة علىّ كانت سياسة البطل القديس ، الذى يترفق بأعدائه وخصومه ، ولا يتنكر لمبادئه ، ولا ينقض عهدا ، ولا يقول الا صدقا ، ويأبى الدنية فى أية صورة من صورها .

وفى الأمثال : أن الطيور على أشكالها تقع ، وشبه الشىء منجذب اليه ، كما يقول المتنبى ، ولذا — لا ندهش — حينما ثار الخلاف بين علىّ ومعاوية واستفحل — عندما نرى أن كثيرين ممن يشبهون عليًّا فى طبيعته ، ويحرصون حرصه على الاستمساك بالمثل العليا الأخلاقية يسرعون الى مناصرته ، والانضواء تحت رايته ، وان أكثر من يؤثرون العاجلة ويرغبون فى المتعة ، ويرون الحياة وسيلة للنجاح والثروة والسطوة يأخذون جانب معاوية ، ويتحمسون له بمقدار ما تطيقه نفوسهم من حماسـة ، لمصالحهم الخاصة ومآربهم الذاتية .

وكان فى طليعة أنصار علىّ ومؤيديه أمثال عمار بن ياسر ، وهو مثل للرجل الصادق العقيدة ، القوى الايمان ، العميق التدين ، الشديد التعصب لمذهبه ، وهو رجل يأخذ جانبا واحدا ، وهو جانب ما يعتقده حقا ، ويقف الى جانبه ، ولا يصبر على بقاء غيره من الجوانب التى ينكرها ويمقتها ، وهو روح مجاهدة لا تنثلم حدتها ، وخصم عنيد لا تلين قناته ، ولا يرى النصر الأغر الا فى القضاء على أعدائه قضاء مبرما ، فأحاديثه مثل الفولاذ المصهور يديرها ببراعة ، ويلقيها فى حرارة ، ويدمغ بها مخالفيه ، وهو لا يترفق بنفسه ، ولا يوازن بين غايته وقدرته ، ويقينه أقوى من بنيته ، فكان فى طليعة صفوف أنصار علىّ وقد وافى التسعين من عمره ، وكان يسعى جهده الى أن يضحى بنفسه فى سبيل مبدئه ، وكان هذا الرجل المخاص السعى ، النقى التقى نكبة على الأمويين ، يكشف عن حيلهم بأوضح أسلوب ، ويبين مساوئهم فى منطق أخاذ ، وبيان نفاذ ، ويستملى صورة اليقين الصحيح من أعماق نفسه الورعة الزاهدة ، لا من التقاليد المأثورة ، ولذا لم يمنعه ماضى عثمان بن عفان وسابقته فى الاسلام من أن يثور به ، ويؤلب عليه ، فقد رأى أن أعمال عثمان تنافى ما فى نفسه من صور اليقين .

ومن أنصار علىّ ومؤيديه : البطل المقدامة ، والرجل الصادق الرجولة مالك الأشتر ، وهو مثل ممتاز بارز من أمثلة البطولة ، فى عهد البطولة والاستبسال والتضحية ، وقد ظل على وفائه لعلىّ

حتى توفاه الله وهو قادم الى مصر ليضبط أمورها وينهض بأعبائها بما عهده فيه علىّ من اخلاص وهمة وأمانة ووفاء .

ومن الشخصيات الكبيرة التى آزرت الامام ، قيس بن سعد ابن عبادة الأنصارى ، وكان قيس يعد فى عصره من دهاة العرب المعدودين ، مثل عمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، ومعاوية نفسه ، ولكنه لم يكن داهية ، جزل الرأى ، حازما ، حسن التدبير فحسب ، وانما كان كذلك رجل فضيلة وصاحب مبدأ ، وقد دعاه علىّ وولاه مصر وقال له : —

« سر الى مصر فقد وليتكما واخرج الى رحلك ، واجمع اليه ثقاتك ، ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك جند ، فان ذلك أرعب لعدوك ، وأعز لوليك ، فاذا أنت قدمتها ان شاء الله فأحسن الى المحسن واشتد على المريب ، وارفق بالعامة والخاصة ، فان الرفق يمن » .

فأجابه سعد بقوله : —

« رحمك الله يا أمير المؤمنين ، فقد فهمت ما قلت ، أما قولك اخرج اليها بجند : فو الله لئن لم أدخلها الا بجند آتيها به من المدينة لا أدخلها أبدا ، فأنا أدع ذلك الجند لك ، فان أنت احتجت اليهم كانوا منك قريبا ، وان أردت أن تبعثهم الى وجه من وجوهك كانوا عدة لك ، وأنا أصير اليها بنفسى وأهل بيتى ، وأما ما أوصيتنى به من الرفق والاحسان فان الله عز وجل هو المستعان على ذلك » .

وقبل علىّ منه ذلك ، وخرج قيس الى مصر فى سبعة نفر من أصحابه حتى دخلها ، وأحسن السياسة والسيرة ، فاستقامت له مصر ، وبعث عليها عماله ، الا أن أهل قرية « خربتا » كانوا قد أعظموا قتل عثمان ، فأرسلوا الى قيس طالبين : أن يقرهم على حالهم حتى ينظروا الى ما يصير اليه أمر الناس ، ورأى قيس أن يأخذهم بالحلم والرفق حتى لا يتسع الفتق ولا تعم الفتنة ، فوعدهم بأنه سيكف عنهم ويهادنهم .

وكان معاوية يعرف كفاية قيس ويكبره ، فساءه وجود مثل هذا الرجل بمصر ، وخشى أن يتقدم علىّ بجيشه من العراق الى الشام ، ويجىء قيس فى جيش آخر من مصر فيقع بين شقى الرحى ويضطرب أمره ، فكتب الى قيس يقول :

« الى قيس بن سعد : أما بعد — فانكم ان كنتم قد نقمتم على عثمان بن عفان رضى الله عنه فى أثرة رأيتموها ؛ أو ضربة سوط ضربها ، أو شتيمة رجل أو فى تسييره آخر ، أو فى استعماله الفتى ، فانكم قد علمتم — ان كنتم تعلمون — أن دمه لم يكن يحل لكم ، فقد ركبتم عظيما من الأمر ، وجئتم شيئا ادا ، فتب الى الله عز وجل يا قيس بن سعد ؛ فانك كنت من المجلبين على عثمان ابن عفان رضى الله عنه ، ان كانت توبة من قتل المؤمن تغنى شيئا ؛ فأما صاحبك : فانا قد استيقنا أنه الذى أغرى به الناس ، وحملهم على قتله حتى قتلوه ، وان لم يسلم من دمه عظم قومك ، فان استطعت يا قيس أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل ، وتابعنا

على أمرنا ، ولك سلطان العراقين ، اذا أظهرت ما بقيت ، ولمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لى سلطان ، وسلنى غير هذا مما تحب ؛ فانك لا تسألنى شيئا الا أوتيته ، واكتب الى برأيك فيما كتبت به اليك والسلام » .

وقد جرى معاوية فى هذه الرسالة على أسلوبه المعهود من محاولة الاستفادة من الضعف البشرى ، وأقام قيسا بين الرغبة والرهبة ، وكان معاوية يعرف الكثير عن أخلاق قيس ، وأن مثل هذا « الطعم » لا يخدع مثل هذا الرجل ، ولكن ايمان معاوية وأمثاله بالسفالة البشرية كان ايمانا لا حد له ، وهو ايمان يقوم على الاعتقاد : بأن أقوم الناس خلقا وأشدهم عزما وأنقاهم فضيلة قد تستغويه الأطماع ويذله الحرص ، فى ساعة من ساعات الضعف الذى يطرأ على النفوس ، وفترة من فترات الشك الذى لا ينفك عن مطاردة الناس ، ولا يسلم من غوائله أفاضل الناس وأعالى البشرية .

ورأى قيس أن يقابل المكر بالمكر ، ويصدم الدهاء بالدهاء ، فرد على معاوية بهذه الرسالة :

« أما بعد : فقد بلغنى كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه من قتل عثمان رضى الله عنه ، وذلك أمر لم أقارفه ، ولم أطف به ، وذكرت : أن صاحبى هو الذى أغرى الناس بعثمان ودسهم اليه حتى قتلوه ، وهذا ما لم أطلع عليه ، وذكرت : أن عظم عشيرتى لم تسلم من دم عثمان ، فأول الناس كانوا فيه قياما عشيرتى ، وأما

ما سألتنى من متابعتك وما عرضت علىّ من الجزاء به فقد فهمته ، وهذا أمر لى فيه نظر وفكرة ، وليس هذا مما يسرع اليه ، وأنا كاف عنك ، ولن يأتيك من قبلى شىء تكرهه ، حتى ترى ونرى ان شاء الله ، والمستجار الله عز وجل ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

وواضح من هذه الرسالة : أن قيسا كان يحاول أن يدافع معاوية ، ولا يبدى له أمره ، ولا يتعجل حربه ، وأن يطمئن حتى تحين الفرصة المناسبة لذلك ، ولكن معاوية لا يجوز عنده مثل هذا الموقف ، فهو يريد أن يكشف دخيلة قيس ليحدد موقفه منه ، وليرسم سياسته نحوه ، فكتب اليه :

« أما بعد : فقد قرأت كتابك فلم أرك تدنو فأعدك سلما ، ولم أرك تباعد فأعدك حربا ، أنت فيما ها هنا كحنك الجزور ، وليس مثلى يصانع المخادع ، ولا ينتزع للمكايد ، ومعه عدد الرجال ، وبيده أعنة الخيل ، والسلام عليك » .

وهكذا لم يقبل معاوية منازلة قيس فى ميدان الخب والدهاء ، والمخادعة والمواربة ، وأحب أن يؤكد له قوة موقفه ، ورأى قيس أنه لا فائدة من المدافعة والمماطلة ، فكشف له عن ذات نفسه ، وصارحه بحقيقته ، فكتب اليه هذه الرسالة :

« أما بعد : فان العجب من اغترارك بى ، وطمعك فىّ ، واستسقاطك رأيى ، أتسومنى الخروج من طاعة أولى الناس بالامرة ، وأقولهم للحق ، وأهداهم سبيلا ، وأقربهم من رسول

الله وسيلة ، وتأمرنى بالدخول فى طاعتك ، طاعة أبعد الناس من هذا الأمر ، وأقولهم للزور ، وأضلهم سبيلا ، وأبعدهم من الله عز وجل ورسوله وسيلة ، ولد ضالين مضلين ، طاغوت من طواغيت ابليس ، وأما قولك : انى مالىء عليك مصر خيلا ورجلا ؛ فو الله ان لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم اليك ، انك لذو جد ، والسلام » .

فلما بلغ معاوية كتاب قيس أيس منه ، وثقل عليه مكانه ، ولكن معاوية كان رجلا واسع الحيلة ، جم الدهاء ، فابتدع أسلوبا آخر فى مكايدة قيس ، وزحزحته عن مصر ليغلب عليها ، فأوصى أهل الشام بألا يسبوا قيسا ولا يذكروه بسوء ، وأشاع أن قيسا من شيعته ، وأنه يوافيه بنصائحه وناضج آرائه ، والدليل الواضح على ذلك : مهادنته لأهل خربتا ، وترفقه بهم ، وسكوته عنهم ، وهم شيعة عثمان ، وسمع بذلك جواسيس علىّ عند معاوية ، وكان محمد بن أبى بكر — على ما يظهر — يطمع فى ولاية مصر ، وكان يناصره فى ذلك محمد بن جعفر بن أبى طالب ، فأبلغا ذلك الخبر الى الامام ، وأكثرا من الحديث ، وبالغا فيه ، حتى اتهم الامام قيسا على فرط ثقته به ، وعظيم تقديره له ، وكتب اليه يأمره بقتال أهل خربتا ، وأبى قيس ذلك ، وكتب الى الامام يصف له موقفه منهم ، ويعلن : أنه لا يرى الفرصة سانحة لقتالهم ، فأبى علىّ الا قتالهم ، فساء ذلك قيسا ، وجعله يطلب اقالته من عمله ، فعزله علىّ عن مصر ، وقد كان عزل قيس عن مصر من

الأخطاء السياسية التى تورط فيها الامام ، وكان لها نتائج سيئة فى سير الحوادث التالية لعزله .

وخرج قيس من مصر وقدم المدينة ، وأقام بها ، فضايقه مروان بن الحكم وأخافه ، فاضطر الى الذهاب الى علىّ ، وغاظ ذلك معاوية فكتب الى مروان :

« أمددت عليًّا بقيس بن سعد ورأيه ومكانه ؟ ، فوالله لو أمددته بمائة ألف مقاتل ما كان ذلك بأغيظ لى من اخراجك قيس بن سعد الى علىّ » .

ولما قدم قيس على علىّ أنبأه جلية الخبر ، وصور له الحالة فى مصر أصدق تصوير ، وجاءت أنباء قتل محمد بن أبى بكر الذى خلفه على ولاية مصر ، فعرف الامام أن قيس بن سعد كان يقاسى أمورا عظاما من المكايدة ، وأن من أغراه بعزل قيس لم ينصح له ، فأحل قيسا مكانا ساميا فى نفسه ، واتخذه مستشارا أمينا وناصحا مجربا .

وتوالت الحوادث ، وجرت المقادير فى أعنتها ، وقتل الامام ، وخلفه ابنه الحسن ، فكان قيس على مقدمة جيشه ، ولما رأى الحسن أن يطلب الصلح من معاوية كتب الى قيس يأمره بالدخول فى طاعة معاوية ، فقام قيس فى الناس فقال :

« أيها الناس ، اختاروا الدخول فى طاعة امام ضلالة ، أو القتال مع غير امام » .

فكان رأى الأغلبية الدخول فى طاعة امام ضلالة ، وبايعوا

لمعاوية ، ولم يلن قيس لمعاوية حتى أرسل اليه بسجل قد ختم عليه فى أسفله وقال له :

« أكتب فى السجل ما شئت » .

فاشترط قيس فيه له ولشيعة علىّ الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال ، ولم يسأل معاوية فى سجله ذلك مالا ، وأعطاه معاوية ما سأل ، فدخل قيس ومن معه فى طاعته ، وانصرف قيس عن الجيش ، ولا ريب فى أن الكثير من الخواطر الحزينة كانت تضطرب فى نفسه وتساوره عند انصرافه ، وانتهاء مأساة الخلاف بين علىّ ومعاوية على هذه الصورة ، التى أبعدت العلويين عن الحكم والسلطان ، ومكنت للأمويين .

بين الأخلاق والسياسة

كان خروج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على الدولة المروانية ، وخلعه طاعة الخليفة عبد الملك ، ومحاربته الحجاج بن يوسف فى العراق من الثورات الخطيرة التى هزت أركان تلك الدولة هزا عنيفا ، وكادت تطيح بها ، ولقد لقى الحجاج من هذه الثورة ما أطال همه ، وأقض مضجعه ، وقد أظهرت كل ما كان مدخرا فى نفسه من الصبر والجلد والثبات وقوة الاحتمال ، فلما وفق فى القضاء على هذه الثورة واسترد مكانته وهيبته شفى غليل نفسه من الذين ناصروا عبد الرحمن وقاتلوا تحت لوائه ، فقسا عليهم قسوة شديدة ، ومثل بهم تمثيلا فظيعا ، ولم يجد بعفوه الا على أفراد معدودين منهم .

وقد علمته هذه الثورة الرهيبة درسا لم ينسه بعد ذلك ، وهو الحذر من اسناد الأمر فى الولايات النائية الى الأمراء الذين يعتزون بعصبيتهم القوية وجاههم العريض ، ومن ثم لم يكن له هم بعد الخلاص من ثورة ابن الأشعث سوى خلع يزيد بن المهلب من ولاية خراسان ، وكان يزيد رجلا شجاعا مقداما ، ومن الأسخياء المعدودين ، وكان له من ماضى أبيه المهلب فى مكافحة الخوارج

ورد عاديتهم وفل جموعهم ، ومن قومه أزد عمـان ما يرفع من شأنه ، ويعلى من قدره ، ويجعل له مكانة مرموقة ، ومنزلة مرعية بين رجالات الدولة البارزين وأعيانها المعروفين ، وقد اختير حاكما لخراسان بعد موت أبيه المهلب فى سنة ٨٢ هجرية ، وكان يزيد من ناحيته ينظر الى الحجاج نظرة تنطوى على شىء من الاستهانة بأمره ، والاستخفاف بأصله ونشأته ، فيزيد : كان يعد نفسه رأس قبيلة الأزد التى تأتمر بأمره ، وتدين بطاعته ، يؤيدها فى ذلك أنصارها وأحلافها من سائر القبائل ، والحجاج فى رأيه : أحد القيسيين الذين خلقهم عبد الملك بن مروان ، وبوأهم المنـاصب العالية ، وجعل لهم مكانة وذكرا بين الناس ، ولم يكن الحجاج يجهل حقيقة شعور يزيد بن المهلب نحوه ، وكان يرى فى سلوك يزيد وأقواله وأعماله ما يقوى سـوء ظنه به ، ويزيده شـكا فى ولائه .

ولما ساورته هذه المخاوف ، وطافت برأسه الظنون لم يجد بدا من الكتابة الى عبد الملك يطلب عزل يزيد بن المهلب عن خراسان، ولكن عبد الملك لم يكن — برغم ثقته الشديدة بالحجاج — الرجل الذى يقبل الآراء والمقترحات بغير نظر ولا مراجعة ، وكان الحجاج — حينما طلب عزله وأراد أن يضم عبد الملك الى رأيه — قد اتهم يزيد بأنه يميل الى آل الزبير ، خصوم عبد الملك وبيته ومنافسيه على الخلافة ، ولم يقتنع عبد الملك بهذا الكلام ، ولم يرقه هذا الاتهام ، فكتب الى الحجاج يقول : « ان ذلك وفاء

لآل الزبير من آل المهلب ، وان وفاءهم لأولئك يدعوهم الى الوفاء لنا » ، فلم يصرف هذا الكتاب الحجاج عن طلبه ، وأعاد الكتابة الى عبد الملك يخوفه غدر يزيد وآل المهلب ؛ فوقع هذا الكلام فى نفس عبد الملك واستصوبه ، فكتب الى الحجاج يقول :

« قد أكثرت فى يزيد ، فسم لى رجلا يصلح لخراسان » ، فسمى له الحجاج رجلا يدعى مجاعة بن سعر ، وانما جعل ذلك دهاء منه حتى لا يعرف عبد الملك حقيقة ميوله ، لأن هذا الرجل لم يكن يصلح ، وكان الحجاج يعلم العلم كله أن عبد الملك سيرفض اختياره ، وكتب اليه عبد الملك يسفه رأيه فى اختياره ، وهنا لاحت الفرصة ليعرض على عبد الملك اسم الرجل الذى كان الحجاج يقدره ويثق به ، ويطمئن الى اخلاصه وكفايته ، وكان هذا الرجل هو مسلم بن قتيبة الباهلى ، ولما سماه الحجاج لعبد الملك أقر اختياره ووافق عليه .

وكره الحجاج أن يواجه يزيد بن المهلب بالعزل ، ولعله خشى أن يحدث حدثا ويخالف أمره ، فكتب الى يزيد يستقدمه ويوصيه أن يستخلف أخاه المفضل ، وأبطأ يزيد على الحجاج ، فكتب الحجاج الى أخيه المفضل : « انى قد وليتك خراسان » فجعل المفضل يستحث أخاه على الذهاب الى الحجاج ، ولم يغب عن يزيد سر هذه الحيلة ؛ فقال لأخيه : « ان الحجاج لا يقرك بعدى ! وانما دعاه الى ما صنع مخافة أن أمتنع عليه ! » ، ولكن أخاه كان

قد فرح بالولاية وطمع فيها ، فأجابه : « بل حسدتنى » فقال له يزيد : « أنا لا أحسدك ولكن ستعلم ! » .

وخرج يزيد من خراسان ، فعزل الحجاج المفضل ، وولى قتيبة بن مسلم ، وكان قتيبة عامل الحجاج على الرى ، فكتب اليه الحجاج ليستوثق من المفضل وبنى أبيه ويشخصهم اليه ، فلما قدم قتيبة مرو أخذ المفضل وسائر ولد المهلب وأشخصهم الى الحجاج ، فحبسهم جميعا ، وطالبهم بمال كثير ، وأمعن فى اذلالهم وتعذيبهم ، حتى اضطرهم الى الهرب من وجهه ، ولاذوا بسليمان ابن عبد الملك ، الذى شفع لهم عند الخليفة الوليد ، وأظلهم برعايته وحماهم من سطوة الحجاج .

وكان قتيبة بن مسلم الذى اختاره الحجاج حاكما لخراسان قد نشأ بالبصرة ، وكان أبوه مسلم كبير القدر عند يزيد بن معاوية ، وهو من باهلة ، وكان يُعَيَّر بهذا ، لأن العرب كانت تستنكف من الانتساب الى هذه القبيلة ، وترميها بالضعة والمهانة ، حتى قال فيها الشاعر :

ولو قيل للكلب يا باهلىّ ! ..

عوى الكلب من لؤم هـذا النسب

ولكن هذا الرجل الذى كان يعاب بباهليته من أعظم رجال الدولة المروانية ، وأقدرهم وأجرأهم وأشجعهم ، وقد ظهرت بوادر شجاعته فى مواجهة الحجاج نفسه ، على عظيم هيبته وشدة عنفه ،

بالقول الصريح والكلمة الصادعة ، فقد روى الطبرى فى تاريخه : أنه لما فض شبيب الخارجى كتائب الحجاج وكاد يغلبه على أمره ، استدعى الحجاج بعض الرجال البارزين فى العراق ليستشيرهم فى الموقف ، ويبادلهم الرأى ، وقال لهم عن شبيب : « لقد تبجح هذا الرجل بحبوحتكم ، ودخل حريمكم ، وقتل مقاتلتكم ، فأشيروا علىّ » فأطرقوا جميعا ، ولكن قتيبة تقدمهم وخاطب الحجاج قائلا : « ان الأمير والله ! ما راقب الله ، ولا حفظ أمير المؤمنين ، ولا نصح للرعية » وغضب الحجاج وقال : « من المتكلم ؟ » فأعاد قتيبة كلامه ، والظاهر : أن الحجاج أعجب بشجاعته وصراحته ، فاستشاره فى الموقف ، وأخذ برأيه ، وعمل بنصيحته ، وربما كان من الأسباب التى دعت الحجاج الى اختياره والتعلق به — علاوة على ما كان يعلمه من كفايته وجزالة رأيه وشجاعته ونزاهته — أنه لم يكن ينتمى الى قبيلة قوية النفوذ منيعة الجانب ، وأمثاله يضمن الخلفاء وكبار الولاة ولاءهم ولا يخشون بأسهم ، لأنهم يستمدون قوتهم من الدولة وسلطان الخليفة ، لا من عصبيتهم القبلية .

وكان قتيبة خطيبا قديرا ، حاضر الخاطر سريع البديهة ، وحاكما نهاضا بالأعباء ، عارفا بواجباته ، مقدرا لتبعاته ، ويروى : أنه لما دخل خراسان وصعد المنبر ليخطب الناس سقطت العصا من يده ، فتطير الناس من ذلك ، فأخذها قتيبة وقال : « ليس الأمر كما ساء الصديق وسر العدو ، ولكن كما قال الشاعر :

فألقت عصاها واستقر بها النــوى
كما قر عينـــا بالاياب المســـافر

ولما ولى قتيبة خراسان كانت الأقاليم الواقعة فى شــمالها وشرقها لم يحسن فتحها ، ولم يتم اخضاعها ، لمناعتها ووعورتها وشدة بأس أهلها ، فقام قتيبة بهذه المهمة خير قيام ، ووثب لغزو ما وراء النهر ، وتوغل فى تلك الأنحاء ، وبلغ من افتتاح القلاع واستباحة البلاد وقتل الفتاك مالم يبلغه أحد قبله ولا بعده ، وقد فتح خوارزم وسمرقند فى عام واحد .

وكان من أمراء الأتراك البارزين نيزك طرخان ، وكان لنيزك هذا : قلعة حصينة فى باذغيس ، وصفها أحد الشعراء بقوله :

محلقة دون الســماء كأنهــا
غمامة صيف زل عنها ســحابها
ولا يبلغ الأروى شماريخها العــلى
ولا الطــير الا نسرها وعقابها
وما خوفت بالذئب ولدان أهــلها
ولا نبحت الا النجــوم كلابها

وكان فى يد هذا الرجل — عند قدوم قتيبة الى خراسان — بعض أسراء المسلمين ، فكتب اليه قتيبة فيمن بين يديه من هؤلاء الأسرى ليطلقهم ، وهدده فى كتابه ، فخافه نيزك وأطلق الأسرى وبعث بهم اليه ، فأرسل اليه قتيبة أحد رجاله ، وكان اسمه سليما الناصح ، ليدعوه ويؤمنه ، وحلف بالله لئن لم يقدم اليه

ليغزونه وليطلبنه حيث كان ، وكان لنيزك معرفة قديمة بسليم الناصح ، فقال له نيزك : « ما أظن عند صاحبك خيرا ، فلقد كتب الى كتابا لا يكتب الى مثلى » فقال له سليم : « ان هذا رجل شديد فى سلطانه ، سهل اذا سوهل ، صعب اذا عوسر ، فلا يمنعك منه غلظة كتابه اليك ، فما أحسن حالك عنده » وقبل نيزك نصيحة سليم ، وقدم معه على قتيبة ، وصالح قتيبة أهل باذغيس على ألا يدخلها .

وأوقع قتيبة بأهل بخارى وفض جمعهم ، وفصل من بخارى ومعه نيزك ، وقد أخذه الذعر واستولى عليه الخوف ، لما رأى من الفتوح وباهر الانتصارات التى أحرزها قتيبة ، ولم يكتم مخاوفه عن أصحابه وخاصته ، فقال لهم : « انى لا آمن هذا الرجل ، وذلك : أن العربى بمنزلة الكلب اذا ضربته نبح ، واذا أطعمته بصبص واتبعك ، واذا غزوته ثم أعطيته شيئا رضى ونسى ما صنعت به ، وقد قاتله طرخون مرارا ، فلما أعطاه فدية قبلها ورضى ، وهو شديد السطوة فاجر ، فلو استأذنت ورجعت كان الرأى » ووافقه أصحابه على رأيه ، وقالوا له : « استأذنه » ، فلما انتهى قتيبة الى مدينة آمل استأذنه نيزك فى الرجوع الى تخارستان ، فأذن له قتيبة ، فلما فارق عسكره متوجها الى بلخ قال نيزك لأصحابه : « أغذوا السير ؛ لأنى لا أشك أن قتيبة قد ندم حين فارقنا عسكره على اذنه لى ، وسيقدم الساعة رسوله ، ولست أريد أن يبلغنا الرسول الا حين نبلغ تخارستان وندخل شعب خلم » ، وقدم

الرسول ، ومعه جماعة من الجند لارجاع نيزك ، ولكنه كان قد دخل الشعب ، وهو ناحية منيعة لا يسهل متابعته بها واسترداده منها ، فانصرف الرسول عائدا لقتيبة ، وأظهر نيزك خلع الطاعة ، وراسل بعض ملوك الترك يحرضهم على الخروج من طاعة قتيبة ، وواعدهم أن يجتمعوا به فى الربيع لمحاربة قتيبة ، فأجابوه الى ذلك ، وأخرج عامل قتيبة من تخارستان .

وبلغ قتيبة خلعه قبل قدوم الشتاء ، وكان ملك الطالقان وملك الفارياب وملك الجوزجان من ملوك الأتراك الذين أجابوا دعوة نيزك ، وأعلنوا خروجهم على قتيبة ، فسار اليهم قتيبة فأذعنوا وأقروا بطاعته ، فمضى حتى أتى شعب خلم ، وقد خلف نيزك مقاتلة على فم الشعب ومضايقه ليمنعوه ؛ ووضع مقاتلة فى قلعة حصينة وراء الشعب ، فأقام قتيبة أياما يقاتله على مضيق الشعب ولا يقدر منه على شىء ، فكبر على قتيبة الأمر ، وبينما كان قتيبة يعانى ألم هذه الحيرة قدم عليه ملك الرؤب مستأمنا ، ودله على مدخل القلعة التى وراء الشعب ، واستطاع قتيبة بعد الاستيلاء على القلعة أن يدخل الشعب ، ومضى نيزك هاربا حتى نزل ناحية جبلية حصينة ، وهى ناحية الكرز ، واعتصم بمضايقها ، ولم يكن اليه مسلك الا من وجه واحد صعب لا تطيق الدواب السير فيه ، فحصره قتيبة شهرين حتى قل ما فى يد نيزك من الطعام ؛ وخاف قتيبة قدوم الشتاء ، فدعا سليما الناصح وقد دارت فى نفسه معركة حامية بين مقتضيات الصدق والوفاء والمحافظة على العهود

وصدق الوعود ، وبين ما تفرضه ضرورات السياسة وممارسة الحياة العملية من الانحراف عن قواعد الأخلاق ، والتحلل من قيود العهود المقطوعة ، والوعود الممنوحة ، ومجانبة التزام الصدق ، وكانت المعركة رهيبة ؛ لأن قتيبة كان رجل جد واقدام ، فهو يكره الاخفاق ، ويأبى أن يعود مغلوبا على أمره ، ويخشى على سمعته ومكانته ان هو عاد خائبا ، وظل نيزك حيا يرزق ، وثائرا خارجا على الطاعة لا يعرف عقوبة ارتداده ، ولا يحسب حسابا لسطوة قتيبة ولا لمكانته وجلالة خطره ، وكان قتيبة يعلم أن عجزه عن هزيمة نيزك وأسره والقضاء عليه قد يغرى غيره من ملوك الترك وأمرائهم بخلع الطاعة والتمرد والعصيان ، وكان من ناحية أخرى لا يحب أن يوصم بالغدر ، ويرمى بنقض العهد ، وهو الرجل البطل المقدام المعروف بالصدق والصراحة والنزاهة والنصاحة ، وهداه تفكيره الى طريقة للخروج من المأزق ، فاستدعى سليما الناصح وقال له : « انطلق الى نيزك ، واحتل لأن تأتينى به بغير أمان ، فان أعياك وأبى فأمنه ، واعلم أنى ان عاينتك وليس هو معك صلبتك ، فاعمل لنفسك » ، والظاهر أن هذه الحيلة أرضت ضميره ، وهدأت وساوسه الأخلاقية ، فهو لم يرتبط بشيء ، ولم يعد نيزك بالأمان ، واذا أعطاه سليم الأمان فان سليما هو المسئول عن ذلك ، ولا شأن لقتيبة فى أمان يعطيه سليم لنيزك . والظاهر أن قتيبة أقنع نفسه بسلامة هذا المنطق وبراعة هذه الحيلة ، فقال له سليم : « ابعث رجالا ليكونوا على فم الشعب ، فاذا خرجت أنا ونيزك

فليعطفوا من ورائنا فيحولوا بيننا وبين الشعب » ، ومضى سليم وقد حمل معه من الأطعمة التى تبقى أياما أوقارا حتى أتى نيزك ، فقال له نيزك لما رآه : « خذلتنى يا سليم » فقال له سليم : « انى ما خذلتك ، ولكنك عصيتنى وأسأت الى نفسك ، وخلعت وغدرت » فقال نيزك : « فما الرأى ؟ » فأجابه سليم : « الرأى أن تأتى قتيبة فقد أمحكته ، وهو ليس ببارح موضعه هذا ، وقد اعتزم على أن يشتو بمكانه هلك أو سلم » .

فقال نيزك : « آتيه على غير أمان ؟

فأجابه سليم : « ما أظنه يؤمنك لما فى قلبه عليك ، فانك قد ملأته غيظا ، ولكنى أرى ألا يعلم بك حتى تضع يدك فى يده ، فانى أرجو ان فعلت ذاك أن يستحى ويعفو عنك » .

فقال نيزك : أترى ذلك ؟

فأجابه سليم : نعم .

فقال نيزك : ان نفسى لتأبى ذلك ، وهو ان رآنى قتلنى .

فأجابه سليم : انى ما أتيتك الا لأشير عليك بهذا ، ولو فعلت لرجوت أن تسلم ، وأن تعود حالك عنده الى ما كانت ، فأما اذا أبيت فانى منصرف .

فقال نيزك : فنغديك اذن .

فأجابه سليم : انى لأظنكم فى شغل عن تهيئة الطعام ، ومعنا طعام كثير .

ودعا سليم بالغداء ، فجاءوا بطعام كثير لا عهد لهم بمثله منذ حصروا ، فانتبه الأتراك لذلك ، وغم ذلك نيزك وأحزنه وأخافه وأرعبه ، وأدرك سليم هذا فقال له :

« انى لك من الناصحين ، وأرى أصحابك قد جهدوا ، وان طال بهم الحصار وأقمت على حالك لم آمنهم أن يستأمنوا بك ، فانطلق معى وأت قتيبة » .

فقال نيزك : ما كنت لآمنه على نفسى ، ولا آتيه على غير أمان ، فان ظنى به أنه قاتلى ، وان أمننى ، ولكن الأمان أعذر لى وأرجى .

فقال سليم : قد أمنتك أفتتهمنى؟

فقال نيزك : لا .

فأجابه سليم : انطلق اذن معى .

وأشار عليه أصحابه بقبول قول سليم ؛ لأنه لا يقول الا حقا ، فدعا نيزك بدوابه ، وخرج مع سليم ، فلما انتهى الى الدرجة التى يهبط منها الى قرار الأرض عاودته مخاوفه .

فقال لسليم : من كان لا يعلم متى يموت فانى أعلم متى أموت ، أموت اذا عاينت قتيبة .

فقال سليم مطمئنا له : أيقتلك مع الأمان ؟ ، وهو يعلم أن قتيبة غير مرتبط بهذا الأمان ؛ لأنه لم يصدر منه مباشرة لنيزك ، وانما احتمل سليم تبعته مرغما مأمورا .

وصحب نيزك بعض رجاله ، فلما خرج من الشعب عطفت الخيل التى خلفها سليم على فوهة الشعب ، وحالوا بين الأتراك وبين الخروج ، فقال نيزك لسليم : هذا أول الشر ، فقال له سليم : « تخلف هؤلاء عنك خير لك » ، ولما قدم نيزك على قتيبة أمر بحبسه ، وكتب الى الحجاج يستأذنه فى قتله ، وأتاه كتاب الحجاج بالموافقة على ذلك بعد أربعين يوما ، فاستدعى قتيبة نيزك للمثول بين يديه وقال له :

« هل لك عندى عقد أو عند سليم ؟ » .

فقال نيزك : لى عقد عند سليم .

فقال له قتيبة : كذبت . ورد الى حبسه ، وتكلم الناس فى أمر نيزك ، فقال بعضهم : ما يحل له أن يقتله ، وقال بعضهم : ما يحل له تركه ، وكثرت الأقاويل فيه وتعارضت الآراء ، ومرت ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع أذن قتيبة للناس ، وقال لهم : « ما ترون فى أمر نيزك ؟ » فاختلفوا فيه ، فقال قائل : اقتله ، وقال قائل : أعطيته عهدا فلا تقتله ، وقال قائل : ما نأمنه على المسلمين ، ودخل عليه رجل من خاصة رجاله اسمه ضرار ، فقال له قتيبة : ما تقول يا ضرار ؟ قال : أقول : انى سمعتك تقول : أعطيت الله عهدا ان أمكنك منه أن تقتله ، فان لم تفعل لا ينصرنك الله عليه أبدا .

فأطرق قتيبة طويلا ثم قال : والله لو لم يبق من أجلى الا ثلاث كلمات لقلت : اقتلوه اقتلوه اقتلوه ، وأرسل الى نيزك فأمر بقتـــله .

وهكذا تنتصر الضرورات السياسية على الاعتبارات الأخلاقية فى أمثال هذه المواقف ، وتفرض ارادتها حتى على أصحاب الأخلاق القويمة ، المطبوعين على الوفاء والصدق ، وقد أحس الباهليون فى مصرع نيزك شيئا يمس سمعة رجلهم الكبير ، وبطلهم الذى يفخرون به فقالوا : انه لم يؤمن نيزك ، ولم يؤمنه كذلك سليم ، ولكن الروايات التاريخية الراجحة لا تؤيد ذلك ، بل تضيف الى ذلك : أنه لما أراد قتله دعا به ، ودعا بسيف حنفى فانتضاه ، وطوّلَ كميه ، ثم ضرب عنقه بيده ، ومما يؤسف عليه ، أن توطيد الملك فى كثير من الأحيان قد استدعى الاقدام على أمثال هذه الكبائر ، والأوربيون يقولون فى أمثالهم : « صنع العجة يستلزم كسر البيض » أى أن الضرورات تبيح المحظورات ، والغاية تبرر الوسيلة .

نصر بن سيار

حينما عبست الأيام للأمويين ، وتخلى عنهم الحظ ، وماجت بهم الفتن ، واشتعلت نيران الثورة فى كل ناحية من نواحى ملكهم العريض ، وتنكر لهم الصديق ، ولم يرع عهدهم الولى ، وتهاوت معاقلهم المنيعة ، وتوالت الهزائم على جيوشهم ، كان يقف الى جانبهم ويثبت فى صفوفهم رجل كالطود الراسخ ، وهذا الرجل هو : نصر بن سيار ، حاكم الأقليم الذى هبت عليهم من نواحيه العاصفة العاتية ، وأصابتهم من جوانبه الضربة القاضية ، وهو خراسان .

ولد نصر فى سنة ٤٦ هجرية ، فى عهد خلافة معاوية ، وكان أبوه — سيار — من رجال مصعب بن الزبير ، وقد اتهم أبوه بسرقة عيبة ، وقطعت يده ، فكان يقال له الأقطع ، وطالما عير نصرا أعداؤه بهذه الهفوة التى ارتكبها أبوه ، وربما كان من البواعث التى حفزت نصرا على حب المخاطرة ، والرغبة فى ابتناء المجد ونيل المكانة السامية حرصه على أن يرحض عن أسرته هذا العار ، ويستنقذها من سوء القالة والهوان ، ولا تزودنا المراجع التى يمكن الاعتماد عليها بمعلومات عن نشأة نصر ، ولكن

علاقة أبيه بمصعب بن الزبير — الذى كان حاكما للعراق من قبل أخيه عبد الله — تميل بنا الى ترجيح أن نصرا كان عراقى النشأة ، وترجع سلسلة نسبه الى بطن من بطون كنانة ، فهو مضرى صليب ، وقد تلقى نصر الدراسة التى كان يتلقاها أمثاله فى ذلك العصر ، وهى دراسة الفقه الاسلامى والأدب ، وكان لنصر ملكات أدبية ممتازة ، ولكنه لم يكن بطبيعته ميالا الى حياة الفكر والتأمل ، أو الانقطاع للشعر والكتابة ، بل كان رجلا طموحا ، جم الحيوية ، محبا للسيطرة والنفوذ ، وقد وجد منفذا لنشاطه فى الانضمام الى جيش الفاتح الكبير والقائد المقدامة قتيبة بن مسلم الباهلى ، الذى اختاره الحجاج لولاية خراسان ، وهو الذى وثب من خراسان لغزو بلاد ما وراء النهر ، وأوغل فى بلاد الترك ، حتى وصل الى حدود الصين ، وفى سنة ١٠٦ هجرية اشترك نصر مع مسلم ابن سعيد الكلابى أمير خراسان فى غزو فرغانة ، ولما تقاعدت قبيلتا ربيعة والأزد عن مناصرة مسلم اعتمد على نصر فى محاربتهما وارغامهما على طاعته والانضواء تحت رايته ، وقام نصر بأعباء هذه المهمة بما عرف عنه من حماسة وكفاية وشدة ومضاء ، ثم استعمل خالد القسرى حاكم العراق أخاه أسد بن عبد الله على خراسان ، وأبلى نصر بلاء حسنا فى محاربة خاقان الترك مع أسد القسرى ، ولكن أسدا كان شديد التعصب لليمنية ، متحاملا على المضرية ، فلم تشفع لنصر عنده مواقفه المشرفة وحسن بلائه ، وأساء معاملته ، وضربه هو ونفرا معه بالسياط ، وحلقهم وسيّرهم

الى أخيه خالد ، وكتب اليه : أنهم أرادوا الوثوب به ، وقد أثار ذلك خاطر الشاعر الفحل الفرزدق ، وكان من المعجبين بنصر ، المقدرين لبطولته ، فقال منددا بخالد القسرى :

اخـالد لولا الله لم تعط طاعة
ولولا بنو مروان لم يوثقوا نصرا
اذا للقيتم عنـد شـد وثاقه
بنى الحرب لا كشف اللقاء ولا ضجرا

ولم يرض هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى حينذاك عن سياسة أسد فى خراسان ، وكتب الى أخيه خالد بعزله ، فرجع أسد الى العراق سنة ١٠٩ ، واستعمل هشام أشرس بن عبد الله السلمى واليا على خراسان ، وقد رد أشرس لنصر اعتباره ، واختاره واليا على بلخ ، وظل نصر واليا عليها حتى عزله عن ولايتها الجنيد ، حينما ولى خراسان ، واستعان به فى محاربة الترك فيما وراء النهر ، وحضر نصر مع الجنيد وقعة الشعب التى كاد الترك أن يهزموا فيها جيش المسلمين الفاتحين ، وأبلى فى هذه الوقعة بلاء حسنا ، وذكرها فى شعره فقال :

انى نشأت وحسادى ذوو عدد
يا ذا المعارج لا تنقص لهم عددا
ان تحسدونى على مثل البلاء لكم
يوما فمثل بلائى جرّ لى الحسدا

يأبى الالـــه الذى أعـلى بقدرته
كعبى عليكم وأعطى فوقهم عـددا
هلا شهدتم دفاعى عن جنيـــدكم
وقع القنا وشهاب الحرب قد وقدا

ومدحه أحد الشعراء المعاصرين له بهذه الأبيات ، وقد أشار فيها الى مواقفه فى وقعة الشعب فقال :

يا نصر أنت فتى نزار كلهـــــا
فلك المآثر والفعـــــال الأرفع
فرجت عن كل القبـــــائل كربة
بالشعب حين تخاضعوا وتضعضعوا
يوم الجنيـد اذ القنا متشـــاجر
والبحـر دام والخـــــوافق تلمع
مازلت ترميهم بنفس حـــــرة
حتى تفـــرج جمعهم وتصـدعوا
فالنـــاس كلّ بعـــدها عتقاؤكم
ولك المكارم والمعـــــالى أجمع

وأعيد نصر الى ولاية بلخ ، ولما ولى أسد بن عبد الله خراسان للمرة الثانية فى سنة ١١٧ هجرية اشترك نصر معه فى اخماد ثورة الحارث بن سريج ، الذى خلع طاعة الأمويين ، وانضم الى الأتراك واستعان بهم ، وكان أسد يستشير نصرا ويستنصحه ويعمل برأيه ويقبل نصيحته ، وفى سنة ١٢٠ مات أسد حاكم خراسان ، وعزل

أخوه خالد من ولاية العراق ، وأسندها هشام الى يوسف بن عمر الثقفى ، وكان هذا الرجل غريب الشأن عجيب الأطوار ، ومزيجا من القسوة والتعصب والخبث والأثرة ، وأراد الخليفة هشام أن يختار حاكما لخراسان ، فكتب الى يوسف يأمره : أن يوجه اليه رجلا له علم بخراسان وأحوالها ، فأرسل يوسف اليه عبد الكريم ابن سليط ، ولما دخل عبد الكريم على هشام وسلم عليه بالخلافة دارت بينهما هذه المحادثة :

هشام : من أنت ؟

عبد الكريم : أنا عبد الكريم بن سليط بن عطية الحنفى .

هشام : كيف علمك بخراسان وآهلها ؟

عبد الكريم : أنا بها جد عالم ، وقد أرسلنى الى يوسف جعفر ابن حنظلة البهرانى لأخبره بما حدث فى خراسان .

هشام : انى أريد أن أولى أمرها رجلا من القواد الذين هم مرتبون بها ، فمن ترى أن أولى أمرها منهم ؟ وأيهم أقوم بها ؟

عبد الكريم : يا أمير المؤمنين ! أين أنت عن رجل من قوادها ذى حزم وبأس ومكيدة وقوة ومكاتفة من قومه ؟

هشام : ومن هو ؟

عبد الكريم : جديع بن على الأزدى ، المعروف بالكرمانى .

هشام : وكيف سمى بالكرمانى ؟

عبد الكريم : سمى بذلك لأنه ولد بكرمان ، فقد كان أبوه مع المهلب عند محاربة الأزارقة ، فولد هذا هناك .

هشام : لا حاجة لى فى اليمانية (وكان هشام قد بدأ ببغض اليمانية ويتحول عنهم الى المضرية) .

عبد الكريم : يا أمير المؤمنين ! فأين أنت من المجرب البطل النافذ اللسن ؟

هشام : ومن هو ؟

عبد الكريم : يحى بن نعيم .

هشام : لا حاجة لى فيه ، ان ربيعة لا تسد بها الثغور .

عبد الكريم : يا أمير المؤمنين ! عليك بالماجد اللبيب الكامل الحسيب ، عقيل بن معقل الليثى ، ولمح عبد الكريم أن هشاما قد لاحت على وجهه علامات القبول ، فاسترسل يقول : هو يصلح ان اغتفرت فيه هنة .

هشام : ما هى هذه الهنة ؟

عبد الكريم : ليس بعفيف .

هشام : لا حاجة لى فيه .

عبد الكريم : المجشر بن مزاحم السلمى ، عاقل شجاع له رأى مع كذب فيه .

هشام : لا خير فى الكذب .

عبد الكريم : هناك ذو الطاعة لكم المستمسك بعهدكم المقتدى بقدوتكم يحى بن الحضين .

هشام : ألم أخبرك أن ربيعة لا تسد بها الثغور .

عبد الكريم : الكامل النافذ البطل الشجاع فطن بن قتيبة ابن مسلم ، ان اغتفرت منه هنة .

هشام : وما هى ؟

عبد الكريم : لا آمنه ان أفضى اليه السلطان أن يطلب جنود خراسان بدم أبيه قتيبة ، فانهم جميعا تضافروا عليه .

هشام : لا حاجة لى فيه .

عبد الكريم : فأين أنت يا أمير المؤمنين من العفيف المجرب الباسل المحنك نصر بن سيار ان اغتفرت منه خصلة ؟

هشام : وما هى ؟

عبد الكريم : ليست له بخراسان عشيرة من جنودها ، وانما يقوى على ولاية خراسان من كانت له بها عشيرة من جنودها

هشام : وأى عشيرة أكثر منى لا أبالك ! (والتفت الى غلام له وقال) :

« يا غلام ! انطلق الى الكتاب فمرهم بانشاء عهده وأتونى به » .

ولما تمت كتابة العهد دفعه الى عبد الكريم ، وأمره أن يحمله الى خراسان .

وأحسن نصر الولاية والجباية فى خراسان ، وعمرت خراسان عمارة لم تعمر قبلها بمثلها ، حتى قال بعض الشعراء .

أضحت خراسان بعـد الخوف آمنة
من ظلم كل غشـوم الحكم جبـار

لما أتى يوسف أخبار ما لقيت
اختار نصرا لها نصر بن سيار

وغزا نصر ما وراء النهر ، ورأى أن يحسن السياسة ليثبت أقدام المسلمين فى هذه الأنحاء ، فوعدهم بكشف المظالم ، ورفع الجزية عمن أسلم منهم ، وأعاد الكرة فى غزو الترك ، وارتفع الى فرغانة وأمعن فيها ، وتقدم منها الى بلاد الشاش ، فتلقاه ملكها بالصلح ، واشترط عليه نصر اخراج الثائر الشهير الحارث بن سريج من بلاده ، فأخرجه الى فاراب .

وكان نصر لا يرجع الى رأى يوسف حاكم العراق فى شىء فساءه ذلك ، وحاول أن يفسد ما بينه وبين هشام ، واغتنم قدوم معن بن أحمر من قبل نصر ، وكان معن يريد زيارة هشام بعد زيارته العراق ، فقال له يوسف : « أيغلبكم الأقطع على سلطانكم » ، وأخذ يحرضه على نصر ، وأوصاه أن يقع فيه عند هشام ، والظاهر : أنه مناه الأمانى ووعده الوعود ، فلما دخل على هشام قال له فى عرض الحديث عن خراسان : « جند خراسان لهم طاعة ونجدة ، ولكن ليس لهم قائد » فعجب هشام وأجابه : « ويحك وماذا فعل نصر ؟ » فأجابه معن : « ان نصرا له بأس ورأى ، ولكنه لا يعرف الرجل ولا يسمع صوته حتى يدنو منه ، وما يكاد يفهم منه من الضعف لأجل كبره » .

وكان أحد رجال الوفد القادم من خراسان حاضرا ، ولم يعجبه كلام معن ، فقال لهشام : « لقد كذب والله معن ، ان نصرا ليس

بالشيخ الذى يخشى خرفه ، ولا الشاب يخشى سفهه ، بل هو المجرب ، وقد ولى عامة ثغور خراسان وحروبها قبل ولايته » .

فأدرك هشام أن قول معن من وضع يوسف بن عمر ، ولم يلتفت الى قوله ، وهكذا أخفقت دسيسة يوسف ، ولم يستطع زحزحة نصر عن مكانته التى نالها بجهوده الجبارة ودأبه المتواصل .

ولما مات هشام وخلفه الوليد بن يزيد ، استأنف يوسف جهوده لعزل نصر عن خراسان ، واشترى من الوليد نصرا وعماله ، فرد الوليد الى يوسف ولاية خراسان ، وكتب يوسف الى نصر يأمره بالقدوم عليه مع أفراد أسرته ، وكتب الوليد الى نصر يأمره بأن يستحضر له معه من خراسان برابط وطنابير وأباريق ذهب وفضة ، وأن يجمع له كل صناجة بخراسان ، وكل باز وبردون فاره ، ثم يسير بكل ذلك بنفسه فى وجوه أهل خراسان ، وألح يوسف على نصر بالقدوم واستحثه ، فسار نصر الى العراق ، فبينما هو يسير الى العراق وافته أنباء مصرع الوليد ، فعاد أدراجه الى خراسان ، وساءت الأحوال بعد قتل الوليد واشتدت الخصومة بين اليمنية والمضرية ، واضطربت أحوال الدولة الأموية اضطرابا شديدا ، مكن دعاة العباسيين من استغلال الموقف ، واغتنام الفرصة ، وابتلى نصر بثورة الكرمانى ، وخروجه عليه ووثوبه به ، وآزر الكرمانى الثائر الخطير الحارث بن سريج ، ولم يغب عن عين نصر المبصرة ملابسات الموقف . ولما أفضت الخلافة الى مروان

ابن محمد أبقى نصرا حاكما على خراسان ، وشغل مروان بمحاربة الخوارج والخارجين عليه فى بلاد الشام ، وقوى أمر أبى مسلم ، واشتد ساعده ، وتكاثرت جموعه ، ولاح لنصر شبح الخطر الرهيب ، فأرسل الى مروان أبياته المشهورة محذرا ومنذرا ، وهى أبيات قوية التصوير ، بعيدة التأثير ، يقول فيها :

أرى خلل الرماد وميض جمر
ويوشك أن يكون له ضرام
فان النار بالعودين تذكى
وان الحرب أولها كلام
فان لم يطفها عقلاء قوم
يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعرى
أأيقاظ أمية أم نيام

ولما تلقى مروان هذا الانذار الصريح ، والاستغاثة الصارخة كتب الى نصر يقول : « ان الشاهد يرى ما لا يراه الغائب ، فاحسم الثؤلول قبلك » فقال نصر لرجاله : « أما صاحبكم فقد أعلمكم ألا نصر عنده » ، وأراد نصر أن يستعين بيزيد بن هبيرة والى العراق ، فكتب اليه بهذه الأبيات البليغة :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه
وقد تيقنت ألا خير فى الكذب

أن خراســـان أرض قد رأيت بهـــا
بيضـــا لو افرخ قد حدثت بالعجب
فراخ عامين الا أنهـــــــا كبرت
لما يطرن وقد سربـــلن بالزغب
الا تدارك بخيـــــــل الله معلمة
ألهبن نيران حـــــرب أيما لهب

فاكتفى يزيد بأن يكتب اليه قائلا : « لا تكثر فليس لك عندى رجل ».

وهكذا تخلى عنه الخليفة وأكبر ولاته ، وتركاه ومصيره ، وقد اضطر نصر الى الفرار من خراسان ، وكانت جيوش أبى مسلم تطارد هذا الشيخ الطاعن فى السن من مدينة الى مدينة من مدن خراسان ، وهو مع ذلك يقاوم فى تقهقره ويعمل على ايقاف تقدم رجال أبى مسلم حتى قدم مدينة الرى ، وأقام بها يومين ، ثم اعتراه المرض فكان يحمل حملا ، فلما بلغ ساوة أدركته الوفاة وأراحته من هذه المطاردة القاسية المرة ، والملاحقة التى لا تنى ولا ترحم ، وكان قد شارف الخامسة بعد الثمانين .

وقد هز مصرع نصر الشاعر المطبوع ، أبا العطاء السندى ، فرثاه بهذه الأبيات المؤثرة التى يقول فيها :

فاضت دموعى على نصر وما ظلمت
عين تفيض عـــلى نصر بن ســيار

يا نصر ! من للقاء الخيـــل ان لقحت
يا نصر بعـــــدك من للضيف والجار

الخندفى الذى يحمى حقيقتـــــه
فى كل يوم مخوف الشر والعـــار

والقـــائد الخيـــل قبا فى أعنتهـــا
بالقـــوم حتى تلف الغار بالغـــار

من كل أبيض كالمصـــباح من مضر
يجلو بسنته الظلمـــــاء للسارى

ماض على الهول مقدام اذا اعترضت
ســـمر الرماح وولىّ كل فـــرار

ان قال قولا وفى بالقـــول موعده
ان الكنانىّ واف غـــير غدار

وكأنما كانت حياة نصر موصولة بحياة الدولة الأموية ، التى وفى لها ، وأبلى فى الدفاع عنها ، فقد ولد بعد ميلادها بأعوام قلائل ، ومات قبل أن يتقلص ظلها بأشهر معدودات ، وقد كان هذا الرجل — الذى أفنى زهرة عمره فى الجهاد — جديرا بميتة أكرم من هذه الميتة ، ومصيرا أكثر اسماحا من هذا المصير ، ولكنها مشيئة الأقدار ، ولا مرد لمشيئتها ولا دافع لقضائها .

يوم الهاشمية

فى العصور التى يشتد فيها الجور ، ويتفشى الفساد ، وتضطرب الأوضاع ، تفزع النفوس الى الأمل ، وتصبو الى الكمال ، والمثالية المحلقة فى أغلب الأوقات من ثمرات الصبر على الألم المبرح ، ومعاناة الشدائد الحازبة ، وقد كان عهد بنى أمية عصر اضطهاد من جانب الحكام العرب الخلص ، لرعاياهم من غير العرب ، وكان بنو أمية لا يعاملون الشعوب المختلفة — التى لاذت بظل الاسلام — بالمساواة المنظورة والعدالة المرتقبة ، ولم يكن سبب ذلك التعصب الدينى أو الكراهة الجنسية ، وانما هو شعور العرب باحتقار الشعوب التى فتحوا بلادها ، وبسطوا عليها حمايتهم ، ودانت لهم بعد أن هزموا جيوشها واقتحموا حصونها ، وكثير على الأمم الغالبة أن تزهد فى لذة احتقار الأمم المغلوبة ، والاشراف عليها من حالق كبريائها وشامخ أنفتها ، واننا نطلب الكثير من الطبيعة الانسانية اذا أردنا العرب على أن يتواضعوا ويخفضوا الجناح ، بعد أن اتسعت رقعة فتوحاتهم السريعة ، وتجاوبت الأقطار بأخبار انتصاراتهم الباهرة ، وكانت الشعوب المغلوبة تعرف كيف تتقى هذا الاحتقار ، فتستعيد ذكرى مجدها السالف ، وأيامها الذاهبة ، وتأخذ على العرب عدم درايتهم بأصول

الحضارة ، وجهلهم بقواعد الحكم وفنون السياسة ، وكانت هناك أسباب مجتمعة تزيد الكراهة اشتعالا فى نفوس الفرس ، فقد كان من عادة الفرس أن يخلعوا صفة القداسة على ملوكهم ، وكان للملوك فى عرفهم حق مقدس لا يشاركون فيه ، لأنهم يمثلون الآلهة ، وعند ابتداء حكم الاسلام كان ملوك ساسان قد انقرضوا وذهبت سلالتهم ، ولكن الكثيرين من الفرس ظلوا يستمسكون بأفكارهم القديمة تحت ثوب الاسلام ، لأن تلك الأفكار — لطول ما دارت فى أخلادهم وجالت فى خواطرهم — تسربت الى عقلهم الباطن ، ولونت تفكيرهم الواعى ، وأصبحت سمة من سماتهم الشعبية ، وكان هذا من أقوى الأسباب التى حملت الفرس على مناصرة الشيعة ، وفضلا عن ذلك فقد كانت المناصب الكبيرة والوظائف الحربية والمراكز السامية وقفا على العرب ، وكان أعيان الفرس وذوو الشرف والمكانة فيهم يعكفون على أنفسهم فى ألم وحسرة ونقمة ، وقد قوّى ذلك فى نفوسهم الشعور بالظلم والغبن ، وزادهم تعلقا بالعدالة وطلب الانصاف .

ولما انتقلت الخلافة الى العباسيين لم يستطيعوا بطبيعة الحال تحقيق كل الآمال المترامية التى كانت معقودة على مجيئهم ، ولم يجاروا النزوع القوى الى العدالة المطلقة والاصلاح الشامل الذى كان يطلبه الحالمون بالاصلاح ودعاة العدالة ، فخابت آمال كثيرة ، وانعكست ظنون أقوام ، واستعرت ثورات فى مختلف أقطار العالم الاسلامى ، تعبر عن هذا الشعور ، وتصف تلك

الحالة ، واستلزم الموقف قسوة أبى العباس السفاح ، وبراعة أبى مسلم الحربية ، لاخماد الثورات ، وتثبيت مكانة الأسرة الجديدة .

ولكن اعتلاء العباسيين عرش الخلافة وان لم يحقق ذلك المثل الأعلى للعدالة والمساواة الذى كان ينشده الناس ، فليس معنى هذا أن الحالة لم تتبدل ، وأنها ظلت كما كانت عليه أيام بنى أمية ، ولا نزاع فى أنه كان لا يزال هناك الكثير من ضروب الظلم والجور ، ولكن لم يكن قوام ذلك التنافر الشديد بين مختلف الطبقات ومتباين الشعوب ، واستئثار فريق بالنفوذ والقوة دون الفريق الآخر ، وبمجىء العباسيين ارتفع صوت الشعوب المختلفة ، وجهروا بالدفاع عن أنفسهم ، والاعتزاز بماضيهم تحت اسم الشعوبية ، وبدأوا بفكرة أن كل المسلمين متساوون ، وأنه لا فضل لعربى على أعجمى ، ولكنهم سرعان ما انتهوا الى فكرة أن العرب أقل مستوى من سائر الشعوب ، وأن كثيرا من الأمم يفضلونهم فى الذكاء والمواهب ، ويرجحون عليهم بقديم أمجادهم وسالف حضارتهم .

والواقع أن انتصار العباسيين على الأمويين لم يكن محض انتصار أسرة عربية على أسرة أخرى عربية ، وانما كان انتصارا لقوة الاسلام ، الآخذة فى الاتجاه العالمى على قوة العرب ، الآخذة فى التقهقر والانحلال ، أو انتصار فكرة الحكومة العالمية التى تنظر الى مصالح الفرس والكرد والديلم والأراميين والبربر

وغيرهم من مختلف الشعوب التى ضمتها شملة الاسلام ، على فكرة الحكومة القومية التى تتعصب للعرب ، وتضع مصلحة القبائل فوق كل اعتبار .

وفى نفوس كثير من الأمم التى دخلت فى الاسلام كانت ترقد بذور فلسفات قديمة ، وأديان عفّى عليها الزمن ، ومعتقدات مهجورة وبقايا خرافات منسية ، وأساطير عن الخليقة وأصل الانسان ، فلما شعرت هذه الأمم بشخصيتها وأخذت تسترد مكانتها ، بدأت تزدهر هذه المعتقدات ، ويبدو أثر تلك النحل الكامنة فى سلالة المانويين وأبناء المجوس ، وذرية المعطلين والوثنيين ، والقائلين بالحلول وتناسخ الأرواح ، وفى غبار الفتوح الاسلامية ووهج الحماسة ، وفى ابّان جدة الاسلام لم يبد أثر قوى لتلك المعتقدات ، ولكن بعد أن استقرت الأحوال أخذت العناصر المتعادية والاختلافات الخافية فى كيان الأمم الروحى تبدو شيئا فشيئا ، وزاد فى ظهورها ما اكتسبوه من النفوذ السياسى وانتشار حرية الفكر ، وابتداء عهد التفكير الفلسفى والبحث العلمى .

وعودة الحياة والانتعاش الى هذه العقائد البالية بعد الجمود والفتور من أسباب كثرة الفتن والثورات التى لقى العباسيون منها الأمرّين ، لأن كل قائد طموح ، أو سياسى بعيد المطامع ، أو داعية متهوس كان يستطيع أن يجمع حوله طائفة تصدق بدعوته ، وتؤيد كلمته وتسير تحت لوائه .

ومن تلك الثورات : ثورة الراوندية الذين ثاروا بالمنصور ، وكادوا يفتكون به فى مدينة الهاشمية ، التى بناها المنصور حين أفضى اليه الأمر ، قبالة مدينة ابن هبيرة على مقربة من الكوفة .

ففى سنة ١٤٠ هجرية خرج أبو جعفر المنصور من الهاشمية حاجّا ، فأحرم من الحيرة ، ثم رجع بعد ما قضى حجه الى المدينة ، فتوجه منها الى بيت المقدس ، ولما قدم بيت المقدس صلى فى مسجدها ، ثم سلك الشأم منصرفا حتى انتهى الى مدينة الرقة فنزلها ، ثم شخص منها فسلك الفرات حتى أتى الهاشمية ، وبعد عودته من هذه الرحلة بزمن يسير ظهر أمر الراوندية ، وهم قوم من أهل خراسان — كما يقول الطبرى وابن الأثير — وكانوا يجمعون بين الاعتقاد بتناسخ الأرواح والايمان بمذهب الحلول ، فهم يزعمون : أن روح آدم فى عثمان بن نهيك ، كبير حرس المنصور ، وأن المنصور هو ربهم الذى يطعمهم ويسقيهم ، وأن الهيثم بن معاوية هو جبرائيل ، وجمعوا جموعهم وأتوا قصر المنصور فجعلوا يطوفون به ويقولون — وقد أخذتهم الحماسة — : « هذا قصر ربنا ، هذا قصر رب العزة الذى يطعمنا ويسقينا » وظلوا على ذلك بضعة أيام .

وكان المنصور رجلا سياسيا مطبوعا ، فهو ينظر الى الأمور أول ما ينظر من الناحية السياسية ، فلم ير فى بادىء الأمر كبير بأس ولا عظيم خطر فيما تقول به الراوندية ، وكان يؤثر الاغضاء عنهم والصبر عليهم حتى تفتر دعوتهم ، فلما دخل عليه أحد أعوانه

وحدثه فى أمرهم ، قال له المنصور : « يدخلهم الله النار فى طاعتنا ويعتلهم أحب الىّ من أن يدخلهم الجنة بمعصيتنا » ، ولكن أمرهم استفحل ودعوتهم اشتدت ، وأخذ رجال الدين وعامة الشعب يتذمرون من مسلكهم ، ويتحدثون عن سكوت الخليفة عنهم وتهاونه فى أمرهم ، فخشى المنصور اتساع الخرق وتزايد الفتنة ، فاستدعى رؤساءهم وحبس منهم مائتين ، وأمر ألا يجتمعوا ، وكان لهذا العمل نتيجة غريبة ، فانهم بدلا من أن يعتدلوا فى دعوتهم ويكفوا عن المغالاة فى تمجيد المنصور ، اعتقدوا أن المنصور غير أهل لتلك المنزلة الشماء التى رفعوه اليها ، وعقدوا العزم على مجاهدته وقتله ؛ ليتجسم الله فى أقصر وقت ممكن فى شخصية أكمل وأتم من شخصية المنصور ، وهو منطق غريب ! ، ولكنه يتفق مع الطبيعة الانسانية ، وكأن الانسان يأنف من الطاعة والخضوع لانسان آخر مثله ، يعادله فى الانسانية ويشاركه فى فنائها وضعفها ، فيأبى الا أن يسمو بذلك الانسان الى مرتبة الأرباب ، لتطيب نفسه بأن يقدم له الطاعة والخضوع ، ولم يجد هؤلاء المتعصبون بدًّا من محاربة المنصور ، لأن الحرب أحب الأشياء الى المتعصبين ، لاعتقادهم أنها خير سبيل الدفاع عن معتقداتهم ، وتمكينهم من اظهار اخلاصهم لها ، وتفانيهم فى العمل على نصرتها .

وعمدوا الى الحيلة ، فأعدوا نعشا ، وحملوا السرير — وليس فى النعش أحد — ثم مروا فى المدينة حتى صاروا على باب السجن

فرموا بالنمش ، وشدوا على الناس ، ودخلوا السجن فأخرجوا أصحابهم ، وقصدوا نحو المنصور وهم يومئذ ستمائة رجل ، فاشتد الهرج ، وتعالت الأصوات ، وساد الاضطراب ، وتنادى الناس ، وأغلقت أبواب المدينة ، وأسرع اليهم عثمان بن نهيك كبير حرس المنصور لينهاهم ويكبح من جماحهم ، فلم يُجْد معهم كلامه ، فلما انصرف عنهم رموه بنشابة وقعت بين كتفيه ، فمرض أياما ومات منها ، واستدعى المنصور بعض بطانته ومن يثق بهم من رجاله واستشارهم فى الموقف ، كدأبه فى معضلات الأمور وطوارىء الأحداث ، وكان المنصور اذا عرضت له خطة قلّبها على جميع وجوهها ، ونظر اليها من زوايا مختلفة ، وتحت أضـــواء متباينة ، وكان يزن كل الممكنات والمحتملات ، وينظر فى التفاصيل والدقائق ، ويحسن الانتقال من منطقة التفكير الى منطقة العمل ، وقليل من يجيد التفكير ويجيد العمل ، وهو من هؤلاء الأشخاص القلائل الذين تعادلت فيهم القوتان ، والزعامة فى حاجة الى الشجاعة وقوة الارادة ، ثم العقل الراجح والبداهة الغامرة ، وكان المنصور يعهد فى نفسه هذه الصفات ؛ ويثبت للحوادث ، فيوحى ذلك الثقة به الى نفوس رجاله ، وأدرك المنصور أن الموقف يحتاج الى سرعة البت ، والى خطوة جريئة ، فلما قال له أحد أعوانه : ان خير علاج للموقف هو أن تنادى فى الناس وتأمر لهم بالأموال — خالفه فى ذلك وقال له : « وأين الناس والأموال ؟ ومن يقدم على أن يعرض نفسه لهؤلاء العلوج ؟ » وأجمع على الخروج

بنفسه ، والاستهداف للخطر ؛ لاعتقاده أن الناس اذا رأوه قاتلوا وأبلوا ، وأنه اذا ظل مختبئا فى قصره تخاذلوا وتهاونوا ، وأقبل أبو الخصيب — أحد حجابه — وحاول منعه من الخروج ابقاء على حياته ، فاجتذب ثوبه منه ، ثم دعا بدابته ووثب عليها من غير ركاب ، ثم سوى ثيابه وخرج ، وكان لخروجه التأثير المطلوب ، فان الناس لما رأوا المنصور — بقامته الفارعة وطلعته المهيبة ، وما يبدو عليه من أمارات العزم والثبات — ثاب اليهم رشدهم ، وأخذوا فى مقاومة الراوندية ، وتكاثرت الراوندية على المنصور حتى كادوا يقتلونه ، واذا برجل ملثم يشق اليهم الجموع ويثخن فيهم اثخانا ، حتى رد عاديتهم عن المنصور ، وأخذ بعد ذلك بلجام دابة المنصور ، وكان يشد على كل من حدثته نفسه بالاقدام على المنصور ويقتله ، ثم فتحت أبواب المدينة ودخل الناس ، وكانت أنباء الثورة والاضطراب قد ترامت الى أسماع القائد القدير خازم بن خزيمة ، فأقبل فى جنده على فرس محذوف [1] ، واستأذن المنصور فى قتالهم واستئصال شأفتهم ، فأذن له فحمل عليهم حتى هزمهم ، وقتلوا جميعا بعد أن أبلوا بلاء حسنا فى الدفاع عن أنفسهم ، ولما هدأت الحالة اختفى الرجل الملثم فى غمار الجموع ، فسأل عنه المنصور ، وعلم أنه معن بن زائدة ، وكان مختفيا من أبى جعفر ؛ لما كان منه من قتاله المسودة مع ابن هبيرة مرة بعد مرة ، فلما تغيب أعلن المنصور : أنه قد غفر له

(١) اى قصير الذنب

قديم ذنبه ، وأمر باستدعائه ، ولما قتل الراوندية جميعهم ، وصلى المنصور الظهر ، دعا بالعشاء وقال : « أطلعوا معن بن زائدة » وأمسك عن الطعام حتى جاء معن ، فقال المنصور لقثم بن العباس : « تحول الى هذا الموضع » وأجلس معناً مكان قثم ، ولما فرغوا من العشاء التفت المنصور الى عيسى بن علي وقال له : « يا أبا العباس ! أسمعت بأسد الرجال ؟ » قال : « نعم » فقال له المنصور : « لو رأيت اليوم معناً علمت أنه من تلك الآساد » فأجابه معن : « والله يا أمير المؤمنين ! لقد أتيتك وانى لوجل القلب ، فلما رأيت ما عندك من الاستهانة بهم ، وشدة الاقدام عليهم رأيت أمرا لم أره من خلق فى حرب ، فشد ذلك من قلبى ، وحملنى على ما رأيت منى » وأمر المنصور له بعد ذلك بعشرة آلاف درهم ، وقربه وولاه اليمن .

وثورة الراوندية أظهرت للمنصور أن نظام الجيش والحرس فى حاجة ماسة الى الاصلاح السريع ، وكشفت له عن رغبة أهل العراق الدائمة فى ذلك الحين فى الثورة ، وجنوحهم الى الشغب ، واستهدافهم للانفعالات الدينية والتأثرات المذهبية ، وأقنعته بضرورة ايجاد عاصمة جديدة ، لحفظ كيان الأسرة ، والمحافظة على حياة الخلفاء ، وكانت العراق هى قاعدة الحكم ومركز التدبير السياسى ، ولذا رأى المنصور : أنه يحسن أن يكون موقع العاصمة الجديدة على حدود العراق ، ووقع اختياره بعد ذلك على الموقع الذى بنيت فيه مدينة بغداد ، وتركت هذه الحادثة فى نفس المنصور

أثرا قويا وصورة باقية ، فقد تشعب به الحديث مرة مع أحد أعوانه فقال له المنصور : « انى أخطأت ثلاث خطيات وقانى الله شرها ، قتلت أبا مسلم وأنا فى خرق ومن حولى يقدم طاعته ويؤثرها ، ولو هتكت الخرق لذهبت ضياعا ، وخرجت يوم الراوندية ولو أصابنى سهم غرب لذهبت ضياعا ، وخرجت الى الشأم ولو اختلف سيفان بالعراق ذهبت الخلافة ضياعا » .

وكان معن بن زائدة معروفا بالكرم ، فلما ولى اليمن قصده الشاعر « مروان بن أبى حفصة » ومدحه بالقصيدة النونية المشهورة فأعطاه ألف دينار ، وقدم معن عقب ذلك فدخل على المنصور ، فتجهم له المنصور ولم يرحب بمقدمه ، ودارت بينهما هذه المحاورة :

المنصور : لقد بلغ أمير المؤمنين عنك شىء لولا مكانك عنده ورأيه فيك لغضب عليك !

معن : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟

المنصور : اعطاؤك مروان بن أبى حفصة ألف دينار نقوله فيك : —

معن بن زائدة الذى زيدت به
شرفا الى شرف بنو شيبان
ان عد أيام الفعال فانما
يوماه يوم ندى ويوم طعان

معن : والله يا أمير المؤمنين ما أعطيته ما بلغك لهذا الشعر ، وانما أعطيته لقوله : —

ما زلت « يوم الهاشـــمية » معلنا

بالسيف دون خليفة الرحمـــن،

فمنعت حـــوزته وكنت وقـــاءه

من وقع كل مهنـــد وســـنان.

المنصور (وقد غلبه الحياء) اذن انما أعطيته ما أعطيته لهذا القول !

معن : نعم يا أمير المؤمنين ، والله لولا مخافة الشنعة عندك لأمكنته من مفاتيح بيوت الأموال وأبحته اياها .

المنصور : لله درك من أعرابى ، ما أهون عليك ما يعز على الرجال وأهل الحرم !

زرياب

ولد بالعراق عام ١٧٣ للهجرة (٧٨٩ للميلاد) ، وتوفى عام ٢٤٣ للهجرة (٨٥٧ للميلاد) . وهو من موالى الخليفة العباسى المهدى ، وأصله فارسى على الأرجح ، واسمه « على ابن نافع » وكنيته أبو الحسن . وزرياب لقب غلب عليه من أجل سواد لونه ، مع فصاحة لسانه وحلاوة شمائله . وقد شبه بطائر أسود غرد ، وكان رئيس المغنين بالأندلس ، وقد وفد عليها من المشرق .

وكان من خبره فى الوصول الى الأندلس : أنه كان تلميذا لاسحاق الموصلى المغنى الشهير ببغداد . وقد أجاد الأخذ عن أستاذه ، وآتقن صناعة الغناء مع حسن الصوت ، والقدرة على التجديد والابتكار . وكان اسحاق راضيا عنه ومعجبا به ، ولكنه لم يدرك نبوغه ، ولم يشعر بما فتح عليه .

واقترح الرشيد على اسحق فى ذات يوم احضار مغن غريب مجيد للصنعة ، لم يشتهر مكانه ، ولم يعل صيته .. فاغتنم اسحاق الفرصة ، ليذكر تلميذه ويقدمه ، وقال للرشيد : « انه مولى لكم ، وسمعت له نزعات حسنة ، ونغمات رائقة ملتاطة بالنفس ، اذ أنا

وقفته على ما استغرب منها ، وهو من اختراعى واستنباط فكرى ، وأحدس أن سيكون له شأن » .

فقال الرشيد : « هذا طلبتى ، فأحضرنيه لعل حاجتى عنده » فأحضره اسحق ، فلما مثل زرياب بين يدى الرشيد وكلمه الخليفة ، أعرب عن نفسه بأحسن منطق ، وأوجز خطاب . وسأله الرشيد عن معرفته بالغناء فقال :

« أحسن منه ما يحسنه الناس ، وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه ، مما لا يحسن الا عندك ، ولا يدخر الا لك .. فان أذنت غنيتك مالم تسمعه أذن قبلك » .

وأثار هذا الحديث عجب الرشيد وطلعته ، فأمر باحضار عود أستاذه اسحاق ، ولكن حينما أدنى العود الى زرياب وقف عن تناوله ، وقال : « لى عود نحته بيدى ، وأرهفته باحكامى ، ولا ارتضى غيره ، وهو بالباب ، فليأذن لى أمير المؤمنين فى استدعائه » . فأمر الرشيد بادخاله اليه ، وتأمل الرشيد العود فوجده شبيها بالعود الذى دفعه اليه ، فقال له « ما منعك أن تستعمل عود أستاذك ؟ » فقال زرياب : « ان كان مولاى يرغب فى غناء أستاذى غنيته بعوده ، وان كان يرغب فى غنائى فلابد لى من عودى » فقال الرشيد : « ما أراهما الا واحدا » . فقال زرياب « صدقت يا مولاى ، ولا يؤدى النظر غير ذلك . ولكن عودى وان كان فى قدر جسم عوده ، ومن جنس خشبه ، فهو يقع من وزنه فى الثلث أو نحوه ، وأوتارى من حرير لم يغزل

بماء سخن يكسبها اناثة ورخاوة ، [1] « وبمّها ومثلثها اتخذتهما من مصران شبل أسد ، فلها فى الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها » . فاستبرع الرشيد وصفه ، واشتاق الى معرفة ما عنده ، وأمره بالغناء

جس زرياب أوتار عوده واندفع فغناه :

يا أيهـــا الملك الميمـــون طائره

هارون راخ اليك الناس وابتكروا

فأتم النوبة ؛ وطار الرشيد طربا ؛ وقال لاسحاق : « والله لولا أنى أعلم من صدقك لى على كتمانه اياك لما عنده ، وتصديقه لك من انك لم تسمعه قبل ، لأنزلت بك العقوبة ، لتركك اعلامى بشأنه ، فخذه اليك ، واعتن بشأنه حتى أفرغ له ، فان لى فيه نظرا » .

لم يكن اسحاق يعرف أن تلميذه قد بلغ هذه الدرجة من الاتقان . والظاهر أن زريابا كان يعد نفسه — من قبل سرا — لمثل هذا الموقف .. فقد كان رجلا طموحا ، واثقا من نفسه ، مقدرا لمواهبه ، عارفا بقيمتها . وساء ذلك اسحاق ، ووجد فى سلوك زرياب شيئا من التطاول على مكانته ، ومحاولته الاستعلاء عليه . وحركت كلمات الخليفة فى نفسه عوامل الحسد ، ودوافع الغيرة

---

(1) الزير والبم والمثلث أسماء لاوتار العود .

على مكانته ، والخوف من منافسة زرياب له ، فلم يستطع صبرا ، ولم يقو على كتمان ما خالج نفسه .

فلما خلا بزرياب صارحه قائلا : « يا على ! ان الحسد داء أقدم الأدواء وأدوؤها ، والدنيا فتانة ، والشركة فى الصناعة عداوة ، ولا حيلة فى حسمها وقد مكرت بى ، فيما انطويت عليه من اجادتك وعلو طبقتك . وقصدت منفعتك ، فاذا أنا قد أتيت نفسى من مأمنها بادنائك ، وعن قليل تسقط منزلتى وترتقى أنت فوقى .. وهذا ما لا أصاحبك عليه ولو أنك ولدى . ولولا رعيى لذمة تربيتك لما قدمت شيئا على أن أذهب نفسك ، يكون فى ذلك ما كان ، فتخير فى ثنتين لابد لك منهما : اما أن تذهب عنى فى الأرض العريضة ، لا أسمع لك خبرا ، بعد أن تعطينى على ذلك الايمان الموثقة ، وأنهضك الى ذلك بما أردت من مال وغيره ، واما أن تقيم على كرهى ورغمى مستهدفا الى .. فخذ الآن حذرك منى ، فلست والله أبقى عليك ، ولا أدع اغتيالك ، باذلا فى ذلك بدنى ومالى ، فاقض قضاءك » .

وكان زرياب يعرف معرفة جيدة مكانة اسحق ، وعلو شهرته ، وقوة نفوذه ، وعظم قدرته ، وكثرة أشياعه وأنصاره ، ومكانته فى نفوس كبار رجال الدولة . ويعلم أنه لا قبل له بمحاربته ، وهو مغن ناشىء ، لم يشتهر له ذكر ، ولم يكسب بعد أنصارا يحمون حوزته ، ويدفعون عنه الأذى ، ويتشيعون لفنه ومذهبه .. فخرج لوقته وقد عقد العزم على الهجرة ، واختار الفرار من

ميدان المنافسة غير المتكافئة ، وأعانه اسحاق على ذلك ، — وراش جناحه ، وأمده بالمال ، ويسر له وسائل الرحيل ، ومضى زرياب يبغى المغرب . واستراح قلب اسحاق وأمن منافسة هذا الشاب الناشىء ، والنجم الصاعد .

وتذكره الرشيد بعد فراغه من شغل كان منغمسا فيه ، وأمر اسحاق باحضاره ، فقال له اسحاق : « ومن لى به يا أمير المؤمنين ؟ ذاك غلام مجنون ، يزعم ان الجن تكلمه وتطارحه ما يزهى به من غنائه ، فما يرى فى الدنيا من يعدله . وما هو الا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين وترك استعادته ، فقدّر التقصير به ، والتهوين بصناعته ، فرحل مغاضبا ذاهبا على وجهه مستخفيا عنى ، وقد صنع الله فى ذلك لأمير المؤمنين ، فانه كان به ألم يغشاه ويفرط خبطه ، فيفزع من رآه » . واطمأن الرشيد الى قول اسحاق ، واكتفى بقوله : « على ما كان به فقد فاتنا منه سرور كثير » .

ومضى زرياب الى المغرب ، فنسى بالمشرق خبره ، اذ لم يكن اسمه قد اشتهر هنالك ، شهرته بالصقع الذى قطنه ، ونزعت اليه نفسه .

وقصد زرياب أمير الأندلس الحكم المباين لمواليه ، وخاطبه وذكر له نزاعه اليه ، واختياره اياه ، وأعلمه بمكانه من الصناعة التى ينتحلها ، ويسأله فى الوصول اليه . فسر الحكم بكتابه ، وأظهر له من الرغبة فيه ، والتطلع اليه ، واجمال الموعد ما تمناه ،

فسار زرياب نحوه بعياله وولده . وكان الحكم يعد من أقوى أمراء بنى أمية فى الأندلس ، وأشدهم اقداما ونجدة ، وكان يحرص على أن يجعل للملك بأرض الأندلس أبهة ، وكان ذلك من بواعث ترحيبه بقدوم زرياب .

ومر زرياب فى أثناء رحلته بالقيروان — وكانت حينذاك تحت سيطرة الأغالبة — وأقام قليلا فى كنف زيادة الله بن ابراهيم ابن الأغلب ، وتابع رحلته ، وركب بحر الزقاق الى الجزيرة الخضراء ، فلم يزل بها حتى توالت عليه الأخبار بوفاة الحكم ، عام ٢٠٦ للهجرة ، فصدمته وأثرت فى نفسه حتى هم بالرجوع الى العدوة . وكان معه اليهودى المغنى — أبو النصر منصور — رسول الحكم اليه ، فثناه عن ذلك ، ورغبه فى قصد القائم مقام الحكم ، وهو عبد الرحمن ولده ، وكتب اليه بخبر زرياب . فجاءه كتاب عبد الرحمن يذكر تطلعه اليه ، والسرور بقدومه عليه ، وكتب الى عمال البلاد أن يحسنوا اليه ، ويوصلوه الى قرطبة ، وأمر خصيا من أكابر خصيانه أن يتلقاه بمطايا جيدة وآلات حسنة .

ودخل زرياب قرطبة هو وأهله ليلا صيانة للحرم ، وأنزله فى دار من أحسن الدور ، وحمل اليها كل ما يحتاج اليه ، وخلع عليه .. وبعد ثلاثة أيام استدعاه ، وكتب له فى كل شهر بمائتى دينار راتبا ، وأن يجرى على بنيه الذين قدموا معه — وكانوا أربعة — عشرون دينارا لكل واحد منهم كل شهر ، وأن يجرى على زرياب من المصروف العام ثلاثة آلاف دينار ، ولكل

مهرجان ونوروز خمسمائة دينار ، وان يقطع له من الطعام العام ثلاثمائة مدى ثلثها شعير ، وثلثاها قمح . وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوم بأربعين ألف دينـــار .

ولما قضى له سؤله ، وأنجزه موعوده ، وعلم أن قد أرضاه ، وملك نفسه ، استدعاه فبدأ بمجالسته على النبيذ ، وســماع غنائه .. فما هو الا أن سمعه فاستهوله ، واطرح على كل غنـاء سواه ، وأحبه حبا شديدا ، وقدمه على جميع المغنين ، وأكرمه غاية الاكرام ، وأدنى منزلته ، وبسط أمله . وذاكره فى أحـوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء ، فحرك منه بحرا زاخرا .. لأن زريابا كان واسع الثقافة ، غزير المعرفة ، مستفيض الخبرة ، فأعجب الأمير به ، وراقه ما أورده . وحضر وقت الطعام فشرفه بالأكل معه ، هو وأكابر ولده . ثم أمر كاتبة بأن يعقد له صكا بما سبق ذكره . ولما ملك قلب عبد الرحمن ، واستولى عليه حبه فتح له بابا خاصا فى قصره يستدعيه منه متى أراده .

وذكر أن زريابا ادعى أن الجن كانت تعلمه كل ليلة ما بين نوبة الى صوت واحد ، وكان يهب من نومه سريعا فيدعو بجاريتيه — غزلان وهنيدة — فيأخذان عودهما ، فيطارحهما ليلته ، ثم يكتب الشعر ، ثم يعود عجلا الى مضجعه — .. والكثيرون من أصحاب المواهب الفنية عرضت لهم مثل هذه التجربة ، وايحاءات العقل الباطن من المسائل التى كشف أسرارها التحليل النفسى

الحديث . وقد روى عن ابراهيم الموصلى — فى لحنه البديع المعروف بالماخورى — : أن الجن طارحته اياه .

وقد زاد زرياب بالأندلس فى أوتار عوده وترا خامسا اختراعا منه ، اذ كان العود أربعة أوتار على الصنعة القديمة التى قوبلت بها الطبائع الأربع ، فزاد عليها وترا خامسا أحمر متوسطا ، فاكتسب به عوده فى رأى معاصريه ألطف معنى وأكمل فائدة .. وذلك : أن الزير صبغ أصفر اللون ، وجعل فى العود بمنزلة الصفراء من الجسد . وصبغ الوتر الثانى بعده أحمر ، وهو من العود مكان الدم من الجسد وهو فى الغلظ ضعف الزير ، وبذلك سمى مثنى . وصبغ الوتر الرابع أسود ، وجعل من العود مكان السوداء من الجسد ، وسمى البم ، وهو أعلى أوتار العود ، وهو ضعف المثلث ، الذى عطل من الصبغ وترك أبيض الوجه ، وهو من العود بمنزلة البلغم من الجسد ، وجعل ضعف المثنى فى الغلظ ؛ ولذلك سمى المثلث .

وهذه الأربعة من الأوتار مقابلة للطبائع الأربع ، تقضى طبائعها بالاعتدال ، فالبم حار يابس يقابل المثنى ، وهو حار رطب وعليه تسويته . والزير حار يابس يقابل المثلث ، وهو حار رطب . قوبل كل طبع بضده ، حتى اعتدل واستوى استواء الجسم بأخلاطه ، الا أنه عطل من النفس ، والنفس مقرونة بالدم ؛ فأضاف زرياب من أجل ذلك الى الوتر الأوسط الدموى هذا الوتر الخامس الأحمر ، الذى اخترعه بالأندلس ، ووضعه تحت المثلث وفوق

المثنى ؛ فكمل فى عوده قوى الطبائع الأربع ، وقام الخامس المزيد مقام النفس فى الجسد . وزرياب : هو الذى اخترع بالأندلس مضراب العود من قوادم النسر ، معتاضا به عن مرهف الخشب ، وقد أحسن فى ذلك ؛ للطف قشر الريشة ، ونقائه ، وخفته على الأصابع ، وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته اياه .

ويقول مؤرخو الأندلس : ان زريابا كان عالما بالنجـــوم وقسمة الأقاليم السبعة ، واختلاف طبائعها وأهويتها ، وتشعب بحارها ، وتصنيف بلادها ، وسكانها ؛ مع ما سنح له من دراسة كتب الموسيقى والاهتداء الى أسرارها ، وكان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الأغانى بألحانها .

وقد جمع زرياب الى خصاله هـــذه الاشتراك فى كثير من الظرف وفنون الأدب ، ولطف المعاشرة ، وحـــوى من آداب المجالسة وطيب المحادثة ، ومهارة الخدمة الملوكية مالم يجده أحد من أهل صناعته .. حتى اتخذه ملوك الأندلس وخواصهم قدوة فيما ســـنه لهم من آدابه ، واستحسنه من أطعمته ، فصار الى آخر أيام أهل الأندلس منسوبا اليه ، معروفا به .

وكان زرياب مصقول الذوق ، حسن الاختيار ، ميالا الى الأناقة ، يفوق سائر الناس فى القدرة على تنظيم الحفـــلات ، وتنسيق المآدب . ولذلك أصبح الحكم الفيصل ، والقدوة المتبع فى مسائل الذوق والأناقة ، سواء فى الزينة أو الملبس والمأكل . وقد أحدث ثورة فى أساليب الحياة ووسائل العيش .. فمن ذلك :

أنه دخل الأندلس وجميع من فيها من رجل وامرأة يرسل جمته مفروقة وسط الجبين عامة للصدغين والحاجبين . فلما عاين ذوو التحصيل تحذيفه هو ووالده ونساؤه لشعورهم ، وتقصيرها دون جباههم ، وتسويتها مع حواجبهم ، وتدويرها الى آذانهم ، واسدالها الى أصداغهم .. هوت اليه أفئدتهم واستحسنوه .

وكان زرياب يسن القواعد ، ويضع القوانين التى تتبع فى التنسيق والتجميل . وكان مما سنه لأهل الأندلس استعمال المرتك ، المتخذ من المرداسنج ، لطرد الروائح الكريهة ، وكانت ملوك الأندلس قبله تستعمل ذرور الورد ، وزهر الريحان ، وما شاكل ذلك من ذوات القبض والبرد ، فكانوا لا تسلم ثيابهم من وضر ، فدلهم على تصعيدها بالملح ، وتبييض لونها ، فلما جربوه أحمدوه .

ومما أخذه عنه أهل الأندلس : تفضيله آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب والفضة ، وايثاره فرش انطاع الأديم اللينة الناعمة على ملاحف الكتان ، واختياره سفر الاديم لتقديم الطعام فيها على الموائد الخشبية ، اذ الوضر يزول عن الاديم بأقل مسحة ، ولبسه كل صنف من الثياب فى زمانه الذى يليق به .. فانه رأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض فى أشهر الصيف ، من أواخر شهر يونيو الى أول شهر أكتوبر ، وأن يلبسوا بقية السنة الثياب الملونة . ورأى : أن يلبسوا فى الربيع من مصبغهم جباب الخز والملحم والدرايع التى لا بطائن لها ؛ لقربها من لطف ثياب البياض .. وكذا رأى أن يلبسوا فى أواخر الصيف الثياب المصمتة وما شاكلها

من خفائف الثياب الملونة ذوات الحشو والبطائن الكثيفة وذلك عند قرص البرد فى الغدوات ، وعندما يقوى البرد ينتقلون الى أثقل منها من الملونات ويستظهرون من تحتها اذا احتاجوا الى صنوف الفراء .

وكانوا فى الأندلس يفتتحون الغناء بالنشيد أول الشدو بأى نقر كان ، ويأتى المغنى أثره بالبسيط ، ويختم بالحركات والأهزاج تبعا لمراسم زرياب .

وكان لزرياب طريقته الخاصة فى اختيار تلاميذه وتعليمهم ، فاذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع ، أمره أن يصيح بأقوى صوته يا حجام ! أو يصيح آه ، ويمد بها صوته ، فان سمع صوته بهما صافيا نديا قويا مؤديا ، لا يعتريه غنة ، ولا حبسة ، ولا ضيق نفس ، عرف أنه يصلح للغناء ويرجى منه الخير ، وأشار بتعليمه ، وان وجده خلاف ذلك أبعده .

وكان له من ذكور الولد ثمانية ، ومن الاناث ثلاث : علية وفاطمة وحمدونة . وكلهم غنّى ومارس الصناعة ، واختلفت بهم الطبقة ، فكان أعلاهم ابنه عبيد الله ، ويتلوه عبد الرحمن ، وكان قاسم أحذقهم غناء مع تجويده . وقد تزوجت بناته الثلاث من كبار الأندلسيين ، فعلية تزوجت الحاجب محمد بن رستم ، وفاطمة تزوجت وهب الله بن حزم ، وحمدونة تزوجت القائد المشهور هشام بن عبد العزيز :

ويروى لزرياب من الشعر قوله : —

علقتها ريحانة هيفـــاء عاطـرة نضـيرة
بين السمينة والهزيلة والطويلة والقصيرة
لله أيام لنـــا سلفت عـلى دير المطـيرة
لا عيب فيها للمتيم غير أن كانت قصيرة

وطال عمر علية بعد أختها حمدونة ، ولم يبق من أهل بيتها غيرها ؛ فكان الناس يأخذون عنها ، ويتعلمون منها .

ومن أشـهر تلميـذات زرياب : مصـابيح ، جارية الكاتب أبى حفص عمر بن قلهيل ، وكانت غاية فى الاحسان والنبل وطيب الصوت ، وهى التى قال فيها ابن عبد ربه صاحب « العقـد الفريد » ، وكتب به الى مولاها : —

يا من يضن بصـوت الطائر الغـرد
ما كنت أحسب هذا الضن فى أحد
لو أن أسماع أهـل الأرض قاطبة
أصغت الى الصوت لم ينقص ولم يزد

وقد ظل اسم زرياب عالى الشهرة معروف المكانة فى أرجاء الأندلس ، حتى نهاية حكم المسلمين بها . وعلى الرغم من المنزلة التى بلغها عند الأمير عبد الرحمن ظل بعيدا عن الانغماس فى السياسة ، وكان له من رهافة الحس ، وبراعة الذوق ، وحسن المعرفة بأحوال الدنيـا وطبائع الناس ما جعله يقـدر آن أوقات

اللهو وساعات القصف لا تصلح لتدبير الدسائس ، وحوك المؤامرات ، والخوض فى مشكلات السياسة ومسائل الحكم . وربما كان مما يدل على علو مكانته فى نفس الأمير عبد الرحمن وتقديره له : أنه أمر بنفى الشاعر الأندلسى السياسى يحيى الغزال ، حينما ذكر له أنه أقذع فى هجاء زرياب .

وقد بلغت المشرق أخبار الرعاية التى وجدها زرياب من صاحب الأندلس ، وما يتقلب فيه من نعماء وطيب عيش . فقد روى : (١) أن علوية المغنى كان مع المأمون حينما قدم الشام ، فلما دخل دمشق وجعل يطوف فيها على أماكن بنى أمية ، دخل قصرا مفروشا بالرخام الأخضر ، وفيه بركة يدخلها الماء ويخرج منها فيسقى بستانا . وفى القصر من الأطيار ما يغنى صوته عن العود والمزمار ، فاستحسن المأمون ما رأى ، وعزم على الصبوح ، فدعا بالطعام ، وقال لعلوية : « غن بأطيب صوت وأطربه » ، فلم يمر على خاطر علوية غير هذا الصوت :

لو كان حولى بنو أمية لم
ينطق رجال أراهمُ نطقوا

فنظر اليه المأمون غاضبا وقال له : « عليك لعنة الله وعلى بنى أمية » .

---

(١) ورد هذا الخبر فى الجزء الرابع من الاغانى ، صفحة ٣٥٣ (طبع دار الكتب) بصورة أخرى ولكنها تتفق مع جوهره ، وهو ان علوية كان يغبط زريابا على مكانته فى الاندلس .

وعلم علوية أنه أخطأ فجعل يعتذر عن هفوته ، وكان مما قاله : « يا أمير المؤمنين : أتلومنى أن أذكر موالى بنى أمية ، وهذا زرياب مولاك عندهم بالأندلس ، يركب فى أكثر من مائة مملوك ، وفى ملكه ثلاثمائة ألف دينار دون الضياع ، وانى عندكم أموت جوعا » . وغضب المأمون عليه نحو شهر ثم رضى عنه .

وقد ذكر ابن خلدون : أن عبد الرحمن ركب بنفسه لتلقى زرياب حين قدومه الى قرطبة .

الخليفة المنكوب ومصيره المجهول

للمؤرخ البحاثة الأمريكي فردريك آدمز ود كتاب عن « تأثير الملوك » حاول فيه أن ينهج نهج الكاتب البريطاني الكبير توماس كارلايل في كتابه المشهور عن « الأبطال وعبادة البطولة »، فقد جعل كارلايل الأبطال أو الرجال الممتازين بعبقريتهم المنيفة وملكاتهم المحلقة بناة التاريخ وصانعي الحوادث ، وذهب الى أن التاريخ الحق : هو تراجم حياة هؤلاء الأبطال البارزين ، وجاراه في هذه النزعة البحاثة الأمريكي ، ولكنه قصر البطولة على الملوك ، فالملوك — في زعمه — هم الذين يصنعون التاريخ ، وينهضون بالأمم ويبتنون لها المجد ، وقد أراد هذا البحاثة العجيب الشأن أن يتفوق على كارلايل ومدرسته ، فيجعل لأحكامه أساسا من الواقع ، وسندا من التجارب ، حتى تقوى على الثبات للنقد الفاحص ، والتدقيق العلمي ، وقد درس دراسة مفصلة حياة ثلاثمائة وستة وثمانين ملكا من ملوك غرب أوربا ، ابتداء من القرن الحادي عشر حتى عهد الثورة الفرنسية ، وقد اختارهم من التاريخ القومي لفرنسا وانجلترا والبرتغال والأراضي المنخفضة وروسيا وبروسيا والسويد

والدانمارك واسبانيا وتركيا ، والعصر الذى اختاره : هو العصر الذى ظفر فيه الملوك بالسلطة المطلقة ، ووصل فيه النظام الملكى الى الذروة ، وانتهى الى الغاية ، وكان له فيه الحق المقدس وما الى ذلك من الحقوق والامتيازات ، وهو فى بحثه يوازن بين الأحوال السائدة فى البلاد ، أثناء حكم كل ملك من هؤلاء الملوك وبين صفات الملك الشخصية وخصائصه ومميزاته ، لكى يحدد العلاقة بينهما .

وقد قسم الملوك الى ثلاثة أقسام : أقوياء وضعفاء ومتوسطين، وقسم كذلك أحوال بلادهم الى ثلاثة أقسام : حالة يسر ورخاء وحالة تدهور وانحطاط وحالة بين بين ، واعتمد فى تقصيه على الموسوعات والمراجع التاريخية المأثورة ، وهو يقول بأنه : بنى تقسيمه للملوك على صفاتهم العقلية لا الأخلاقية ، لأنه لحظ أن المؤرخين على اختلاف مدارسهم وتباين مذاهبهم لا يختلفون حينما يصفون ملكا من الملوك بالذكاء والألمعية وبعد النظر ، أو ينعتونه بالغباء والفدامة وقلة الفهم ، أما حينما يتكلمون عن أخلاق الملوك وحظهم من طيبة القلب وصفاء السريرة ، أو انتكاس الطبع وسوء الطوية ، فان أحكامهم تتناقض وآراءهم تتعارض ، وقد أقام البحاثة ود حكمه على أحوال البلاد من الناحية السياسية والاقتصادية ، وهى فى نظره أحوال تقدمية أو أحوال متأخرة أو أحوال ليست تقدمية ولا متأخرة ، ويشمل ذلك أحوال المالية العامة وأحوال الجيش والأسطول والتجارة والزراعة

والصناعة والبنـــاء والتغيرات الاقليمية وحـــالة النظام والأمن والعدالة وحالة الحرية السياسية ومكانة البلاد فى عالم السياسة والدبلوماسية ومركزها الدولى ومنزلتها بين الأمم ، ولأمـــر ما أهمل الاشارة الى الأحوال الأدبية والعلمية والفنية ، وعذره فى ذلك أن الأحكام فيها نسبية ، فهى عرضة للاختـــلاف بين المؤرخين ، أما الأحوال السياسية والاقتصادية فهى من قبيـــل المسائل المادية ، فالاختلاف فى تقديرها قليل لا يؤبه له .

والنتيجة التى انتهى اليها هـــذا البحاثة الصبور هى : أن الموازنة بين جداول أسماء الملوك وذكر صفاتهم ، وجداول أحوال الممالك قد أثبتت أن هناك علاقة أكيدة بين صفات الملك وأحوال المملكة ، فيما يتردد بين ستين حالة فى المائة ، وسبعين حالة فى المائة ، وقد يكون هناك مكان للخطأ فى التقدير ، ولكن من المؤكد فى رأيه أن نسبة الاتفاق والترابط بين حـــالة المملكة وحالة الملك لا تقل عن ستين فى المائة من الحـــالات ، ويقول : « ان الملوك الأقوياء أو المتوسطين أو الضعفاء تكون عهودهم قوية أو متوسطة أو ضعيفة ، بنسبة حوالى سبعين فى المائة ، ونسبة ظهور الملوك الأقوياء فى العصور الضعيفة الواهنة لا تزيد عن عشرة فى المائة ، وفى نحو عشرين حالة فى المائة ظهر ملوك متوسطون فى عصور قوية أو ضعيفة ، أو اقترنت عصور متوسطة بظهور ملوك أقوياء أو ملوك ضعفاء ، وهو يخلص من هذه النتائج — المستمدة من جداوله الاحصائيه على طريقة البحث الأمريكية — الى الفكرة

الأساسية التى وقف عليها بحثه ، وهى قوة تأثير الملوك فى التاريخ ؛ وهم قد أثروا تأثيرا كبيرا — بوجه خاص — فى الفترة الممتدة من القرن الحادى عشر الى القرن التاسع عشر ، وارتبطت أحوال العصر بصفات الملك الحاكم ، فحينما كان الملك رجلا حكيما قادرا نهاضا بالأعباء تحسنت الأحوال ، وارتفع مستوى الحياة ، وحينما كان الملك خوار العزيمة ، فاتر الهمة ، منصرفا الى اللهو تعقدت الأمور وساءت الأحوال .

وواضح أن هذا التفسير للتاريخ يتفق مع التفسير البطلى للتاريخ ، وان كان أضيق منه حدودا ، لأن البطل فى رأى صاحب هذا التفسير لابد أن يكون ملكا متوجا ، بل هو ينظر الى المسألة من ناحية بيولوچية ، فالملوكية فى رأيه طراز خاص من البشرية . وهو لا ينكر تفوق رجل مثل ريشلييه على لويس الثالث عشر ؛ أو بسمارك على وليام الأول ، وهو يعد الملك الذى يسلم زمام الأمور لأحد الساسة أو لأحد الكهنة أو لحظية من حظياته ملكا ضعيفا ، ومع ذلك يستمسك بنظريته ويصر عليها ، وهو لا يقيم وزنا لعامل البيئة ، والصفات العقلية فى رأيه مثل الصفات الجسدية يورثها الآباء أبناءهم ، والتفوق الملكى فى زعمه هبة من الطبيعة ، فليس للمجتمع فيها أى فضل .

والواقع : أن فى هذا الرأى اسرافا ومبالغة ، فتحديد العلاقة النسبية بين حالة المملكة وصفات الملك يقتضينا معرفة الأحوال القومية السائدة ، والالمام بالأحوال الأخرى الطارئة ، التى قد

لا يكون للملك سيطرة عليها ، مثل : ظهور الاختراعات العلمية ، أو التغيرات الجوية ، أو كشف موارد جديدة للثروة ، وأحوال الممالك فى عصر من العصور شيء شامل متسع الجوانب ، لا يمكن أن نعزوه فى جملته الى شخص من الأشخاص ، مهما بلغ من رفعة الشأن وجلالة القدر ، والأحوال التى تعانيها الممالك كثيرا ما تكون نتيجة لأحوال سابقة متقدمة ، ومن ثم قد يظهر الملك القوى فى عصر الفوضى والاضطراب ، وقد يجيء الملك المستضعف فى عصر الرخاء والرغد ، أو عهد القوة والامتياز ، وليس هناك دليل حاسم على أنه من الأمور المحتومة أن يرتبط مستوى المملكة بمستوى الملك ، ويتسم بصفاته ومواهبه ، فالحالة التى سادت فى أى مملكة من الممالك ربما كانت نتيجة سياسة الملك السابق النافعة أو الضارة ، والرشيدة أو الحمقاء ، وقد كان — مثلا — لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر من الملوك المهازيل الضعاف ، وكانت أحوال عهديهما المالية والاجتماعية سيئة مرتبكة ، ويمكن أن نعزو سوء هذه الأحوال الى السياسة التى اتبعها لويس الرابع عشر ، وهو مع ذلك يشار اليه فى صفحات التاريخ بأنه من الملوك الأقوياء ، ونتائج الثورة الصناعية وتأثيراتها فى انجلترا لم تظهر فى عصر الملك چورچ الثالث ، وانما ظهرت واضحة ملموسة فى عهد الملكة ڤكتوريا ، ومن المبالغة اذن أن نعزو ازدهار التجارة والرخاء المادى فى عهد دزرائيلى وجلادستون الى سياستهما الرشيدة ، ولا يمكن كذلك أن ننسب الثورة الصناعية الى الملك چورچ الثالث أو الى

أى رجل من معاصريه ، وتأثير الصناعة على الحياة الحديثة كان يسير سيره الطبيعى ، غير متأثر بوجود الملوك أو الوزراء العظام ، وليس هناك ما يحتم ارتباط أحوال المملكة بصفات الملك ، فقد يجىء الملك القوى فى عهد الضعف والانحلال فلا يستطيع أن يصنع شيئا ، ولا يقوى على دفع المقدور ، وايقاف عوامل التحلل والانهيار ، وقد عجز « ود » عن تفسير سبب ضعف الملوك فى القرنين الأخيرين ، فالأحوال التى آلت بهم الى الضعف لا يمكن أن تفسر بأنها كانت نتيجة لأعمالهم وحدها ، ويرى المفكر البحاثة الأمريكى « سدنى هوك » أن محاولة « ود » الدفاع عن الملكية محاولة مخفقة ، لأن طبيعة العصر التاريخية هى التى تحد من مدى تأثير الملوك ، وهى التى تسيطر على أحوال الانتقال من عصر الى عصر آخر .

وقد أخطر ببالى التفكير فى هذا الموضوع حياة الخليفة الأموى الأندلسى — هشام الثانى ابن الحكم المستنصر وحفيد الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر — فقد كان هذا الخليفة التعس المنكوب مغلوبا على أمره ، موهون الارادة مسلوب السلطان ، وقد عاش حياة قفراء جدباء ، امتّعة تطويه المطامع وتنشره ، ويلعب به الطامحون الى المجد لعب الصوالج بالأكر ، لا ينفع ولا يضر ، ولا يؤثر أدنى تأثير فى سير الحوادث .

وقد ولى أبوه الخلافة بعد وفاة الناصر ، الذى قضى على عرش

الخلافة الأندلسية خمسين سنة ، وكان عمر الحكم حينما تسنم العرش يبلغ السابعة والأربعين ، ولم يكن قد رزق ولدا بعد ، وكان بطبيعة الحال شديد التوق الى أن يكون له ولد ، تقر به عينه ويرث ملكه العريض ، وقد حققت له هذا الأمل السيدة صبح جاريته البشكنسية ، فقد رزق منها بولد سنة ٣٥١ سماه عبد الرحمن ، وسر بمقدمه سرورا عظيما ، ونظم الشعراء القصائد فى التهنئة بمولد هذا الغلام وأكثروا فى ذلك ، وفى سنة ٣٥٣ ولدت له ولدا آخر وهو هشام ، فسمت مكانتها فى نفسه ، وعظمت سيطرتها عليه ، ورزىء الحكم بوفاة ولده عبد الرحمن ، فاشتد حزنه عليه وأصبح ابنه هشام ولى عهده ، ومعقد آماله ، وكانت السيدة صبح قد أرادت أن تختار وكيلا لأملاك ابنها عبد الرحمن ، وأبلغت هذه الرغبة الى الحكم ، فأوصى الحكم حاجبه جعفرا المصحفى بالبحث عمن يصلح لهذا المركز ، وشاء القدر أن يرشح المصحفى — مع مرشحين آخرين — شابا مجهول المكانة غامض الشأن ، اسمه محمد أبو عامر بن عبد الله بن أبى عامر ، ولما عرض المرشحون على السيدة صبح استرعى نظرها ابن أبى عامر ، بطلعته البهية ، وقوامه الفارع ، وما يتراءى على معارف وجهه من دلائل الرجولة وقوة الشكيمة ، فاختارته من بين المرشحين ، وأقر الحكم هذا الاختيار ، ولما مات عبد الرحمن أصبح وكيلا لهشام ، وقد مكنه هذا الاختيار من توثيق علاقاته بالسيدة صبح ، حتى أصبح مستشارها الأمين الذى تثق به وتعتمد عليه ، وليس من الغريب أن تنشأ علاقة حب

بين هذا الشاب الطامح ، وهذه السيدة القوية العواطف المحتدمة الميول .

وتوفى الحكم فى سنة ٣٦٦ بعد أن نظم البيعة لابنه هشام ، واطمأن على مصير ملكه ومستقبل ولده بعض الاطمئنان ، وكان ابن أبى عامر قد استطاع قبل موت الحكم أن يصبح من أعيان الدولة ورجالات الأندلس ، فلما مات الحكم خلا له الجو واتسع المجال ، واستطاع — بمعاونة السيدة صبح من ناحية ، وبدهائه وسعة حيلته وكفايته الممتازة وجرأته واقدامه من ناحية أخرى — أن يصبح سيد الأندلس والحاكم المتصرف فى شئونها .

ويروى الزبيدى — معلم هشام — أنه كان طفلا واعداً ، وأنه كان حسن الاستعداد جيد التحصيل ، صادق الحكم على الأشياء الى درجه غير معهودة فى الأطفال ، وقد يكون لرأى الزبيدى سند من الحقيقة ، ومهما يكن من الأمر فان الظاهر أن السيدة صبح وابن أبى عامر عملا معا على اضعاف شخصية هذا الخليفة الناشىء ، وليس من المستبعد أن يكونا قد مهدا له السبيل الى الانغماس الباكر فى اللذات الجنسية ، انهاكا لبنيته وتعطيلا لنماء عقله ، ومن ناحية أخرى : وجهاه وجهة دينية محضة ، وأدخلا فى روعه أن من الخير له الانقطاع للعبادة والاقتصار على ذلك ، وأحاطاه بجو مشبط من الاعتقاد بالخرافات ، والتصديق بالأوهام والخزعبلات ، حتى ركن الى السلم والدعة ، واطمأن الى الجبن والتفريط ، وهمدت فى نفسه بواعث حب الكشف والاستطلاع ، والطموح الى المجد

والتطلع الى الاستقلال ، وألف المعيشة الراكدة ، والحياة البليدة الخامدة ، وصار ينفر من احتمال أعباء الخلافة ، استهوالا لتكاليفها واستفظاعا للقدرة على الاضطلاع بها ، حتى غدا شبه معتقل فى قصره ، بعيدا عن معترك الحياة ، لا يدرى من أمور دنياه شيئا ولا يعرف عنها خبرا .

ولما استغلظ أمر ابن أبى عامر واستأثر بالسلطان عطل قصر الخليفة ، وسد بابه ، ورتب عليه الحراس ، وحجر على الخليفة حتى أصبح خفى الذكر ، محجوب الشخص ، مسدود الباب ، لا يراه خاص ولا عام ، وأشاع ابن أبى عامر : أن الخليفة قد فوض اليه النظر فى أمر الملك لتفرغه للعبادة ، وهكذا أصبح هذا الخليفة المستكين ضحية لأهواء والدته ، ومطامع المنصور ابن أبى عامر .

وظلت أحواله على هذا المنوال طوال حياة المنصور ، فلما مات المنصور وخلفه — فى الحجابة وامتلاك ناصية الأمر — ابنه عبد الملك المظفر لم يتغير الموقف ولم يتبدل الحال ، وسار عبد الملك فى آثار أبيه وجرى على سنته ، ولم يطل أمد عبد الملك فقد مات فى أول سنة ٣٩٩ ، وخلفه أخوه عبد الرحمن ، وسار على خطة أخيه وأبيه ، فى حجره على الخليفة هشام ، والاستبداد به والاستقلال بالملك دونه ، والخليفة مع ذلك كله مستغرق فى قصوره المسحورة ، وأبراجه الخرافية ، هارب من الواقع ، وأغرى ذلك عبد الرحمن بأن يتطلع الى ما أحجم عنه أبوه وأخوه ، وهو طلب الخلافة من هشام ، وتنحيته عنها ، وخلعه منها ، وكان

عبد الرحمن هذا — رجلا مفرطا فى الشراب ، منغمسا فى الشهوات ، وقد اتهم بأنه سم أخاه عبد الملك ، وربما كان هذا الاتهام لا يقوم على أساس ، ولكن الشىء المحقق : أنه كان قليل البصر بالعواقب ، ليس فيه حزم أبيه المنصور ولا كياسته وبعد نظره ، ولم تكن له همة أخيه عبد الملك ويقظته ، فلما أراد أن يجعل نفسه وارث الخلافة أفضى ذلك الى قتله وصلبه ، وسقوط الأسرة العامرية ، ولم يكن من المنتظر أن ينجح شنجول — وهو اللقب الذى أطلقه أهل الأندلس على عبد الرحمن — حيث عجز المنصور .

وقد ثار به أحد أفراد الأسرة الأموية ، التى كبر عليها أن تخرج منها الخلافة ، وكان محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الخليفة الناصر هو الذى قاد هذه الثورة ، وقد خلع هذا الأمير هشاما ابن الحكم ولقب نفسه بالمهدى ، ولقبته العامة « المنقّش » لهشاشته وطيشه وخفته ، كما يروى لنا ابن عذارى المراكشى ، وقد اختفى هذا الرجل الخليفة هشاما ، وأشاع أنه قد مات ، فانصرفت عنه نفوس الموالى والخواص ، واضطربت عليه بنو أمية ، وكان قد أغضب الطوائف البربرية ، وأغرى بها عامة قرطبة ، فاجتمع البربر مع رجل آخر من أفراد الأسرة الأموية طامع فى الخلافة ، وهو سليمان بن الحكم بن الناصر ، فأصبح اماما للبربر ، وتلقب بالمستعين ، ولم ير هذا الرجل بأسا فى أن يستعين على خلع ابن عمه والتغلب عليه وانتزاع الخلافة منه بشانجة بن غرسية ،

وحارب المهدى مع البربر والنصارى ، ولما رأى المهدى تغير الناس عليه رد هشاما المؤيد بن الحكم الى القصر ، رجاء أن يتماسك له الحال ، ويستجلب عطف الناس ، وكان محمد ابن هشام — حينما ملك قرطبة واستولى على قصر الخلافة — قد بعث الى هشام ابن الحكم — المغلوب على أمره — من يبكته على خضوعه للعامريين وايثاره لهم على أهل بيته ، ويدعوه الى خلع نفسه ؛ فلما بلغ الخليفة هشاما ذلك القول سارع بالاعتذار مقرا بالعجز وقلة الحيلة ، وبادر بالتخلى عن الخلافة التى لم يذق حلواءها ولم يحمل يوما ما أعباءها ، وهذا هو الخلع الأول من خلعى هذا الخليفة المغلوب على أمره ، وقد أمر محمد بن هشام بسد أبواب القصر على الخليفة المخلوع هشام بن الحكم ، وأخرج جواريه وصقالبته ، ولم يترك له غير جارية وخادمتين ، ثم أخرجه بعد ذلك من القصر وأسكنه فى احدى الدور ، وشخص بمثله رجلا نصرانيا ، وقيل : يهوديا ميتا ، كان يشبه الخليفة هشاما ، وأدخل عليه الوزراء فعاينوه ميتا ، ولم يشكوا أنه هشام المؤيد ، فدفن ، وهذه تعرف عند مؤرخى الأندلس بالميتة الأولى الواقعة على هذا الخليفة المنكود الحظ من ميتاته ، وكان ممن شهد بموت هشام وأنهم رأوه ميتا ، لا أثر فيه من جرح ولا خنق ، وأنه مات حتف أنفه القاضى ابن ذكوان وغيره من الفقهاء ، ولما هاجم سليمان ابن الحكم الملقب بالمستعين مع جماعة من البربر المهدى ، ورأى المهدى ظهور البربر عليه وهزيمة أهل

قرطبة أظهر هشاما بن الحكم ، وأقعده حيث يراه الناس فى منظر يشرف على أحد أبواب قرطبة ، وأرسل الى البربر القاضى ابن ذكوان ليقول لهم عن لسانه : « انما أنا قائم دون هشام ابن الحكم ونائب عنه ، كالخليفة والحاجب ، وهو أمير المؤمنين » وتضاحك البربر من شأن هذا القاضى ، وقالوا له : « سبحان الله يا قاضى ! يموت هشام بالأمس وتصلى عليه أنت وغيرك ، واليوم يعيش وترجع الخلافة اليه ! » .

وتغلب سليمان المستعين على المهدى ودخل قرطبة ، وبايع الناس سليمان بن الحكم ، وهرب المهدى واعتصم بطليطلة ، ثم عاد الى محاربة سليمان وتغلب عليه ، وأجلاه عن قرطبة وأخذ البيعة لنفسه ، وكان أول من بايعه الخليفة هشام المؤيد .

ولكن لم يطل عهد المهدى فى خلافته الثانية ، فقد ثار به أنصار أسرة المنصور بن أبى عامر وقتلوه ، وأعادوا هشاما المؤيد الى الخلافة وجددوا له البيعة ، واضطر هذا الخليفة المحجوب الى أن يظهر للناس فى هذه المرة ، رجاء أن ينيب اليه البربر وينتبذوا سليمان المستعين ، ويتم توحيد صفوف الأندلسيين ، ولكنه كان كدأبه وعادته لا يملك من الأمر شيئا ولا ينقض ولا يبرم ، وأساء حاجبه واضح السياسة ، وغم عليه أمره ، وأراد الهرب ولم يتهيأ له ذلك وقتل ، وأظهر هشام تجلدا ، وصرح بأنه لا يريد حاجبا ، وأنه سيباشر أمور الدولة بنفسه ، ولكنه كان أضعف من ذلك وأعجز ، فعاد الى طبعه ، وصار الوزراء يدبرون له أمره ،

وساءت حالة قرطبة ، واشتد بها الغلاء ، وبرحت بأهلها المسغبة ، ودخل على هشام بعض وجوه الجند وكشفوا له حال البلد ، وماذا يستطيع أن يصنع مثل هذا العاجز ؟ لقد بكى بكاء شديدا وقال فى عبارة صريحة : « اصنعوا ما أردتم ودعونى بمعزل ، فلست أقدر لكم ولا لنفسى على شىء ، فانظروا ما فيه صلاحكم فافعلوه وأنا تبع لكم » وتغلب بعد ذلك أنصار سليمان المستعين ، ودخل سليمان قرطبة ، فلما استقر بها أحضر هشاما المؤيد ووبخه وقال له : « أما كنت تبرأت لى من الخلافة وأعطيتنى صفقة يمينك فما حملك على أن نقضت عهدك وحللت عقدك ؟ » فلم يجد هشام شيئا يعتذر به سوى قوله : « انه مغلوب على أمره » وتبرأ هشام من الخلافة التى فرضت عليه ، وسلم الأمر لسليمان كما سلمه من قبل له ولغيره وخلع نفسه ، وهنا تختفى أخبار هشام من التاريخ ، وتصبح أشبه بأسطورة من الأساطير ، وقد اختلف فى أمره ، فقيل : انه قضى عليه بعد دخول المستعين قصر الخلافة : وقيل : انه فر من بين يديه . وفى بعض الروايات : أن علىّ ابن حمود لما تغلب على المستعين ودخل قرطبة طمع أن يجد هشاما حيا فلم يوجد ، وذكر له أنه قتل ، وعرض عليه قبره فأخرجه ثم دفنه ، وفى رواية أخرى : أن علىّ بن حمود قال لوالد المستعين بعد قتل ابنيه : « أهكذا يا شيخ قتلتم هشاما » فقال : « لا والله ما قتلناه وما هو الا حى يرزق » .

ولعل هذا التناقض فى الروايات عن مصير هشام المجهول

كان مدعاة لرواج الأسطورة التى زعمت أنه رحل الى الشرق فرارا من الفتنة ، وكتم أمره وأخفى نفسه ، وزار مكة حاملا معه كيسا فيه نقود وجواهر ، وطمع فيه عبيده فسرقوه وانتهبوا ما عنده ، وظل يومين يعانى الجوع حتى أشفق عليه خزاف واتخذه معينا له فى عمل الخزف ، وكان يعطيه لقاء ذلك فى كل يوم رغيفا ودرهما ، ولكنه سئم ذلك ، وانضم الى قافلة ذاهبة الى بيت المقدس وتعلم عمل الحصر ، وأصبح حصريا بارعا ، ثم عاوده الحنين الى الأندلس فرجع اليها ، وظهر أولا فى مالقة ، وفى رواية أخرى : أنه استقر فى قرية من قرى أشبيلية ، يؤذن فى مسجدها ويعمره ، ويتقوت من العمل فى الحلفاء ، وهى أخبار غير جديرة بالتصديق ، انما راق السياسيين الطامعين أن يستغلوا هذه الأسطورة الهشامية ، واتفق وجود رجل صانع حصر اسمه خلف كان يشبه هشاما شبها عجيبا ، فرأى القاضى أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد أن يفيد من ذلك ، فزعم أن هذا الرجل هو هشام نفسه ، ونصبه أميرا للمؤمنين بأشبيلية ، تدعيما لمكانته ، والتماسا للوحدة وضم الصفوف ، وفى سنة احدى وخمسين وأربعمائة قطع المعتضد عباد الدعوة الهشامية ، وأظهر موت هشام المؤيد ، وصارت هذه الميتة هى الميتة الثالثة لحامل هذا الاسم ، وقال فى ذلك أحد الرجازين :

ذاك الذى مات مرارا ودفن

فانتفض الترب ومزق الكفن

وهكذا كانت خاتمة هشام المجهولة ومصيره الغامض ، ونرى من حياة هذا الرجل المنكوب : أنه ولى الحكم ، ولم يحكم ، وأنه قد عاش وكأنه لم يعش فى الواقع ، وأنه مات ولم يكن قد مات ، وأنه رجل تستوى فيه الحقيقة والأسطورة والوجود والعدم والموت والحياة ، فهو على ضعفه وعجزه طراز فريد بين الخلفاء والملوك ، ونمط عجيب من أنماط الناس ، ولست أدرى فى أى قسم من الأقسام التى قسم اليها البحاثة الأمريكى ود الملوك يمكن أن نضع هـذا الرجل ؟ فهو لم يكن قويا ولا متوسـطا ولا ضعيفا ، وانما كان شيئا مثل لا شىء !

يوسف بن تاشفين

ولد عام ٤١٠ – وتوفى عام ٥٠٠ للهجرة

يوسف بن تاشفين اللمتونى — أمير المرابطين — من رجال القدر وصناع التاريخ، وهو شخصية مستشرفة المعالم، قوية التأثير فى تاريخ المغرب والأندلس ، ومن حماة الاسلام الذين تحمسوا للدفاع عن كيانه ، وتأييد مبادئه ومثله العليا . وكان قائدا مظفرا من أبطال الميادين ومساعير الحروب ، وزعيما موهوبا للجماعات ، وحاكما نهاضا بأعباء الحكم وتبعاته ، وداهية فى السياسة لا يسبر غوره ، ولا ينقض تدبيره .

وهو خريج الصحراوات المقفرة والخلوات الفيح ، لم يتلق سوى أثارة من العلم ، ولكنه استفاد من التجارب وممارسة الحوادث ، وأوتى الارادة الصارمة ، والبصيرة النافذة ، فكان له منهما عوض عن نقص الثقافة ، وانحصار حدود الدراسة . وكان مع اتسامه بالشجاعة وبراعته فى وضع الخطط وادارة المعارك ، ملتزما للزهد والتقشف . واذا كان الداعية المصلح عبد الله بن ياسين يعد واضع أساس دولة المرابطين ، فان يوسف هو رافع بنيانها ، ومعلى كلمتها ، وباسط سلطانها . وقد مكنه امتداد العمر وفسحة

الأجل من أن ينجز رسالته ، ويتم لعب دوره المأثور فى التاريخ العالمى .

وكانت الدولة التى اقترن اسمه بظهورها وامتداد سيطرتها ، لا يخلو ظهورها من غرابة ، ودلالة على قوة العقيدة ، وأثر المبادىء فى جمع الأهواء المتفرقة ، ورياضة النفوس الجامحة ، وتوحيد الجهود ، وتوجيهها بعد ذلك الى خدمة المثل الأعلى المنشود . ونستطيع أن نتبين — خلال نجاح تلك الحركة الدينية التى أسفرت عن ظهور دولة المرابطين — أن رأى بعض غلاة الماركسيين — فى قصر بواعث الحركات التاريخية على العوامل المادية وحدها — يخالف الحقائق فى كثير من الأحايين .

وينتمى يوسف بن تاشفين الى قبيلة لمتونة ، وهى من بطون صنهاجة ، احدى قبائل البربر ، التى عرفت بكثرة العدد وقوة النفوذ . وكانت قبائل البربر تنقسم الى شعبتين كبيرتين ، هما : البرانس والبتر . وكانت قبيلة صنهاجة أقوى ممثلى البرانس . ومن بطونها : لمتونة وجدالة ومسوفة .. كما كانت قبيلة زناتة — زعيمة قبائل البربر — من البتر ، وكان العداء مستحكما بين صنهاجة ممثلة البرانس ، وزناتة ممثلة البتر . ولما جاء العبيديون الى المغرب ناصرتهم صنهاجة ، ووقفت زناتة فى صف الأمراء الأمويين الذين حكموا الأندلس ، وامتلأ تاريخ المغرب بالحروب الدامية التى دارت بين الشعبتين الكبيرتين .

وفى أوائل القرن الخامس للهجرة كانت زناتة صاحبة الجاه

والنفوذ فى المغرب الأقصى ، وكانت قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة تعيش فى المهامة الممتدة من جنوب مراكش والجزائر الى حدود السنغال ونيجريا ، وكان مجموع هذه القبائل يسمى قبائل الملثمين. واختلفت الآراء فى سبب هذه التسمية ، فقيل : انهم كانوا يتلثمون ولا يكشفون وجوههم لشدة الحر والبرد فى الصحراء ، وكانت خواصهم تفعل ذلك فى بادىء الأمر ، ثم كثر ذلك حتى صارت تفعله عامتهم ، وتوارثوا ذلك خلفا عن سلف .

وقيل : ان سبب ذلك أن قوما من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم اذا غابوا عن بيوتهم ، فيطرقون الحى فيأخذون المال والحريم ، فأشار عليهم بعض مشايخهم أن يبعثوا النساء فى زى الرجال الى ناحية ، ويقعدوا هم فى البيوت ملثمين فى زى النساء ، فاذا أتاهم العدو وظنوهم النساء يخرجون عليهم .. ففعلوا ذلك ، وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم ، فلزموا اللثام تبركا به ، بما حصل لهم من الظفر بالعدو .

وذكر ابن الأثير سببا آخر يقرب فى طبيعته من السبب الثانى . ويخيل لى : أن السبب الأول أقرب الى الاحتمال والترجيح ؛ فان الطوارىء الجوية فى الصحراء تكاد تفرض على سكانها أن يتلثموا لحماية وجوههم من لوافح الحر ونوافح البرد. وقد مدحهم أحد الشعراء ، وقاده الحرص على المدح الى أن يذهب — فى تعليل التلثم — مذهبا آخر فقال :

لما حووا احـــراز كل فضيلة غلب الحيـــاء عليهم فتلثمـوا

وشاء القدر أن يظهر فى قبيلة جدالة رجل استنارت بصيرته وتيقظ وعيه ، فضاق ذرعا بما يتعثر فيه قومه من عشـواء الجهالة ، وسوء الفهم لمبادىء الاسلام ، وعز عليه أن يظل قومه يتخبطون فى الظلمات ، ويعانون لواعج الفتن والخلافات.. هذا الرجل هو يحيى بن ابراهيم ، زعيم قبيلة جـــدالة . وقـــد شعر بنقص معلوماته ، وأراد أن يستزيد من تحصيل العلم ، فعهد بالأمر الى ابنه ، وأخذ يتجول فى بلاد المغرب طلبا للمعرفة والتماسا للدراسة ، ووقف على مبادىء الاسلام وسائر العلوم والمعارف الاسلامية التى كانت شائعة فى عصره ، وعقد العزم على أن يذيع المبادىء القويمة والعلم الصحيح بين قومه الملثمين .

وقدر يحيى بن ابراهيم أنه لا يستطيع أن يباشر هذا العمل بمفرده ، فان عنده من شئون الادارة ما يستأثر بجانب كبير من وقته ، ولذلك استقر رأيه على أن يستحضر أحد العلماء المتمكنين لتعليم قومه مبادىء الاسلام ، وتثقيفهم تثقيفا دينيا يرفع مستواهم العقلى ؛ ويستنقذهم من الخرافات الفاشية ؛ والمذاهب الخاطئة والتقاليد الضارة .

وكانت القيروان فى القرن الخامس للهجرة مركزا هاما من مراكز الثقافة الاســـلامية ، فقصد يحى بن ابراهيم أحد علمائها الذين اشتهروا بغزارة العلم وسعة المعرفة ، والتضلع من مختلف

فروع الثقافة الاسلامية ، وهو أبو عمران الفاسى شيخ فقهاء المالكية ، وكانت بيئة علماء المالكية معروفة بالشدة فى الحق ، التى قد تصل أحيانا الى حد التزمت والميل الى التقشف ، والرغبة فى حياة التأمل والعبادة .

وبعد أن تلقى عنه وتتلمذ عليه ، ذكر له أنه يريد الخلاص لقومه ، وأن يأخذهم بتقاليد مدرسة القيروان . وطلب منه أن يرشح له أحد فقهاء المالكيين ليصحبه الى قومه فى جوف الصحراء. ورأى أبو عمران أن يحيله الى تلميذه فقيه السوس ، وجاج بن زللو اللمطى ، لاعتقاده أنه أعرف منه بمن يصلح للقيام بهذه المهمة الشاقة ، وبدا له أن الأصوب أن يتولى ذلك فقيه له معرفة بعادات الملثمين وأساليب حياتهم وطرائق فهمهم ، ليكون ذلك أعون له على التوفيق فى النهوض بمهمته .

وقد اختار له وجاج تلميذا له من أصل صنهاجى ، هو عبد الله بن ياسين . وكان عبد الله هذا عالما دارسا ، ورجلا مجربا حازما ، قوى الايمان شديد الحماسة . وقد أقبل بكليته على المهمة التى انتدب لها ، وجعلها محور حياته وهدف رسالته . واستطاع بفضل استفاضة تجاربه وسعة خبرته ، ومعرفته بلهجات البربر وعاداتهم ، واخلاصه لدعوته وتفانية فى أداء رسالته ، أن يكسب الأنصار ، ويضم تحت لوائه الجموع الحاشدة التى تدين له بالطاعة التامة والولاء الكامل .

وقد بدأ عبد الله بن ياسين يبث تعاليمه فى بادىء الأمر بين اللمتونيين ، ولما رأى من بعض سادتهم أزورارا عنه ، ورغبة فى وضع العراقيل فى طريقه ، تركهم وذهب مع الأمير يحى بن ابراهيم الى قبيلته جدالة . وهناك عظم تأثيره وذاعت دعوته ، وملأت هيبته النفوس ، ودانت له فى النهاية لمتونه ومسوفة . ولما مات الأمير يحى بن ابراهيم الجدالى سنة ٤٤٠ للهجرة ، وقع اختيار الزعيم الدينى على يحيى بن عمر اللمتونى ليخلفه ، ويتولى شئون الحرب والجهاد .

ولما كان الزعيم — عبد الله بن ياسين — يعلم أن رجاله سيخوضون غمرات معارك شتى حامية لنشر دعوتهم ، لذلك كان فى طليعة أعماله بناء رباط يأوى اليه صحبه ليفرغوا للعبادة والجهاد . وكانت فكرة الربط ذائعة فى أنحاء العالم الاسلامى ، وقد انتشرت فى المغرب انتشارا بعيدا ، ورأى الزعيم الدينى أن يستفيد من فكرة انشاء الرباط لتخريج جماعة مدربة على الحرب ، متأهبة للتضحية بكل نفيس ، فى سبيل الدفاع عن العقيدة ، وصد غارات الأعداء .

ولما استوثق عبد الله بن ياسين من ثبات مركزه ، وتوحيد صفوف قبائل الملثمين وحسن اعدادهم لخوض المعارك القادمة ، بدأ غزواته لاخضاع قبائل المغرب واماراته ، فافتتح بلاد درعة وسجلماسة وأغمات . وتوفى فى خلال ذلك يحيى بن عمر اللمتونى ، فعين مكانه أخاه أبا بكر بن عمر .

واختار أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين قائدا لمقدمة جيشه ، وكان ذلك على أثر ما أظهره يوسف من ضروب الشجاعة والاقدام ، واحكامه التدبير فى الحروب القبلية السابقة ، واتفق بعد ذلك أن قتل الزعيم الدينى عبد الله بن ياسين الذى يعد بحق واضع أساس دولة المرابطين — فى احدى المعارك ، فخلفه أبو بكر بن عمر ، واستقل بالأمر ، وتابع حروبه وغزواته .. وكان ذلك فى سنة ٤٥١ للهجرة . ومن ذلك الحين عرف التاريخ اسم يوسف بن تاشفين ، وبدأ نجمه فى الصعود .

وكان المغرب الأقصى قد استقل عن الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية ، وبسط آل زيرى — من قبائل زناتة — نفوذهم على أكثر أرجائه . فأخذت جيوش المرابطين فى تقويض سلطانهم ، ولم يستطع رجال زناتة الثبات أمام فرسان المرابطين ومشاتهم وبراعتهم فى استعمال الحراب البالغة الطول ، وكانت الغنائم والأسلاب التى يظفر بها المحاربون توزع بالتسوية على المجاهدين بعد أن يحتفظ بخمسها للامام الزعيم ، وكان ذلك من بواعث استبسالهم فى القتال واجتياحهم العقبات .

ورأى الأمير أبو بكر : أن يختار موقعا مناسبا يبتنى فيه عاصمة جديدة لملكه ، وأعجبه موقع فى بسيط حافل بالزرع والماء ، فأقام فيه القصور والمنازل ، وأطلق على المدينة الجديدة اسم مراكش ، وكان تأسيسها فى أوائل سنة ٤٥٤ للهجرة . (١)

(١) وفى رواية ابن خلكان أن تأسيس مراكش كان سنة ٤٦٥ للهجرة .

ويروى : أن الموضع الذى بنيت فيه المدينة كان مأوى للصوص ، وكان المارون فيه يقولون لرفقائهم « مراكش » ، ومعناها بلغة قبيلة المصامدة « امش مسرعا » فعرف الموضع بها .

وجاءت الأنباء من الجنوب عن نشوب حرب بين قبيلتى لمتونه وجدالة . وكان هذا الصراع ينطوى على تهديد خطير لحركة المرابطين فى الوقت الذى كانوا يتحفزون فيه لمنازلة أعدائهم ، ومد نفوذهم فى الشمال حتى يبلغ شواطىء البحر الأبيض المتوسط .. فلم يجد الأمير أبو بكر بدا من المسارعة الى العودة الى الجنوب لتأمين مؤخرته ، وللابقاء على التضامن بين القبيلتين . ولما أراد أن يستخلف أحد رجاله — قبل ارتحاله — لم يجد خيرا من ابن عمه يوسف ، فعقد له على المغرب ، وفوض اليه الأمر ، وأمره بالمضى فى محاربة قبائل البربر من : زناتة ومغراوة وبنى يفرن ، خصوم صنهاجة من البربر البتر .

وكان اختيار يوسف للقيام بهذه المهمة اختيارا موفقا ، فقد كان الموقف عصيبا ، وقد أحدقت فيه الأخطار بالدول الناشئة ؛ وبينما كان الملثمون يقاتلون فى الجنوب ، ويحاولون رأب صدعهم وجمع شملهم ، كانت قبيلة زناتة وأحلافها يستنهضون الهمم ، ويؤلبون الناس للوقوف فى وجه الملثمين . وكان الموقف يستلزم الحزم والصرامة وسرعة البت ؛ وحشد القوى لخوض غمار المعارك الحامية القادمة . وكان يوسف أقدر رجال الملثمين لاحتمال التبعات الجسيمة فى هذه الآونة الحرجة . فقد كان يضرب لجنوده

خير الأمثلة فى الاقدام على المكاره ، واحتقار مظاهر الترف ، مع التقوى وتحرى العدالة . وقد اكسبه اجتماع هذه الصفات شدة تعلق رجاله به ، وحرصهم على طاعته والاستجابة لأوامره .. فغير عجيب أن يصبح يوسف سيد الموقف ، وأن يحرز الانتصارات السريعة ، ويقود رجاله من نصر الى نصر .

وابتنى يوسف فى أثناء ذلك مسجدا بديعا فى مراكش ، وقصرا حصينا ، وعدة أبنية أخرى ، وكون لنفسه حرسا خاصا قوامه : ألفا عبد اشتراهم من ساحل غانة ، واتخذ له فرقة تسهر على حراسته مؤلفة من بضع مئين ، من الصقالبة المجلوبين من أسبانيا ، وسار له جيش ضخم ، يضم زهاء مائة ألف مقاتل . وقد نجح يوسف فى جميع غزواته ، وافتتح مدينة فاس ، وأخضع المغرب الأقصى كله ، وملأ خزائنه بالأموال مما أصابه فى غزواته المظفرة .

واستغرقت تهدئة الحالة فى الجنوب سنوات ، أخضع فيها الأمير أبو بكر العصاة ، وأعاد الوفاق بين القبيلتين ، وقاتل ملوك الزنوج ، وعاد الى المغرب الأقصى فى سنة ٤٦٥ للهجرة . ويروى : أنه لما اقترب من مدينة مراكش ، دعا يوسف الى لقائه متظاهرا بصداقته . وكان قد بلغته أنباء عما ناله ابن عمه من علو المكانة ، واتساع النفوذ وضخامة السلطان ، فاعتزم أن ينتزعه من الولاية حتى لا يستبد بالأمر دونه — ويولى غيره .. ولكن يوسف

(١) كتاب تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين « تأليف يوسف داشباخ » ص ٧١ .

ذهب الى استقباله فى جيش ضخم ، فخشى أبو بكر عاقبة عزله ، ووجد أنه لا طاقة له به . فآثر السلامة ، ورأى : أن يترك لابن عمه السيطرة على المرابطين ، وأن يلوذ بالصحراء مكتفيا بحكم اللمتونيين .

ويرى بعض المؤرخين : أن أبا بكر بن عمر كان زاهدا متورعا ، وأنه لم ينفس السلطة على ابن عمه ، ولم يفكر فى عزله ، وأنه عاد ليتفقد الأحوال، ويشاهد بنفسه ما صنعه ابن عمه ، وأن يوسف لم يجل بخاطره خلع طاعة الأمير أبى بكر ، وأنه حين علم بقدومه أعد له هدية عظيمة ، وكتب اليه كتابا يعتذر فيه اليه ، ويرغبه فى قبول الهدية ، ويقول له : « كل ذلك قليل فى حقك » ، وأن أبا بكر عاد الى الصحراء بعد أن أكد تولية يوسف على المغرب مرة أخرى .. فهو قد جربه ، ورأى حسن بلائه ، وتقدير المرابطين له ، ولذلك أحضر شيوخ لمتونة ، وكبار رجال الدولة ، واستدعى الشهود والكتاب والخاصة والعامة ، وأقر بالتخلى ليوسف عن الأمر فى أنحاء المغرب ، وقد ظلت له السيادة الاسمية حتى أدركته الوفاة سنة ٤٨٠ للهجرة .

ومهما يكن من الأمر فان اختيار يوسف لحكم المغرب فى تلك الظروف كان اختيارا حكيما ، فقد كان الموقف فى أمس الحاجة الى الحاكم الحازم ، والسياسى القدير الذى يستطيع الاستفادة من الانتصارات الحربية ، ومعالجة ما تخلفه الحروب من اضطرابات فى الأحوال الاقتصادية ، وما تحدثه فى النفوس من

احن وأحقاد .. وبخاصة بين قوم مثل بربر زناتة ، الذين كان يصعب عليهم الاعتراف بالهزيمة والاستكانة ، والاخلاد الى الهـدوء وقبول الأمر الواقع .

والظاهر أن يوسف لكى يصرف رجال زناتة عن التفكير فى هزيمتهم أمام جيوش المرابطين ، أخذ فى تنظيم جيشه من جديد ، وأدخل فيه فرقا من زناتة والقبائل الأخرى وزاد عدده ، وأقام سلسلة من الحصون تمتد من مراكش فى الجنوب الى مدينة فاس فى الشمال ومن تلمسان الى طنجة فى الغرب .

وكان يستدعى زعماء القبائل المغلوبة ، ويكرم وفادتهم ، ويجزل لهم العطاء ليتألف قلوبهم ويكسبهم الى صفه ، واستطاع بذلك أن يطفىء الفتنة ، ويخمـد نيران الأحقاد وينشر الأمن والطمأنينة .. وكان لهذه السياسة آثار طيبة فى حيـاة البـلاد الاقتصادية . وكان يوسف لا يكف عن النظر فيما يصلح أمور رعيته ويجنبها الظلم ، ويؤيد العدل والمساواة بين النـاس ، فذاعت شهرته فى أنحاء العالم الاسلامى .

وفى وقت ظهور المرابطين كان يحكم الأندلس ملوك الطوائف ، وربما كان أسبقهم الى استطلاع أخبار المرابطين الملك الباقعة المعتضد .. فقد روى المراكشى : [1] أنه كان دائم السؤال عن أخبار العدوة ، وهل نزل البربر رحبة مراكش ؟ ولما بلغه نزولهم جمع ولده ، وجعل ينظر اليهم مصعدا ومصوبا ويقول : « يا ليت

(١) كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب صفحة ١٠٠ .

شعرى ! من تناله معرة هؤلاء القوم : أنا أو أنتم ؟ » . وقد توفى المعتضد سنة ٤٦١ للهجرة ، ولم تكن طنجة قد سقطت بعد فى يد المرابطين .

فلما اتسع ملك المرابطين ، وتسامع الأمراء الأندلسيون بأخبار انتصاراتهم ، كرهوا المام يوسف بجزيرتهم خشية ضياع نفوذهم .. ففزعوا الى المعتمد بن عباد ، لأنه كان أكبرهم مملكة وأشجعهم ، ووقع اتفاقاتهم على مكاتبته — وقد تحققوا أنه يقصدهم — يسألونه الاعراض عنهم ، وأنهم تحت طاعته ، فكتب عنهم كاتب من أهل الأندلس يقول « أما بعد .. فانك ان أعرضت عنا نسبت الى كرم ، ولم تنسب الى عجز ، وان أجبنا داعيك نسبنا الى عقل ولم ننسب الى وهم . وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتنا ، فاختر لنفسك أكرم نسبتك ، فانك بالمحل الذى يجب ألا تسبق فيه الى مكرمة ، وأن فى استبقائك ذوى البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت ، والسلام » (٢) .

وكان يوسف لا يحسن فهم اللغة العربية . فلما جاءه الكتاب ، ومعه التحف والهدايا ، سأل كاتبه — الذى كان يعرف اللغتين العربية والمرابطية — عن مضمون الكتاب ، فلما علم ما فى الكتاب أمره بالاجابة ، فكتب الكاتب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من يوسف بن تاشفين ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، تحية من

---

(١) الجزء السادس من كتاب وفيات الاعيان « تحقيق الاستاذ محيى الدين عبد الحميد » ص ١١٢ .

سالمكم وسلم اليكم ، وحكمه التأييد والنصر فيما حكم عليكم . وأنكم مما بأيديكم من الملك فى أوسع اباحة ، مخصوصون منا بأكرم ايثار وسماحة ، فاستديموا وفاءنا بوفائكم ، واستصلحوا اخاءنا باصلاح اخائكم والله ولى التوفيق لنا ولكم ، والسلام » .

ولما فرغ الكاتب من كتابه قرأه على يوسف بلسانه ، فاستحسنه ، وأرسل يوسف مع الكتاب دروعا لمطية ، مما لم يكن الا فى بلاده . ولما وصل كتابه الى ملوك الأندلس فرحوا بولايته على المغرب . وعظموه وأحبوه .

وأخذ بعد ذلك الأذفنش يضغط على الولايات الاسلامية الأندلسية ضغطا شديدا ، ويعيث فى أرضهم مخربا ومفسدا ، وسقطت طليطلة فى يده سنة ٤٧٨ للهجرة ، وكان لسقوطها دوى هائل فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، وشعر ملوك الطوائف — وفى طليعتهم المعتمد بن عباد — بأن الموقف أصبح فى غاية الخطورة ، وبأنهم ليس فى استطاعتهم مقاومة الأذفنش السادس وحلفائه وحشوده ، وأجمعوا أمرهم على استدعاء يوسف ابن تاشفين .

وكان ليوسف كاتب أندلسى المولد اسمه عبد الرحمن ، فاستشاره قبل الاقدام على اتخاذ القرار الحاسم لخبرته بأحوال الأندلس . وقد أوضح عبد الرحمن « أن المسلمين يعمرون ثمن أسبانيا ، وسبعة أثمان يعمرها النصارى ، وأنها ضيقة عرجة صريحة ، سجن لمن دخلها ، لا يخرج منها الا تحت حكم صاحبها .. وان أنت

جزت اليها ، وحصلت فيها ما يكون لك فى نفسك من شىء والرجل الذى استدعاك ما بينك وبينه عتاب قديم ، ولا صداقة متصلة » وأوصاه بأن يطلب من المعتمد تسليم الجزيرة الخضراء ليضع فيها جنوده وأثقاله اذا حرص على دخوله الأندلس .

وقد اضطر المعتمد الى النزول على هذا الشرط ، وأقبل يوسف ومعه جيشه ، وحدثت موقعة الزلاقة ، وانتصر فيها يوسف على جموع الأذفنش ، وأظهر فى هذا الانتصار من البراعة الحربية ما يسلكه فى عداد كبار القواد . وبالرغم من أن عدد جيش الأذفنش كان يفوق عدد جيش يوسف وحلفائه من ملوك الأندلس ، فقد استطاع يوسف أن يقوم بحركة التفاف بارعة حول جيوش الأذفنش ، ويضربه من المؤخرة ضربة أوقعت الاضطراب فى صفوفه ، وأسفرت عن هزيمته ، واضطرته الظروف الى العودة الى المغرب ، بعد هذا الانتصار العظيم ، ولم تعجبه فى خلال المدة التى قضاها فى الأندلس أحوال ملوك الطوائف .

وكانت معركة الزلاقة فى سنة ٤٧٩ للهجرة ، وعرف أهل الأندلس : أن الفضل فى انتصار المسلمين فى هذه المعركة يرجع الى يوسف بن تاشفين ، فازداد تعلقهم به ، واشتد نفورهم من أمرائهم . وكان لهذا الانتصار صدى عظيم فى العالم الاسلامى ، حتى قيل : ان الامام الغزالى هنأ يوسف بهذا النصر .

على أن اضطرار يوسف الى المبادرة بالعودة الى المغرب ، فى أعقاب انتصار الزلاقة ، لم يمكنه من تعقب الأذفنش ، والقضاء

على قوته قضاء تاما . وترك يوسف الأمير سير بن أبى بكر على رأس عسكره ، وأوصاه بمتابعة شن الغارات على الفرنجة ، واستضافه المعتمد فى أشبيلية وهو فى طريق عودته ، وتولى اكرامه والحفاوة به ، بما عرف عنه من فرط الكرم والاسماح ، ولكن أصحاب يوسف كانوا ينبهونه الى تأمل النعمة التى يتقلب فيها المعتمد ، وما حفه من أسباب الترف والدعة والاستمتاع . ولا نزاع فى أن يوسف الذى أدهب صدر عمر فى شظف العيش ، كان لا يرتاح الى ما رأى عليه المعتمد من النعمة والترف ، وبدت منه كلمات عبر بها عن سوء ظنه بسلوك الأمير الذى يعيش على هذا النمط من أنماط الحياة ، وقدر أنه لابد أن يكون ظالما لرعيته ، مضيعا لحقوقها ، مقصرا فى أداء واجباته والنهوض بتبعاته .

ولم تحسم معركة الزلاقة الداء ، ولم تقض على قوة الفرنجة قضاء تاما ، وأخذ العدو يفيق من الضربة التى أصابته ، واستأنف العدوان وشن الغارات . وكانت قوة من الفرسان القشتاليين تخرج من حصن لبيط ، وتعيث فسادا فى منطقة مرسية ، وتقلق بال المعتمد ، وتهدد أشبيلية من الشرق .. وأحس المعتمد ان الأمر يستلزم عودة يوسف لمعالجة الموقف .

وكان الأمير سير بن أبى بكر قد أطلق الغارات فى الناحية الغربية من الأندلس . ونهب وسبى وفتح الحصون ، وساءه تقاعد أمراء الأندلس عن الجهاد ، فأرسل الى يوسف يعرفه : أن جيوش المرابطين بالثغور مقيمة على مكايدة العدو وملازمة الحرب

والقتال ، فى أضيق عيش وأنكده ، وملوك الأندلس فى بلادهم وأهليهم فى أرغد عيش وأطيبه .

ولم يجد المعتمد بدا من الذهاب بنفسه الى يوسف ليوضح له جلية الموقف ، ويستحثه الى معاودة الحضور الى الأندلس . ولبى يوسف دعوة المعتمد بعد أن استتم أهبته ، واتجه فى هذه المرة الى شرقى الأندلس ، واستنفر ملوك الطوائف لتوحيد الجهود والقيام بحركة للانقضاض على حصن لبيط ، الذى سبب متاعب كثيرة للمعتمد .

وحضر لمؤازرة يوسف : عبد الله بن بلكين ، صاحب غرناطة ، والمعتصم بن صمادح ، صاحب المرية ، وابن عباد ، صاحب اشبيلية . ولم يتخلف سوى ابن الأفطس ، صاحب بطليوس . وأطبق المسلمون على الحصن من جميع نواحيه وشددوا الحصار ، واختص كل أمير بناحية من نواحى الحصن .. ولكن المحصورين استبسلوا فى الدفاع ، ودامت المعركة أربعة أشهر ، وانتهت بارتداد قوة المرابطين الى مدينة لورقة ، وعجزها عن اقتحام الحصن .

وتختلف الروايات فى تعليل انسحاب الجيوش المتحالفة عن هذا الحصن .. وربما كان لاقبال الشتاء أثر فى هذا الارتداد ، وربما كان السبب الأقوى هو : الأنباء التى ذاعت عن قدوم الأذفنس فى جيشه اللجب لانقاذ حامية الحصن .

والظاهر : أن يوسف كان لا يطمئن الى ولاء الأمراء الأندلسيين ، وخشى أن يتخلوا عنه ، حينما يشتبك جيشه مع

جيش الأذفنش ، ولذلك آثر الانسحاب الى لورقة ، بدلا من أن يخوض معركة غير مأمونة العاقبة . ووصل جيش الأذفنش الى الحصن ، وأنقذ الحامية وأخلاه ، ودكه بعد ذلك دكا ، وأزال معالمه .. والذى يبدو من خلال ذلك — أن المعتمد قد حقق هدفه ، وهو القضاء على حامية حصن لبيط .

وعاد يوسف الى المغرب ، وقد اقتنع اقتناعا تاما بأن الأمراء الأندلسيين تسيطر عليهم عوامل الأثرة ، وأنهم لا يتورعون عن اختيار أسوأ الوسائل ، اذا وجدوا أنها توطد سلطانهم ، وأنهم لا يترفعون عن محالفة الأذفنش لطرد المرابطين . وأفضى اليه قائده — سير بن أبى بكر — بكثير مما علمه من دسائسهم ومؤامراتهم واتصالاتهم المريبة ، وطريقتهم فى معاملة رعاياهم ، وقد لمس يوسف بنفسه تخاذلهم ، واسراعهم الى الفرار فى يوم الزلاقة ، ورأى اشتغالهم بالصغائر ، ودس بعضهم لبعض فى أثناء حصار حصن لبيط .

وعلم الأذفنش بأحوالهم ، وبما بينهم من التقاطع والتخاذل ، فأخذ يتوعدهم ، ويطالبهم بدفع الجزية المتأخرة ، وأخذ يهدد اشبيلية وغرناطة . ووقف الأمراء موقفا غير مشرف .. فبدلا من أن يتعاونوا ويتماسكوا ويتعاهدوا على انقاذ بلادهم ورفع الخطر الجاثم ، أخذوا يرهقون رعيتهم بطلب الضرائب الفادحة ليدفعوا منها الجزية ، ويتابعوا عيشة اللهو والاسراف فى الانفاق ، وطلب المتعة التى ألفوها .

وعرف أهـل الأندلس عن المرابطين أنهم لا يرون فرض الضرائب الجائرة ، وأنهم لا يحصلون فى دولتهم الا ما يقضى به الكتاب والسنة . وأيد رجال الدين الشعب فى ضرورة الغاء هذه الضرائب ، التى أثقل بها الأمراء كواهل رعاياهم . ووجد يوسف أن عليه أن يختار بين اغضاب الأمراء وارضاء الشعب ، وكان يحترم رجال الدين احتراما شديدا ، ولذلك لعب الفقهاء دورا مهما فى هذا الموقف .

وقد اشتدت نقمة الفقهاء على الأمراء بعد مأساة حصن لبيط ، وأخذوا يكشفون ليوسف عن كثير من خيانات الأمراء ومخازيهم وخروجهم على تعاليم الدين ، ويزينون له الايقاع بهم والخلاص منهم .. ولعب القاضى ابن القليعى دورا مأثورا فى افساد ما بين يوسف وعبد الله بن بلكين صاحب غرناطة ، ولم يتردد فقهاء الأندلس فى حمل يوسف على استفتاء فقهاء المشرق فى خلع الأمراء الأندلسيين ، وأفتى الفقهاء — ومنهم الغزالى — بأنهم خانوا الأمانة ، وتجاوزوا الحدود ، وأنه لابد من خلعهم لتبرأ البلاد من طغيانهم وآثامهم .

وأخذ يوسف يستعد لذلك ، ولكنه أراد قبل الاقدام على هذه الخطوة أن يأمن جانب الفرنجة ، ويتقى خطر هجماتهم ، حتى لا يقع بين شقى الرحى .. وعبر الى الأندلس بعد أن أعد الرجال والأقوات ، واصطحب جماعة من أقدر رجاله وأبرع قواده ، ولم يدع ملوك الأندلس للاشتراك معه فى الغزو كما فعل فى المرتين

السابقتين ، واتجه الى طليطلة وحاصرها وعاث فى أرباضها ، ثم حاصر قلعة رباح ، ولكنه لم يلتحم فى معركة مع قوات المسيحيين ، وانما كان هدفه ابعادهم ، حتى يستطيع تنفيذ خطته المدبرة ، وهى خلع الأمراء .

وزحف بعد ذلك على غرناطة ، ودخلها سنة ٤٨٣ للهجرة ، وقد بدأ بالاستيلاء عليها ، لأنه علم أن الأمير عبد الله بن بلكين قد اتصل بالأذفنش . وأخاف ذلك المعتمد بن عباد ، والمتوكل ابن الأفطس صاحب بطليوس ، فأخذ كل منهما فى تحصين معاقله ، وحاول المعتمد الاتصال بالأذفنش ، وطلب منه العون والتأييد لمدافعة المرابطين ، وتقول الرواية : ان الأذفنش أعرض عنه . ولما علم المرابطون بذلك استفتوا الفقهاء فى خلعه فأفتوا به .

وعاد يوسف الى المغرب ، وترك لسير بن أبى بكر مهمة خلع المعتمد . وقد تم استيلاء المرابطين على اشبيلية فى رجب سنة ٤٨٤ للهجرة . وبعد فراغ الأمير سير من خلع المعتمد وأسره وارساله الى المغرب ، خف الى بطليوس ؛ لأن صاحبها حاول أيضا أن يستنجد بالافرنج ويحالفهم ، بعد أن نزل لهم عن مدينة شنترين .. وسقطت بطليوس بعد الحصار ، واستولى المرابطون بعد ذلك على أكثر حواضر الأندلس الاسلامية ، وظهر بعد ذلك القمبياطور فى شرق الأندلس ، واستولى على بلنسية ، وطال الصراع بينه وبين المرابطين ، ولم يستطيعوا استرجاع المدينة الا فى

سنة ٤٩٥ هـ ، وكان لاسترداد بلنسية دوى عظيم فى العالم الاسلامى .

وعبر يوسف البحر الى الأندلس للمرة الأخيرة سنة ٤٩٧ للهجرة . ولم يأت هذه المرة للجهاد والجلاد ، فقد كان يشعر بأنه قد قام بواجبه ، وأتم رسالته ، وثبت أقدام المسلمين فى الأندلس .. وانما جاء لتنظيم شئون الدولة ، ودعا القادة والأمراء والولاة الى الاجتماع به فى قرطبة ، وأشرك كبراء الأندلس فى هذا الاجتماع الحافل ، وأفضى اليهم بعزمه على اختيار ولده الأصغر على ، ليخلفه فى ولاية الحكم ، وأمرهم أن يؤدوا له يمين الطاعة ، وكلف كاتبه وضع وثيقة تتضمن تجديد شروط ولاية العهد ، وتوافرها فى ابنه الأصغر .

وأقسم الأمير أمام الجماعة لوالده على مراعاته لهذه الشروط واتخاذها دستورا لحكمه ، وأعد الكاتب وثيقة أخرى ورد فيها : أن الجماعة أقرت هذا الاختيار .. وعاد يوسف بعد ذلك الى المغرب ، وحمل أعباء الحكم بضع سنوات أخرى ، وأخيرا اشتد به ضعف الشيخوخة ، فتوفى فى قصره بمراكش سنة ٥٠٠ للهجرة .

وتصف الرواية التاريخية يوسف : بأنه كان معتدل القامة ، أسمر اللون ، نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، وقد خطب على منابر ملكه لبنى العباس ، واكتفى بلقب أمير المسلمين .

وقد استطاع يوسف — بحزمه وشجاعته وحسن تدبيره — أن يوحد بين قبائل البربر فى ظل المبادىء التى بثها فيهم عبد الله

ابن ياسين ، وأن يرسى قواعد دولة المرابطين ، ويمد نفوذهم الى الأندلس . واستطاع بذلك الابقاء حينـــا من الزمن على تراث الاسلام فى شبه الجزيرة ، وابقاء راية الاسلام خفاقة فى ربوعها .

وقد كان الأمراء الأندلسيون مستحقين للخلع ، ولكن قد يؤخذ على يوسف اشتداد قسوته فى معاملتهم والتنكيل بهم ، وبخاصة معاملته للمعتمد . وقد كان يوسف من غير شك قائدا بارعا وملكا عظيما ، ولكنه لم يكن أكبر من أن يقع فى بعض الأخطاء والهنات .. وانما العصمة للأنبياء .

مصرع شاعرين كبيرين

فى خلال القرن التاسع عشر : قضى سوء الحكم فى روسيا القيصرية أن يعيش كثير من المفكرين الأحرار الروسيين فى المنفى ، ومن أشهر هؤلاء المفكرين وأرجحهم وزنا : المفكر الروسى المعروف اسكندر هرزن ، وقد كان هذا الرجل شخصية بارزة ومؤلفا ممتازا وصحفيا قديرا ، وقد تأثر فى تفكيره بهجل وفرباخ والاشتراكيين الفرنسيين ، وشن حربا لا هوادة فيها على الأوتقراطية الروسية ، ونظام العبودية ، وذلك بالرغم من أنه كان ثريا وسليل أسرة من الأسر الروسية النبيلة ، وأشهر كتبه : تلك المذكرات القيمة التى ضمنها تجاربه وخواطره وذكرياته وأسماها « سالف حياتى وأفكارى » .

ومن الأشراف الروسيين الذين اتصلوا بهرزن وظهروا فى صفحات كتابه شريف روسى يدعى الأمير بيتر دلجوريكوف ، وهو مثل هرزن ، من أبناء طبقة الملاك الروسيين ، وكلاهما هجر وطنه التماسا لحرية الفكر وحرية الكلام ، فقد كانتا محرمتين فى روسيا القيصرية ، وكلاهما وقف حياته على محاربة الحكومة القيصرية والتنديد بها ، والنعى عليها ، وهنا ينتهى وجه الشبه بين الرجلين ،

وقد كان دلجوريكوف أصغر سنا من هرزن ، ولكنه برغم ذلك كانت عقليته متأثرة بعقلية الجيل السابق لجيل هرزن ، ولما كان هذا الرجل ينتسب الى أسرة من الأسر القديمة الكبيرة التى حكمت روسيا كان المنظور أن يكون فى عداد الوزراء ، لا ضمن فريق المنفيين المغضوب عليهم ، ولكن حادثة خاصة — سببها التواء فى طبيعته ونقص فى أخلاقه — جعلته ينتظم فى سلك الثائرين المنفيين ، وكان يدين بآرائهم السياسية ، ولكنه لم يشاركهم فى صميم عواطفهم ، ولم تحدث بينه وبينهم ألفة ، وكان يتجه بتفكيره صوب القرن الثامن عشر ونزعته العقلية ، وكان أكثر المنفيين من المثاليين المتحمسين ، وكان متشككا على الطريقة الڤولتيرية ، بين جماعة من الخياليين الرومانسيين .

وقد ولد دلجوريكوف فى آخر سنة ١٨١٦ ونشأ فى رعاية جدته ، وألحق فى السن المناسبة بالحرس القيصرى ، وكان ينتظر له مستقبل لامع كسائر أبناء عمومته ، ولكنه وهو فى الخامسة عشرة من عمره ارتكب وزرا غير معروف ، أدى الى استنزاله من درجته ، وفصله من فرقته فى نهاية الأمر ، فملأ ذلك نفسه حقدا ومرارة ، وأفسد عليه أمور حياته جميعها ، وأضاع عليه فرص النجاح والتبريز فى أى فرع من فروع العمل لخدمة القيصر ، ومكنه نفوذ أسرته من الالتحاق بوظيفة صغيرة فى وزارة التعليم المنشأة حديثا ، ولكن هذا الشاب الطموح وجد فى قبول مثل هذه الوظيفة ما يغض من شأنه ويزرى بمكانته ، ولم يحسن مجتمع

بطرسبرج لقاءه ، فقد كان يظلع فى مشيته ، ولم يكن جذاب الملامح محبوب القرب ، وقد أراد أن يعتاض عن كل هذه العوائق بسلاطة اللسان ، وبلغ القمة فى التدريب على استعمال هذا السلاح ، وزاد ذلك الناس نفورا منه وكراهة له ، ولكنه برغم ذلك وجد له أصدقاء بين طائفة من شبان المدينة الأثرياء المولعين بالأناقة وحب الظهور ، والليالى الساهرة والفتك والمجون ، وكان من الذين اختصوه بودهم وشملوه برعايتهم : البارون هيكرن وزير هولندة المفوض فى البلاط القيصرى ، وكان رجلا متقدما فى السن ، قد عاش عيشة فجور وانطلاق ، فلما كلّت حواسه وضعفت بنيته وولّت قابليته للمتع الحسية صار يستعين بالبقية الباقية من نشاطه وحيويته فى اغراء الشبان بنصب الشباك وتدبير الدسائس والتورط فى المغامرات ، ولم تمنعه شيخوخته من الاشتراك معهم فى ذلك ، ولزم سوء الحظ الشاب دلجوريكوف ، فقد وسمت احدى هذه المغامرات المنحوسة اسمه بميسم العار الأبدى ، فهذا الشاب المنكود الحظ : كان يعرف عادات المجتمع الذى يعيش فيه ، وحينما كتب أهجية لا تحمل اسمه ، وتناول فيها شاعر روسيا الكبير اسكندر بوشكن ، لا شك أنه كان يقدر النتائج الوخيمة التى تنجم من جراء هذه الفعلة الشنعاء ، فقد كان رجال ذلك العصر يقتل بعضهم البعض لأقل اهانة وأهون خدش للكرامة ، فكيف بأهجية تمس العرض مسا شديدا ، وتجرح السمعة جرحا بليغا ؟ ولكن هذا الرجل العابث المستهتر — برغم ذكائه وألمعيته

وخبثه وسوء طويته — لم يكن يعلم فى هذه المرة أن ضحيته سيكون الشاعر الذى عدّته الأجيال التالية أعظم شعراء روسيا ، وأصدقهم تمثيلا للجانب الشعرى فى ثقافتها وأدبها ، وأنه بعد مرور ما يقرب من مائة سنة سيعمل المؤرخون والنقاد والخبراء فى قراءة الخطوط على اثبات جريمته ، التى حاول مرارا التنصل منها ، والتخلص من تبعتها .

ونص هذه الوثيقة الدامغة — التى سطرتها يمينه ، وأرسلت لبوشكن ، وأذيعت فى الوقت نفسه بين أصدقائه وعارفيه — هو « عقد كبار قواد فرقة حملة القرون وفرسانها اجتماعا رأسه رئيس الفرقة ناريشكين ، ووافقوا بالاجماع على اختيار اسكندر بوشكن مساعدا لرئيس فرقة حملة القرون ومؤرخا للفرقة — سكرتير الفرقة الدائم س . ت . ج بورش » .

وكانت الاشارة المقصودة بهذه الأهجية واضحة ؛ فدمترى ناريشكين — الذى ذكر اسمه بوصفه رئيسا للفرقة — كان يشغل أحد المناصب الكبيرة فى بلاط القيصر اسكندر الأول ، لأنه كان زوج محظية القيصر ، والكونت بورش كان كذلك من النبلاء الذين ساعدهم على التقدم ونيل المكانة السامية براعة زوجته المحبوبة فى اكتساب العطف السامى ، واستمالة القلوب فى تبصر وحسن تقدير ، وكانت السيدة نتالى بوشكن تنافس هاتين المرأتين فى الجمال ، والأخذ بمجامع القلوب ، وكذلك فى الضعف البشرى حسب أقوال بعض الناس ، وراجت اشاعات مضمونها : أنهـا

أشعلت نيران الحب فى قلب القيصر الهمام نيقولا الأول ، ذلك الجبار الذى صعر خده لأمته وأذلها ، ولم يجد من يمشى اليه بالسيوف ليعاتبه كما كان يقول الشاعر الكبير بشار بن برد ، وكان من المنتظر اذن أن يرشح زوجها للترقية فى فرقة حملة القرون .

ولم يكن هنـــاك دليل قاطع على أن نتـــالى لم تكن وفية لعهد زوجهـــا ، وربما كان بوشـــكن على حق فى محاولتـــه الدفاع عن سمعتها ، ولكن الشىء المؤكد هو : أنها هى وشقيقتها صادقتا فى أثناء خريف سنة ١٨٣٦ وشتائها شابا فرنسيا جميل الصورة ، اسمه جورج دانتيز ، وأظهرتا ميلا خاصا اليه ، وكان البارون هيكرن قد أعجب بهذا الشاب وتبناه ، وأضاف اسمه الى اسم الشاب ، فصار اسمه دانتيز هيكرن ، وحينما تلقى الشاعر بوشكن قرار ضمه الى فرقة حملة القرون عرف ان وراء هذه الحملة لتلويث سمعته والنيل من شرفه البارون هيكرن . وكان يعلم أن زوجته قد عرضت سمعتها للقيل والقال بصداقتها البريئة لدانتيز ؛ ووجد أن ذلك كله ينطوى على مؤامرة مدبرة من الأب والابن المتبنى لهدم مكانته والوقوع فى عرضه وجعله أضحوكة بين الناس ، ولم يجد ازاء ذلك بدا من دعوة الشاب دانتيز الى المبارزة .

وبدأت محاولات غير مجدية للتوفيق بين الخصمين ، ولكنها لم توفق ، وتمت المبارزة فى فبراير سنة ١٨٣٧ وأصيب فيها الشاعر الكبير بجرح مميت ، وطلب القيصر من الحكومة الهولندية استدعاء

وزيرها ، ورفض مقابلته قبل رحيله ، وبرغم التحريات الدقيقة وقفت المسألة عند هذا الحد ، وذلك بالرغم من أن كل انسان كان لا يشك فى أن الأهجية التى أثارت الشاعر الكبير قد صدرت من جماعة البارون هيكرن ، ولكن اسم مؤلفها الحقيقى ظل مجهولا ، وكان الاشتباه فى اسم مؤلفها موزعا بين أمير من النكرات اسمه جاجارين والأمير بيتر دلجوريكوف ، وفتر الاهتمام بتحرى الحقيقة فى أمر تأليف الأهجية ، وبعد مرور خمس وعشرين سنة على الحادثة كتب كاتب يدعى أمّوسوف رسالة موجزة عنوانها « أيام بوشكن الأخيرة » ذكر فيها : أن دلجوريكوف هو مؤلف الأهجية ، وكان دلجوريكوف حينئذ فى لندن ، فكتب ردا شديد اللهجة ينكر انكارا حاسما كتابة هذه الأهجية ، ونشر له هرزن هذا الرد فى مجلة « بل » التى كان يحررها ، كما نشرته جرائد روسية أخرى ، وفتر اهتمام الباحثين بعد ذلك بهذا الموضوع ؛ لعدم وجود الدليل الكافى ، وظلت المسألة مطوية حتى سنة ١٩٢٧ ، ففى تلك السنة عرضت على أحد خبراء قراءة الخطوط فى ادارة البحوث الجنائية فى لننجراد نسختان أصليتان من الأهجية ، التى مر عليها تسعون سنة ، ومعها أمثلة من خطوط هيكرن وجاجارين ودلجوريكوف ، وقضى الخبير : بأن الأهجية مكتوبة بخط دلجوريكوف ، برغم تكلفه اخفاء ذلك أثناء الكتابة .

وقد استقال دلجوريكوف من وظيفته بعد المبارزة وموت بوشكين ، وارتحل من روسيا الى باريس ، وشرع يؤلف كتابا عن

تاريخ الأسر الروسية الكبيرة ، ووجد فى هذا المجال متسعا لينفث سموم حقده على الناس ، وميله الى تصيد المعايب واذاعة الفضائح . وكتب بعد ذلك كتابا آخر عن روسيا ، حاز اعجاب هرزن ، وقد قرظه فى مجلته . ولما وقع الخلاف بين دلجوريكوف وأمير روسى اسمه ڤورنستوڤ ، وأدانت المحكمة دلجوريكوف ، ورأت أنه كاتب وثيقة أخرى ، حاول التنصل من كتابتها ، كما حاول التنصل من كتابة الأهجية التى كانت من أسباب القضاء على حياة بوشكين وقف هرزن الى جانبه ودافع عنه ، وقد استطاع دلجوريكوف بخشه ودهائه أن يقنع هرزن بأن المحكمة الفرنسية أداتته ، ارضاء للحكومة الروسية التى كانت تعده من أعدائها ، وقد عهدت الحكومة السوڤيتية الى أحد خبراء الخطوط فى فحص هذه الوثيقة التى تنصل من كتابتها دلجوريكوف فجاء حكم الخبير موافقا لحكم المحكمة الفرنسية ، التى اتهمها دلجوريكوف بمحاباة الحكومة القيصرية . ومن الكتاب الذين شكوا فى تنصل دلجوريكوف من كتابة هذه الوثيقة : الكاتب الروائى الروسى الكبير ايڤان ترجنيف ، فقد كان مقيما فى باريس حين أصدرت المحكمة الفرنسية حكمها بادانة دلجوريكوف ، وقد أرسل كتابا الى هرزن يحذره فيه من الدفاع عن دلجوريكوف ، ويذكر له لؤم غريزته وفساد طويته ، وخطر صحبته والانتصار له ، وقد أثبت ترجنيف أنه كان فى هذا الموضوع أعرف بنفسية دلجوريكوف ، وأصح رأيا وأبعد نظرا من المفكر الممتاز هرزن .

ونرى من ذلك : أن مصرع شاعر روسيا العظيم وأحد شعراء العالم المعدودين كان نتيجة مؤامرة وضيعة ، دبرها رجل مسن خليع ، فاسد الأخلاق ، متهم بالشذوذ ، هو الوزير الهولندى البارون هيكرن ، واشترك معه فيها شاب مدلل مفتون خامل القدر تافه القيمة ناقص الرجولة ، وأمير وضيع النفس ، مطبوع على الكذب والوقيعة والدس . وقد قضى الشاعر العظيم نحبه وهو لم يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره الخصب وحياته النافعة .

وقد ذكرنى مصرعه بمصرع شاعر آخر عربى صليب — ربما كان أكبر شعراء العرب وأعظم ممثلى عبقريتهم الشعرية — وهو أبو الطيب المتنبى ، وقد ذهب بوشكن ضحية الدفاع عن عرضه والذود عن شرفه ، أما المتنبى — حسب الرواية الشائعة — فقد قتله أعداؤه ؛ لأنه ثلم عرضهم ومس شرفهم ، وقد قتل المتنبى وهو فى أوج قدرته الشعرية ، ولما يتجاوز الواحدة بعد الخمسين من سنوات عمره الحافل بجيد الشعر وغرائب الأخبار والمغامرات ، وتقول الرواية ان قوما من أهل العراق قتلوا رجلا يدعى يزيد العتبى وقيل العينى بالياء المثناة بعد أن أهانوه وسبوا امراته ، وكان لهذا الرجل ابن اسمه ضبة وكان ضبة هذا غدارا بكل من نزل به ، واجتاز به أبو الطيب فى جماعة من أشراف الكوفة فامتنع منهم ، وأقبل يجاهر بشتمهم ، فأرادوا أن يجيبوه بمثل ألفاظه القبيحة ، وسألوا ذلك أبا الطيب فتكلفه لهم على كراهته ، ونظم قصيدته المعروفة فى هجاء ضبة وهو على ظهر فرسه ، وهو يقول فى مطلعها :

ما أنصف القوم ضبة

وأمه الطرطبة

وهو يشير فى هذا البيت الى قصته المذكورة ، والطرطبة معناها المسترخية الثديين ، ويقول أبو الطيب فى هذه القصيدة :

وانما قلت ما قلت

رحمة لا محبة

وما عليك من الغدر

انما هى سبة

كذا خلقت ومن ذا الذى

يغالب ربه

ان أوحشتك المعالى

فانها دار غربة

وفى القصيدة أبيات من الهجاء أسف فيها أبو الطيب اسفافا شديدا ، أساء به الى أدبه وسمعته اساءة بالغة ، وقد رأى أحد الأدباء أن هذه القصيدة برمتها ، باطلة النسبة الى أبى الطيب ولكنى أرى : أن محاولة تبرئة المتنبى من نظم هذه القصيدة محاولة غير موفقة ، وربما كان باعثها : أننا نحاول فرض آداب عصرنا على عصر أبى الطيب ، الذى كان على ما يظهر لا يستنكر هذا الأسلوب فى الهجاء والمعابثة ، وقد عاصر أبا الطيب شاعران آخران ، حفل شعرهما بالمجون والأدب المكشوف الى حد يستوقف النظر ،

وهما : ابن الحجاج وابن سكرة ، وللمتنبى نفسه قصيدة فى مدح أبى العشائر مطلعها :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم

عرضا نظرت وخلت أنى أسلم

ضمنها الكثير من الحكمة الرائعة والنظريات الصائبة الى الحياة والناس ، ولكنك ترى الى جانب الأبيات التى تنم على قوة العاطفة وقوة التفكير أبياتا أخرى ، ينزل فيها عن مستواه ، ويتورط فى هجاء قذر ينال من سمعته وعبقريته ، قبل أن يؤذى خصومه وأعداءه ويضر بسمعتهم .

وكان لضبة — الذى هجاه أبو الطيب — خال يقال له : فاتك ابن أبى جهل ، داخلته الحمية لما سمع ذكر أخته بالقبح فى هذا الشعر ، وكان فاتك هذا — معروفا بميله لسفك الدماء ، واقدامه على الأهوال فى مواقف النزال ، وأضمر غير ما يظهر ، ولام ابن أخته ، لأنه جعل للشاعر عليه سبيلا ، وصار يتتبع أخبار أبى الطيب ، واتصل به انصرافه من بلاد فارس عائدا من حضرة عضد الدولة ، وتوجهه الى العراق ، وعلم أن اجتيازه بجبل دير العاقول ، فلم يكن ينزل عن فرسه ومعه جماعة من بنى عمه يرون فى المتنبى رأيه ، وقد روى أبو نصر الجبلى — وكان من وجوه الناس فى تلك الجهة — أن فاتكا كان خائفا أن يفوته المتنبى ، وكان كثيرا ما ينزل عند أبى نصر وهو يسأل المجتازين

عن المتنبى ، واسترعى ذلك التفات أبى نصر ، فقال له : « لقد أكثرت من المسألة عن هذا الرجل فأى شىء تريد منه اذا لقيته ؟ » !

فقال فاتك : « ما أريد الا الجميل وعذله على هجاء ضبة » فقال له أبو النصر : « هذا لا يليق بأخلاقك » فتضاحك فاتك وقال : « والله لئن اكتحلت عينى به أو جمعتنى واياه بقعة لأسفكن دمه ولأمحقن حياته » وانصرف من حضرة أبى نصر .

ويقول أبو نصر فى روايته : « لم يمض على قول فاتك ثلاثة أيام حتى وافانى المتنبى ، ومعه بغال موقرة بكل شىء من الذهب والطيب والتجملات النفيسة والكتب الثمينة والأدوات الكثيرة ، لأنه كان اذا سافر لا يترك فى منزله درهما ولا شيئا يسار به ، وكان أكثر اشفاقه على دفاتره ، لأنه كان قد انتخبها وأحكمها قراءة وتصحيحا ، وتلقيته وأنزلته فى دارى ، وسألته عن أخباره وعمن لقى فى تلك السفرة ، فعرفنى من ذلك ما سررت به له ، وأقبل يصف ابن العميد وفضله وكرمه وعلمه ، وكرم عضد الدولة ورغبته فى الأدب ، وميله الى الأدباء ، فلما أمسينا قلت له : يا أبا الطيب ! علام أنت مجمع ؟ قال : « على أن أتخذ الليل مركبا ، فان السير فيه أخف علىّ » ، قلت : هذا هو الصواب ، رجاء أن يخفيه ولا يصبح الا وقد قطع بلدا بعيدا ، وقلت له : الرأى أن يكون معك من رجال هذه البلدة — الذين يعرفون هذه المواضع المخيفة — جماعة يمشون بين يديك الى بغداد ، فقطب وجهه وقال : فما تريد بذلك ؟ قلت : أريد أن تستأنس بهم فى الطريق ، فقال : أنا والجزار فى عاتقى

فما بى حاجة الى مؤنس غيره ، فقلت له : ان الأمر كما تقول ، ولكن الرأى فى الذى أشرت عليك به ، وذكر له أبو النصر حضور فاتك وأبناء عمه وغضبهم لهجائه لضبة ، ولـكن أبا الطيب رفض هذه النصيحة ، وكبر عليه أن يسير فى خفارة أحد غير سيفه ، وأن يشغل فكره بهؤلاء الأعداء المتربصين به لحظة عين ؛ وركب المتنبى للقاء حتفه ، وقد قتل هو وابنه وغلامه ، ويقول أبو نصر فى روايته : لما صح خبر قتله وجهت من دفنه ودفن ابنه وغلمانه وذهبت دماؤهم هدرا ، وقد حكى الشريف الناصر هذه الرواية : عبرت على بدن المتنبى وكان مفروقا بينه وبين رأسه ، ورأيت الزنابير تدخل فى فيـه وتخرج من حلقـه ، أعاذنا الله من كل سوء ومكروه بمنـه وطوله .

وهكذا كانت خاتمة أمير شعراء العربية فى رأى الكثيرين ، وأحد شعراء العرب المعدودين ، فى رأى جميع النقاد بغير خلاف ، واذا صحت هذه الرواية فانها ترينا : أن أبا الطيب قتل فى سبيل الغضب للعرض والشرف والدفاع عنهمـا ، كما قتـل الشاعر بوشكن فى سبيل الدفاع عن العرض ، والمحافظة على شرف السمعة ، وقد كان المتنبى هو المعتدى والبادى بالشر ، ولكن بوشكن كان المعتدى عليه ، والذى دفع دفعا الى خوض المعركة ، ابقاء على سمعته ومكانته فى المجتمع .

وفى رواية أخرى : أن سبب قتل المتنبى — أنه لما ورد على عضد الدولة ومدحه وصله بثلاثة آلاف دينار ، وثلاثة أفراس

مسرجة محلاة بالذهب ، ثم دس له من يسأله : أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة ؟ فقال أبو الطيب : « ان سيف الدولة كان يعطى طبعا وعضد الدولة يعطى تطبعا » فبلغ ذلك الى عضد الدولة فغضب ، فلما انصرف من أرضه جهز اليه قوما من بنى ضبة فقتلوه ، بعد أن قاتل قتالا شديدا ثم انهزم ، فقال له غلامه : أين قولك : —

الخيل والليل والبيداء تعرفنى .

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقال قتلتنى قتلك الله ثم قاتل حتى قتل .

ولكنى أشك فى هذه الرواية ، لأن رجلاً مثل أبى الطيب قد عرف بصحبة الملوك ، وعرف جو الدسائس والنمائم والوشايات التى تحيط بهم ليس من السهل أن يصرح بمثل هذا التصريح الخطير ، وهو لا يزال فى ملك عضد الدولة ، يمدحه ويغشى بلاطه ويحضر مجلسه ، ويستظل بأفياء كرمه ورعايته ، وأبو الطيب كما يظهر من سيرته وأخباره لم يكن مثالا يقتدى به فى الحزم والكياسة ، ولكنه لم يكن كذلك مثالا فى الغباء والحماقة ، بحيث يبدر منه مثل هذا التصريح ، ويقع فى مثل هذا الخطأ ، ولذلك أرى : أن الرواية الأولى أقرب الى المعقول من الرواية الثانية ، وقصيدته فى هجاء ضبة من أسخف شعره وأوهى كلامه .

ولكن شعر المتنبى فى مجموعه — على تفوقه وامتيازه واقتداره — لا يخلو من الشعر الضعيف السخيف فى معناه

ومبناه . ولكل شاعر — مهما سمت عبقريته — شعر جيد وشعر ردىء .

وليس المتنبى وبوشكن الشاعرين الوحيدين اللذين قتلا فى سبيل الدفاع عن العرض والشرف ، فقد قتل فى هذا السبيل غيرهما من كبار الشعراء ، أذكر منهم : الشاعر الثائر الروسى لرمنتوف ، فقد عنى بزوجة صديقه مارتينوف أكثر مما يلزم ، وأخذ يسخر منه فى حضورها ، وتبع ذلك مبارزة بينهما ، قتل فيها لرمنتوف ، وهو لم يتجاوز السابعة بعد العشرين ، والشاعر الكبير والهجاء القدير دعبل ، فقد هجا مالكا بن طوق هجاء شديدا وسب أمه سبا جارحا ، فبعث مالك رجلا حصيفا مقداما ، وأجزل له العطاء وأمره أن يغتاله كيفَ شاء ، فلم يزل الرجل يطلبه حتى وجده فى قرية من نواحى السوس فاغتاله ، وما أصدق قول صالح ابن عبد القدوس :

احفظ لسانك واحترز من لفظه

فالمرء يسلم باللسان ويعطب

لغز العقد الماسي

امتازت العصور الحديثة بثورتين كبيرتين ، وهما — الثورة الفرنسية ، والثورة الروسية ، وكانت كلتا الثورتين نتيجة محتومة لبواعث عدة ، وأسباب مختلفة اقتصادية وسياسية ونفسية ؛ وقد رمت الثورة الفرنسية الى تحقيق مبادىء الاخاء والحرية والمساواة ، وقد أخفقت فى تحقيق هذه المبادىء تحقيقا عمليا ، ولكنها نجحت نجاحا باهرا فى جعلها أمل الأمم المرجو وغايتها المنشودة ، وما تلا الثورة الفرنسية من الأحداث الجليلة والانقلابات الخطيرة يؤيد ذلك الرأى ويعززه .

أما الثورة الروسية : فقد قامت لاستكمال نقص مبادىء الثورة الفرنسية ، وتقصيرها عن الوفاء بنوازع الانسانية وطموحها ، فقد رمت الثورة الفرنسية الى المساواة السياسية ، وهى ليست بذات قيمة اذا لم تتبعها المساواة الاقتصادية ، فجاءت الثورة الروسية لاستدراك ذلك النقص ، وقد حققته الى حد بعيد ، بالغاء فوارق الطبقات الغاء تاما ، وقد سبق هاتين الثورتين فى فرنسا وروسيا حوادث عجيبة ، كانت بمثابة ارهاصات ونذر بالعاصفة القادمة العاتية المدمرة ، وقد سبقت الثورة الروسية غرائب راسبوتين

وفضائحه ، كما تقدمت الثورة الفرنسية مخرقة أمثال كاليسترو وقضية العقد الماسى ، وقد كانت تلك القضية النادرة المثال المدهشة الوضع والتأليف من الأسباب القوية المباشرة للثورة الفرنسية ، ولا تزال تختلف فيها الآراء ، وتتعارض فى اكتناه أسرارها وجهات النظر ، وقد كان لهذه القضية تأثير بليغ فى تشويه سمعة الملكة مارى أنطوانيت ، وزيادة نفور الشعب الفرنسى من البلاط الملكى ؛ وقد كشفت بصورة واضحة عن فساد المجتمع الفرنسى ، وانحلال الطبقة العليا ، كما أظهرت فضائح راسبوتين مدى تغلغل الفساد فى الطبقة العليا الروسية ، وامتناع البلاط القيصرى على الاصلاح ، وعجزه عن مسايرة حركة التقدم .

وملخص قضية العقد الماسى : أنه فى فرنسا القرن الثامن عشر ؛ اللاهية العابثة ، المسرفة فى الترف ، العاكفة على المتعة ، نشأت فى مهاوى الفاقة وشظف العيش فتاة اسمها جان دى ڤالوا ، وقد عرفت فيما بعد باسم الكونتس دى لاموت ، وعاشت عيشة الحرمان والكفاف ، فكانت تستجدى كرم الناس ، وتستدر عطفهم وتتوسل اليهم وهى فى أطمارها الرثة قائلة : « أكرموا يتيمة من سلالة آل ڤالوا » وكانت تجمع الصدقات التى يتسخى بها عليها الناس ، وتهرع الى أمها العجوز ، وأبصرت بها يوما ما احدى المركيزات وهى فى عربتها المطهمة ، واسترعى سمعها انتساب جان الى بيت ڤالوا ، ملوك فرنسا السابقين ، فدعتها وتحرت حقيقة نسبها ، وعرفت أنها من سلالة الملك هنرى الثانى زوج كاترين

دى مدتشى ، وأثر ذلك فى نفس المركيزة الرقيقة القلب ، فعملت على أن تبسط عليها حمايتها ، وتفيئهـا ظل عطفها ، وأدخلتهـا ديرا من أديار الراهبات لتنشأ نشأة صالحة ، ولكن الفتاة لم تكن من الطراز الذى يصلح للدير ، وبراءة التدين وحياة الصون والعفاف وكبح الأهواء ، وكان دم أسرة القالوا يجرى فى عروقها ، فبعد أن أمضت فى الدير سنوات ضاقت بحياة التدين والعزلة ، ففرت من الدير وهامت على وجهها ، وكانت قد أصبحت فتاة ناضجة ، ريانة الشباب ، مليحة القد ، تجيش نفسها بالمطامع ، وحلت ضيفة فى الريف على سيدة تدعى : مدام دى سيرمون ؛ وتزوجت بعد ذلك برجل آفاق فقير سيء السـمعة ، كان ديدبانا بالجيش ، وأبى له غروره وادعاؤه الا أن يزيف لنفسه لقب كونت ، فأصبحت جان تسمى « الكونتس دى لاموت » ، وأقاما فى باريس ، وظلت جان ماضية على غلوائها ، متحللة من قيود العرف ، خارجة على آداب المجتمع ، وقد علمتها الحاجة سـعة الحيلة ، وشحذت خبرتها بمواضع الضعف فى نفوس الناس ، والقدرة على العبث بعقولهم ، والاجتراء على الكذب والمخاتلة ، حتى استطاعت أن تخدع فيمن خدعت الرجل الذى خدع ملوك أوربا وأمراءها ، وهو الكونت كاليسترو ، الدجال الذائع الشهرة ، وقد استطاعت أن تتسلل الى الأوساط العالية ، وأن تتصل بالأسر الأرستقراطية ، ومهد لهـا ذلك شبابها الغض ، وجرأتها ، والمطامع التى استأثرت بنفسها ، على أنها لم تكتف بما بلغته من جاه ومنزلة ، فرمت الى أن تتعرف

بالملكة مارى أنطوانيت ، ولكن باب الملوك ليس مفتوحا على مصراعيه لكل من هب ودب ، ولعبت برأسها المطامع واستطارتها الأهواء ، وما دام قد أعجزها الدنو من الملكة فى الواقع والحقيقة فلتظفر بصداقتها ورعايتها فى عالم الوهم والخيال ، فراحت تزعم للناس : أنها صديقة الملكة المقربة ، ومستودع أسرارها ومناط ثقتها ، وصارت فى كل مجلس تطنب فى الثناء على الملكة ، وتتغنى بوصف شمائلها الغر ، وأياديها الحسان ، وتخلع عليها أجمل الصفات ، حتى تستقر فى الأذهان حقيقة علاقتها بالملكة ، وشاء القدر أن تتعرف بالكردينال لويس دى روهان ، عميد الكنيسة الفرنسية ، وابن عم الملك لويس السادس عشر ، وكان رجلا متلافا متهالكا على المتعة ، لا يراقب نفسه ولا يملك عنانها ، وقد عينه الملك سفيرا فى بلاط النمسا ، فلم يعقه ثوبه الكهنوتى ، ولا لقبه الدينى عن الاسراف فى اللهو ، وبلغت الملكة ماريا تريزا عنه كلمة نابية وملاحظة ساخرة ، أبداها بمناسبة اشتراك النمسا فى تقسيم بولندة ، فكتبت الى البلاط الفرنسى لاستدعائه من ڤينا ، فعاد الى فرنسا وتسلم منصب عميد الكنيسة الفرنسية ، وعبثت به الآمال والمطامع ، فحاول أن يتشبه بالكردينال ريشيليه والكردينال مازارين فى توثيق العلاقة بالملكة ، ليتخذها وسيلة لتحقيق مآربه ، فيصبح سيد فرنسا الحقيقى ، وتعظم مهابته ويعلو شأنه فى أوربا جميعها ، ولكنه سرعان ما علم أن الملكة كانت مغيظة منه ، ناقمة عليه ، معرضة عنه ، فكان شغله الشاغل وأمله المالىء لشعاب نفسه هو : أن

ببذل الجهد فى استرضائها ، واجتلاب عطفها مهما كلفه الأمر ، واتصل بكاليسترو وآمن بقدرته الفائقة ومواهبه الخارقة ، وهكذا جمع القدر بين كاليسترو وجان وروهان ! وكان ينقص الثلاثة شخص رابع ، هو تاجر الجواهر بهمر ، الألمانى وصل النازح الى فرنسا ، لينتظم عقد القصة ، وتتم حبكة المهزلة أو المأساة ! وأقبلت جان على الكردينال روهان تحدثه عن حاضرها وماضيها ، وما صادفته من أزمات فاجعة ، ولواعج مروعة ، وتثير عطفه ، وتحرك طلعته ، حتى خصها بنصيب من صندوق النذور ، وعاون زوجها فى الحصول على رتبة فى الجيش ، وتوثقت بينهما العلاقات ، وكثرت الأحاديث والمفاوضات ، وجاء ذكر الملكة عرضا فى خلال الحديث ، ومن عجائب هذه القصة الغريبة : أن هذا الكردينال — الذى كان يطمع فى أن يصبح خليفة ريشيليه — خدع بثرثرة جان ، وصدق بتلك الصلة المتينة المزعومة التى تربطها بالملكة ، وأراد أن يستغل جان فى تحقيق مطامعه ، والتقريب بينه وبين الملكة النافرة النائية ، وأدركت جان هذه العقدة النفسية فى الكردينال : وعملت على الانتفاع بها ، وتغلب شيطانها على شيطانه ، فأوهمته أنها تسعى لتحسين العلاقات بينه وبين الملكة ، وتصفية الجو ، والتمكين له فى قلب الملكة ، وسلمها الكردينال كتابا الى الملكة ، ضمنه ما يعتلج فى صدره من الاخلاص ، وما يضمره لها من الولاء ، وتضرعه اليها أن تشمله بعطفها ، ولا تحرمه من رعايتها ، وحملت الكونتس الكتاب وعادت اليه بعد أيام برد مكتوب بخط الملكة وعليه توقيعها ،

مضمونه : أنه قد زال من نفسها ما كان بها من النقمة عليه ، وأنها قد غفرت له ذنبه وصفحت عنه ، وسر الرجل سرورا لا مزيد عليه ، وطارت بلبه نشوة الفرح ، فلم يفطن الى التزوير ، وراجت عنده الحيلة وطوته الشبكة ، وتعددت الرسائل وتوالت الردود ، وثارت هواجسه بعد ذلك فسأل : لماذا لا تخطو الملكة خطوة أخرى تظهر فيها الرضا بشكل ظاهر ؟ فأوهمته جان : أن الملكة تتحين الفرص للقائه ؛ ولم يكن كاليسترو يعلم بالمكيدة التى تدبر لصاحبه الكردينال روهان ، ولكن كان يوهمه أن آماله فى طريق التحقيق .

وتعرف زوج جان فى احدى المتنزهات بامرأة ، تشبه الملكة مارى أنطوانيت فى قوامها وتقاطيع وجهها ، ولم تكن الغيرة من خلق جان ، وكان يكفى أن تكون هذه المرأة صديقة زوجها لترحب بها جان فى منزلها وتقبل عليها ، ونشأت بينهما ألفة ومودة ، وخطر بفكر جان أن تستفيد من مشابهة صديقتها للملكة مارى انطوانيت ، فعرضت عليها أنها ستصحبها الى حدائق ڤرساى ، وأن عليها أن تقف الى جانب أحد الأكشاك منفردة ، حتى يحضر رجل ويجثو أمامها ، ويقبل حاشية ثوبها ، وذهبت بعد ذلك الى الكردينال دى روهان متهللة الوجه بادية السرور ، وأفضت اليه ببشرى استعداد الملكة للقائه فى حديقة قصرها بڤرساى بعد منتصف الليل ، وفى الليلة الموعودة أرسلت شبيهة الملكة مع زوجها ، وتم اللقاء حسب الخطة المرسومة ، وجثا الكردينال دى روهان على ركبتيه أمامها ، وقبل يدها وعاد فرحا مسرورا ، وهو يعتقد أن آماله

قد أصبحت قريبة المنال . واتفق فى هذه الفترة : أن علمت جان بخبر العقد الماسى النفيس ، الذى كان قد أعده الجوهرى بهمر لمدام دى باري ، حظية الملك لويس الخامس عشر ، ولكن لويس توفى ، فحاول عرضه على الملكة مارى أنطوانيت ، وكان ثمة ١ر٦٠٠ر٠٠٠ ليرة (وهو يعادل ٦٤ر٠٠٠ من الجنيهات الانجليزية) ، واضطرت الملكة الى أن ترفض شراءه لارتفاع ثمنه ، ولأن حالة فرنسا المالية لم تكن حينذاك على ما يرام ، وكان الافلاس يدق الأبواب ، وكان على الملوك أن يفكروا فى أشياء أخرى غير شراء عقود الجواهر وغوالى اللآلىء .

وكبر على بهمر الأمر ، وضاقت به الحيل ، فذهب فى ذات يوم الى القصر ، وتقدم من الملكة ، وجثا عند قدميها ، وتوسل اليها أن تجيبه الى أحد شيئين : وهما — اما أن تشترى العقد ، واما أن تأذن له فى أن يلقى بنفسه فى نهر السين ، فرقت له الملكة واقترحت عليه أن يجزىء العقد ، وأضافت الى ذلك : أنه اذا أراد أن يغرق نفسه ففى استطاعته أن يفعل ذلك دون الحصول على ترخيص منها ، والذى يسترعى النظر فى هذه القصة : أن بها رجلين قد استأثرت بكل منهما فكرة خاصة ، واستغرقت حواسه ، وملكت عليه سبله ، وهما : لويس روهان وبهمر تاجر الجواهر ، وقد علمت جان بما دار بين الملكة وبين بهمر من الحديث ، لأن مثل هذه الأشياء سرعان ما تذاع فى المجالس ، وتتداولها الألسن ، فيسر لها ذلك اغتنام الفرصة والاستفادة من الموقف .

وذهبت جان الى الكردينال دى روهان وأخبرته أن الملكة ترغب فى شراء العقد الماسى ، ولكنها تريد وساطته عند الجوهرى ليقبل تجزئة الثمن على أربعة أقساط ، فسر الكردينال بذلك العرض أعظم سرور ، لأنه دليل على ثقة الملكة به ، وايثارها اياه ، وليس عليه فى ظاهر الأمر أى غرم ، فوافق على القيام بتلك المهمة . وتوسط عند الجوهرى ، وأعد الكردينال الشروط ، وصار مسئولا عن قيام الملكة بدفع الثمن ، وأحضرت جان وثيقة عليها توقيع الملكة ، وحمل روهان العقد الى جان ، رسولة الملكة المزعومة ؛ ولم يشك روهان ولا بهمر فى حقيقة توقيع الملكة على العقد ، وكان هكذا « مارى أنطوانيت فرنسا » ، وقد استرعى كاليسترو نظر روهان — بعد فوات الأوان — الى أن الملكة لا يمكن أن تستعمل هذا التوقيع ! وكان الذى يعين جان على تزوير الرسائل والتوقيعات أحد عشاقها البارعين فى التزييف ، ويدعى ڤيلت ، وكان أحد الذين اشتركوا فى تمثيل رواية اللقاء فى ڤرساى .

وعجب روهان ، لأنه لم ير الملكة بعد ذلك وهى مزدانة الجيد بالعقد الماسى ، واستفسر جان عن حقيقة الأمر ، فاتحفته بأكذوبة جديدة من أكاذيبها ، وأخبرته أن الملكة تنوى ألا تفاجىء به زوجها الا بعد أن تدفع الجانب الأكبر من ثمنه ، وكان العقد فى أثناء ذلك قد قطع الى أجزاء فى منزل جان ، وعبر به زوجها القنال الى انجلترا ، وباع الكثير من أحجاره هناك ، وحل ميعاد دفع القسط الأول فلم يدفع شىء ، ونقلت جان الى بهمر أن وثقة

الملكة التى قدمتها الى الكردينال مزورة ، وكانت جان ترمى بذلك الى ارغام الكردينال على أن يدفع الثمن ليدرأ الفضيحة عن الملكة ، ويضحى بماله من أجلها ، فلم يجد الجوهرى على ابلاغ الأمر الى الكردينال ، وعلم الكردينال أنه قد خدع ، واستشار صاحبه كاليسترو ، فأكد له أن الوثيقة مزورة ، وأن خيرا له أن يذهب الى الملكة ويرتمى عند قدميها ويعترف بكل شىء . وتقدم الجوهرى بشكواه الى الملك ، وعلمت الملكة ماريا أنطوانيت بتفصيلات المسألة ، وفى يوم ١٥ أغسطس سنة ١٧٨٥ رأى الملك الكردينال روهان بمناسبة الاحتفال بذكرى صعود العذراء الى السماء ، فقال له : « يا ابن العم ، ما قصة هذا العقد الماسى الذى اشتريته باسم الملكة ؟ » .

فتعثر الرجل المنكود الحظ وعجز عن الكلام ، وسمح له بأن يكتب قصته فى خمسة عشر سطرا . وقالت له الملكة — وقد بدا فى عينيها الغضب الشديد — : « كيف صدقت أننى أعهد اليك فى هذه المهمة وأنا لم أوجه اليك كلمة خلال ثمانية أعوام ؟ » .

ووعد بأن يدفع ثمن العقد ، وكان يمكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ويسدل عليه الستار ، وقد وجه اللوم الى الملك ، لأنه أمر بالقبض على روهان علانية ، وهو فى ثيابه الكهنوتية فى قصر ڤرساى ، وعد من أخطائه الكبيرة احالته الأمر الى المحكمة والبرلمان ، وقد أرادت الملكة أن تقول العدالة كلمتها صونا لشرفها ، وحرصا على نقاء سمعتها ، وكانت قضية مدوية اهتزت

لها أرجاء فرنسا ، وذاعت أخبارها فى أنحاء العالم ، وبرأ القضاء الكردينال روهان من تهمة سرقة العقد ، وقضى على جان دى ڤالوا بالجلد والسجن .

وبرغم حكم القضاء ببراءة الملكة مارى أنطوانيت كانت هذه القضية من القضايا التى أساءت الى سمعة الملكية أبلغ اساءة ، وجرت عليها الرزايا والكوارث ، ولقد قال نابليون : « ان الملكة كانت بريئة ، ولكى تعلن عن براءتها وتذيعها أرادت الاحتكام الى البرلمان ، وكان نتيجة ذلك أنها اعتبرت مجرمة » ، وأكثر المؤرخين مجمعون على تبرئة الملكة ، وفى طليعتهم كارلايل واندرولانج والكاتب الفرنسى فنك برنتانو .

وقد ظهر فى سنة ١٩٣٩ كتاب جديد فى هذا الموضوع بقلم مؤرخ بحاثة اسمه كاميير ، روى القصة كما ظهرت فى ساحة المحكمة ، وأقام الرواية بعد ذلك على أسس النتائج التى استخلصها ، وهو يرى : أن الملكة كانت مسرفة كثيرة البدوات ، متبرمة غير قانعة ، لم تجد فى زوجها ولا فى أولادها ولا فى البلاط ما يرضيها ، ويستريح اليه قلبها ، وفى سنة ١٧٨٣ عاد الكونت اكسل فرسن من أمريكا ، وكانت أحبته منذ كانت فتاة ناشئة ، فجددا العلاقة السالفة ، وكانت الملكة قد جن جنونها بالجواهر الماسية ، وكان يروق الكونت فرسن أن يراها حالية الجيد بالدر والماس ، وفى الصيف أقامت حفلة فى تريانونه فى الظاهر ، تكريما لملك السويد ، وكان اكسل فرسن هو المقصود بالحفاوة ، وازدان

جيدها بجواهر ماسية شتى ، وكان يحثوها على الاستكثار من الجواهر حرصها على ارضاء عشيقها الكونت فرسن ، وكان بهم قد عرض عليها مرات شراء العقد الماسى ، واضطرت الى رفض الشراء ، وبدا لها أن تشتريه ، وترجىء دفع الثمن ، وتلبسه سرا للكونت فرسن وحده ، وحينما تمله وتقضى حاجتها منه تقسمه الى أجزاء ، وتستبقى أحسن أحجاره ، وتبيع الباقى ، ولم تكن تستطيع بحكم مركزها مباشرة ذلك بنفسها ، فاتخذت مدام دى لاموت وسيلة الى ذلك ، وكانت مقربة منها ، أمينة على بعض أسرارها الخفية ، وقام الكردينال روهان بعقد الصفقة ترضيا للملكة ، التى كانت معرضة عنه ناقمة عليه ، وحل ميعاد القسط الأول وكانت الملكة خالية الوفاض ، قد تجاوزت أثمان ملابسها المستحضرة المبالغ المقدرة لها ، فماذا تضع اذاً ؟ لقد انتهت مهمة العقد فلتجزئه اذاً ، ولتحول بعض تلك الأجزاء الى نقود ، ويعتقد كامبير : أن الملكة وجان قد اشتركتا فى تجزئة العقد ، وخرجت جان من القصر وجيوبها ملأى بأجزاء العقد ، وباعت جزءا منها ، وأحضرت ثمنه لسيدتها ، ورحل زوجها الى انجلترا حاملا خير أجزاء العقد ، وثار ثائر الملكة ، وراوغت جان فى بادىء الأمر ، ثم تحدث الملكة بعد ذلك ، وحقيقة انها كانت لصة مجرمة ، ولكن — ألم تكن الملكة شريكة لها ضالعة معها ؟ وعجزت الملكة عن الدفع ، وغص الجو بالاشاعات والأقاويل ، وتقدم البارون دى بريتيل وزير البلاط من الملكة ، وكان خصم روهان اللدود ، ورسم لها الخطة

التى تتبعهـــا ، وهى تقوم على : انكار عنصها بجريمة الكردينال دى روهان ، والقانون قمين بعـــد ذلك بادانته ، ووجدت الملكة — التى خدعتها جان دى لاموت واعتقدت أنها ضحية — أن ذلك هو خير سبيل للخروج من المأزق ، واستعمل البلاط الأكاذيب والدسائس ، وطرق الارهاب والتزوير وتزييف الشهود لمناصرة الملكة ، وكان الرأى العام يعطف على روهان ، فاكتفى البلاط بادانة جان دى لاموت ، وقد نجت الملكة من المحاكمة ، ولكن صنيعها هـــذا كان مما عجل بوقوع الثورة الهـــادمة التى طاحت برأسها ، وهذا هو التفسير الجديد للغز العقد الماسى ، وأوضح مزاياه : أنه لا يجعلنا ندهش من غفلة روهان وغبائه ، ولا من طيش الملكة وحماقتها ، وكان هذا هو الرأى الذى استبق الى عقل الشعب الفرنسى ، فى عصر لويس السادس عشر .

انتقام الملكة كريستينا

يعرف قراء تاريخ تلك الحرب الطويلة المدمرة — التى نشبت فى أوربا وسميت حرب الثلاثين السنة — اسم جوستافس أدولفاس القائد العظيم ، وملك السويد الصالح النبيل ، الذى أخلص لعقيدته ورفع شأن بلاده ووطد مكانتها ، وأحبه قومه وفتن به جنده ، وقد هبط هذا القائد الهمام الذى كان يلقب « بطل الشمال » الأراضى الألمانية بجيش قليل العدد ، ولكنه حسن النظام كامل الدربة وافر العتاد ، واستطاع بجرأته واقدامه وبراعته الحربية أن يوالى غزواته المظفرة وتقدمه الباهر ، حتى أرهب ذلك قلب امبراطور ألمانيا فرديناند الثانى ، واضطره الى الاستنجاد بقائده القدير ولنستاين ، وكان قد غضب عليه وعزله ، والتحم جيشا القائدين العظيمين فى معركة لوتزن الدامية بمقاطعة سكسونيا ، وظن ولنستاين أنه كسب المعركة حينما سقط جوستافس أدولفاس من فوق ظهر جواده مصابا برصاصة مسدس فى رأسه ، ولكن السويديين غضبوا لمصرع ملكهم المحبوب ، فحملوا على أعدائهم حملة صادقة ، وردوهم على أعقابهم ، واضطر ولنستاين الى التراجع والانسحاب تحت أستار الظلام .

والذين تابعوا أخبار هذا البطل النجد يعلمون أنه لم يترك وراءه من الأولاد سوى طفلة ناشئة ، اسمها كريستينا ، كان لمولدها قصـــة لا تخلو من العبرة ، فقد كانت الطفلة حين مولدها كثيفة الشعر جهيرة الصوت ، حتى أخطأ النساء اللواتى حضرن قدومها الى الدنيا وحسبنها طفلا ، وأسرعن فى نقل الخبر السعيد الى الوالد الذى كان فى انتظار الحادث ، ولما تبين لهن خطأهن حرن كيف يبلغنه جليـــة الأمر ، واستعن بأختـــه الأميرة كاترين على الخروج من الورطة ، وتلطفت الأميرة فى مكاشفة أخيها بحقيقة المسألة ، ولما علم الملك الرضىّ الأخلاق بحقيقة النبأ لم تفارقه رزانته وحلمه ، ولم يتغير وجهه ، وقال لأخته « لنشكر الله يا أختى ، وآمل أن أجد فى هذه الطفلة عوضا عن الولد ، وأرجو الله الذى تفضل علينا بها أن يرعاها ويحفظها » وبارك الطفلة ، وأظهر من البشر والايناس ما أدهش حاشيته ، وقد كانت أخلاق هذه الطفلة ، التى خيبت آمال أبيها حين مولدها ، والتى خيبت آمال أمتها حينما كبرت واشتد ساعدها — عجيبة شاذة ، وقد أصبحت أخبار مغامراتها وغرائب سلوكها وتصرفاتها موضـــع دهشة العالم ، ومن عجائب حوادث التاريخ .

وحينما تنزع احدى الملكات التاج عن رأسها ، وتتنازل عن السلطان،وتظل تجوب أنحاء أوربا فى أزياء مختلفة،وتترك فى كل مكان تحل به دويا لا شك أنها تصبح شخصية تسترعى الانتباه ، وتثير حب الاســـتطلاع ، ويعنى النـــاس بمحاولة الوقوف على

أخبارها ، واستجلاء أسرارها أكثر من عنايتهم بالملكات اللواتى يثبتن على العرش ، ويستمسكن بأبهة الملك ، ويحرصن على عزة السلطان ، وما يصحبها من الحقوق المدنية والمزايا الدنيوية :

وقد صارت كريستينا فى السادسة من عمرها ملكة السويد ، وكان الموصى على العرش المستشار السياسى أوكسنستيرنا ، وقد حكم هذا الرجل القوى الأمين باسمها حتى بلغت أشدها واحتفل بتتويجها ، وبعد تتويجها بأربع سنوات تنازلت عن حقوقها فى الملك لابن عمها شارل جوستافس ، وهكذا وهى فى قمة المجد ونضارة الشباب وسطوة الملك أعرضت عن أبهة الحكم وسئمت تكاليفه وواجباته وقيوده وتبعاته ، وأخذت تتجول فى مناكب أوربا وتلقى مختلف الرجال ، وترى متباين العادات والأحوال ، وتجمع أشتات المعارف والمعلومات ، وتناقش المفكرين والفلاسفة ، وتحاول أن تختبر علمهم وتعرف ما عندهم ، وكان غريبا أمر هذه الملكة الشاذة ، التى تؤثر متابعة تحصيل العلم ، ومداومة الدرس ، وجمع الكتب والمخطوطات على الاشراف على مصائر الدولة ، وتعريف شئون الأمة ! :

وكانت الملكة كريستينا متوقدة الذكاء ، نفاذة الفطنة ، رابطة الجأش ، مزودة بجميع المؤهلات التى تجعل منها ملكة عظيمة ، ولكنها كانت شديدة الكبرياء والعناد ، لا تطيق أن يسيطر عليها أحد ولا أن يستذلها انسان ، وقد ورثت عن أبيها قوة حواسه ، ولكنها لم ترث منه قدرته على امتلاك زمام نفسه وكبح جماحها ،

وكان شعبها معنيا بوراثة العرش ، حريصا على أن يبقى الملك فى ذرية ملكهم الراحل البطل المحبوب ، ولكن الملكة كريستينا أبت أن تتزوج ، وثارت على فكرة الخضوع لأى ارادة ، وحلت المشكلة بتنازلها عن العرش ، واختيار ابن عمها خلفا لها ، وكانت الأمة السويدية حريصة على بقائها ، آسفة على تخليها عن الملك ، ولكنها مع ذلك خلعت نفسها من الحكم غير آسفة ولا نادمة .

وكانت فى أيام اعتلائها العرش لا تتحدث الا فى النادر مع سيدات البلاط ، وحتى فى المناسبات الرسمية كانت أكثر ميلا الى محادثة الرجال منها الى التحدث مع النساء ، وكانت تخصص الساعات التى تستخلصها من أوقات العمل للدراسة والاطلاع ، ولم تكن تعنى كثيرا بزينتها ، وكان الوقت الذى تقضيه فى اصلاح شأنها لا يتجاوز ثلث الساعة ، وقد استطاعت أن تجيد اللغة الألمانية ، وتعلمت الفرنسية والايطالية والاسبانية ، وكان لها رأى فى المرأة ، قد يعجب الانسان لصدوره من امرأة جلست على العرش ، فمن أقوالها فى مذكراتها « أرى أن المرأة يجب ألا تتولى الحكم » وكانت تأخذ على والدتها نزوعها الى حب السيطرة ، والنساء فى رأيها ولدن للحب ، وحتى الحاكمات العظيمات منهن مثل سميراميس واليزابث وكاترين دى مدتشى كن قبل كل شىء نساء محبات ، وقد أتعبهن الحب فى أثناء جلوسهن على العرش ، ولم تذكر لنا رأيها فى نفسها ، وهل كانت هى خارجة على القاعدة التى قررتها ؟ ربما كانت تردد مثل هذه الآراء تمهيدا لطلب اعتزال الحكم .

وقد كثر الحديث فى شأنها بعد تخليها عن الملك ، وجالت فيها الأقوال واختلفت الآراء ، وتاقت الناس انى معرفة الحقائق واجتلاء الغوامض واستطلاع الأسرار الكامنة خلف الحوادث الظاهرة ، ويقول ألفريد نيومان — وهو أحد الذين تخصصوا فى دراسة حياتها واستقصاء أخبارها — « ان موقفها الغريب من الرجال كان سببه غرائز عميقة غير سليمة ، ومسألة تكوينها الجنسى من المشكلات التى لا يمكن حلها حلا نهائيا » ومن الحقائق المعروفة : أن كراهيتها للعلاقة الطبيعية بين الرجل والمرأة كانت تزداد وضوحا كلما تقدمت بها السن ، وآراؤها فى هذا الموضوع تكشف عن هذا ، ومن يدرى !! فربما لو كان فن الطب والجراحة قد بلغ فى عهدها من التقدم ما بلغه فى عهدنا الحاضر لاستطاع أن يحول الملكة كريستينا انى الملك كريستين ويحقق الأمنية التى كان يتطلع اليها والدها ..

ومن عجائب أمر هذه الملكة التى تخرجت على الفيلسوف ديكارت ، والمفكر هيجو جروتياس ، وغيرهما من أفذاذ العلماء والأدباء ، والتى كانت تركب الخيل وتذهب للصيد — أنها حينما قصدت روما أعرضت عن المذهب البروتستانتى ، الذى جاهد أبوها فى سبيل نصرته ، وقضى نحبه مدافعا عنه ، وآمنت بالمذهب الكاثوليكى ، وأطلقت لنفسها العنان ، وأصبح من غير الميسور أن ترسم صورتها جميعها بالألوان اللامعة الزاهية ، وكما كانت ممتازة فى ملكاتها ومواهبها صار الناقدون والعائبون يجدون فى حوادث حياتها وأخبار مغامراتها ما يدعو الى اللوم والتفنيد ،

وقد كان فى هـذه الملكة العجيبة الأطـوار الشاذة السلوك عيوب ونقائص ، وحوادث حياتها العاصفة كثيرة متعددة الفصول ، ومن بين هذه الحوادث الغريبة : الحادثة التى سأرويها على لسان أحـد شهودها ، وهى تلقى ضوءاً على أخلاقها وعادات عصرها وأحواله وآدابه ..

ومسرح هـذه الحادثة باريس ، فى أواخر سـنة ١٦٥٧ ، والأشخاص هم : الملكة الجوابة كريستينا ، وكبير الياوران فى بلاطها المركيز مونالدسكو ، والأب ليبل راعى صومعة فونتنبلو ، وهو الشاهد الذى سيروى لنا الحادثة ..

وقد كان المركيز مونالدسكو رجلا وسيما عارفا بآداب المجتمع ناعم الملمس ، رقيق الحاشية ، لبقا فى تصرفاته ، يحسن فن معاشرة النساء واجتذاب قلوبهن ، وبهذه المؤهلات السطحية وجد طريقة الى قلب الملكة كريستينا ، وفى القائمة التى اشتملت على أسماء الذين ظفروا بالحظوة عندها ونعموا برضاها لم يكن بها أحد أطول عهـدا بها منـه ، ولا أثبت فى قلبها مكانة ، وكانت الملكة مخلصة فى حبهـا له وايثارها اياه ، ولـكن مبعث العلاقة من ناحيته كان الطموح والطمع والجرى وراء المال والمظاهر والنفوذ ، وكان هذا الرجل الايطالى فى صميمه من هؤلاء الرجال المغامرين المنافقين ، الذين لا يتورعون عن الكثير مما يأباه الأحرار ذوو الضمائر الحية فى سبيل مطامعهم وشهواتهم ، وقد عرفته الملكة عند قدومها ايطاليا وكان يعانى ضيقا ماليا ، ولذا عمد الى اجتذاب نظر الملكة واكتساب

ودها ، ومثل دور الولى المخلص لها ، وكان له بطبيعة الحال مناظرون ومنافسون من أمثاله ، الطامعين فى الجاه والمال والاحتيال على أسباب المعيشة ، ولكنه لما برز وظهر وأصبح حظى الملكة فى البلاط وعيبة سرها وموضع ثقتها ، وجنى ثمرات هذا القرب ، وأفاد من تلك الصفقة شرع يضايق الملكة ، ويحول التفاته ورعايته وتوده وتقربه الى سيدة رومانية ، اجتذبه حسنها واستهواه شبابها ، وحاول أن يستنزل رضاها ، ويملك لبها بطرائق شتى ، وهداه تفكيره الى أن السبيل المضمون لغزو قلبها هو : أن يرضى حب استطلاعها الخبيث ، ورغبتها فى الوقوف على أسرار حياة الملكة كريستينا الخاصة وعيوبها الخفية المستورة ، ولم يكن الرجل — على ما وصل اليه من الجاه والمكانة — من نبعة كريمة أو من ذوى الخلق المتين ، وكان — كما قدمت — لا تحجزه الحواجز عن نيل بغيته بأية وسيلة يراها كفيلة بذلك ، فأخذ يفشى أسرار الملكة ويخون عهدها ، ويستغل مكانته فى نفسها وثقتها به ليغدر بذلك كله ، وأعطى السيدة الرومانية الرسائل التى كانت تبعث بها اليه الملكة وتضمنها أسرارها ، التى كانت تحسبه جديرا بأن يؤتمن عليها ؛ ولم يكتف بذلك ويقنع به ، فأخذ يرسل الى السيدة الرومانية رسائل يسخر فيها من الملكة وحبها له وعطفها عليه ، ويحصى عيوبها ونقائصها بطريقة مزرية ، واستهزاء بالغ ، وقحة شديدة ، وفى الوقت الذى كان يخون فيه الملكة هذه الخيانة ويطعنها هذه الطعنات كان يتظاهر لها بالولاء الخالص

والوفاء المحض والتقدير والاحترام ، ونجح فى هذا النفاق والرياء والغش والخداع ، ولكن هذا النجاح لم يدم طويلا ، وشف ثوب الرياء عما تحته وكشف الغطاء ، وكان الذى فضح السر وكشف الحقيقة أحد الكرادلة الذين كانوا ينفسون على مونالدسكو مكانته ويحاولون اقتلاعه وازالته ، وقد سعى سعيه وبذل جهده ليحصل على الرسائل التى كتبها مونالدسكو الى محبوبته وسخر فيها بالملكة وأذاع أسرارها ، وجمع تلك الرسائل وقابل الملكة كريستينا وقدمها لها ، ليقيم الدليل القاطع على خيانته وسوء دخيلته .

ويبدأ هنا الموقف الحاسم فى القصة التى رواها الأب ليبل ، وقد حضر هذا الرجل انتقام الملكة الرهيب من مونالدسكو ، واطلع على صور الرسائل التى بعث بها الى السيدة الرومانية ، وقد احتفظ الأب بالسر الذى أؤتمن عليه فلم يذكر شيئا عما تضمنته هذه الرسائل فى خلال حديثه ، وهذه رواية الأب ليبل : —

فى اليوم السادس من شهر نوفمبر سنة ١٦٥٧ ميلادية فى الساعة التاسعة والثلث صباحا أرسلت الملكة كريستينا — التى كانت تقيم حينذاك فى قصر فونتنبلو — أحد خدمها الى صومعتى تطلب منى مقابلتها ، وعلمت من الخادم أنها تنتظرنى فى التو واللحظة ، وخشية أن أطيل انتظارها بادرت فى الحال الى الذهاب مع الخادم الى القصر ، وبعد انتظار قليل فى الردهة مثلت بين يدى الملكة ، وكانت منفردة ، وتبينت من ملامح وجهها أنها فى هم شاغل ،

وقد ترددت الملكة لحظة ثم أمرتنى أن أتبعها الى مكان تستطيع فيه أن تتحدث معى دون أن يسمع أحد حديثها ، وقالت لى : انك ترتدى ثوبا يشجع على الثقة بك والاطمئنان اليك ؛ وطلبت منى أن أعدها بكتمان السر الذى ستفضى به الىَّ ، فأجبتها قائلا : « ان مهنتى المقدسة تفرض علىَّ المحافظة على الأسرار ، وأنى لم يسبق لى أن أفشيت سر أحد ، وأنى جدير بأن تشرفنى بثقتها » فناولتنى مجموعة من الرسائل ، وأمرتنى بأن أحفظها فى مكان أمين ، وأن أكون مستعدا لردها اليها ، ازاء الشخص الذى ترى من المناسب أن تطلب منى ردها فى حضوره ، وأذنت لى بالانصراف ، فتركتها منفردة فى الشرفة ، وهى مشغولة الفكر كدرة الفؤاد .

وفى يوم السبت العاشر من شهر نوفمبر ، فى الساعة الواحدة بعد الظهر استدعيت الى فونتنبلو ثانية ، فحملت معى مجموعة الرسائل ، فقد قدرت أنها قد تطلب منى ، وتبعت الخادم ؛ واتجه بى الخادم هذه المرة الى شرفة القصر ، ولما دخلت الشرفة أقفل خلفى الباب فى سرعة وعنف زائدين ، حتى أخافنى ذلك ، فلما ثابت الىَّ نفسى ، رأيت جلالتها واقفة فى وسط الشرفة ، تتحدث الى أحد رجال الحاشية ، وكان يلقب بالمركيز ، وقد أدركت : أنه المركيز مونالدسكو كبير الياوران ، فدنوت منها وانحنيت لها ووقفت أمامها منتظرا أمرها ، فسألتنى — بصوت مرتفع واضح ، وهى عابسة أمام المركيز وأمام ثلاثة رجال آخرين رأيتهم فى الشرفة — عن مجموعة الرسائل ،

ولمـا وجهت الى هذا السؤال تراجع الرجال الثلاثة الى الوراء ، فأعطيتها مجموعة الرسائل ، فنظرت اليها لحظات وهى مستغرقة فى التفكير ، ثم استخرجت منها الرسائل والأوراق المكتوبة ، وناولتها للمركيز مونالدسكو ، وأصرت على أن يقرأها ، ولما أطاع الأمر سألته — وهى تنظر اليه نظرة صارمة : هل له سبق معرفة بهذه الرسائل ؟ فاصفر وجهه وقال : انه يقرأ هـذه الأوراق للمرة الأولى ؛ فسألته الملكة قائلة : « أتنكر كل معرفة بها ؟ قل صراحة نعم أو لا ؟ » .

فتغير وجه المركيز ، وقال بصوت ضعيف : « انى أنكر كل معرفة بهذه الرسائل » فاستخرجت الملكة مجموعة أخرى من الرسائل كانت محتفظة بها فى ثيابها ، وألقت بها فجأة فى وجه المركيز قائلة : « أتنكر معرفتك بهذه الرسائل كذلك ؟ » فاستولى عليه الفزع وتخاذل ولم يفه بكلمة ، وقد كانت مجموعة الرسائل التى تسلمتها من الملكة تشمل صور الرسائل الأصلية ، وكانت مجموعة الرسائل الأصلية هى التى قذفت بها الملكة فى وجه مونالدسكو .

وسألته : « أتنكر خطك وتوقيعك ؟ » .

فتمتم ببضـع كلمات ، معترفا بأن الرسـائل بخطه وتوقيعه ومعتذرا عن ذلك ؛ ومحاولا أن يلقى التبعة على كاهل الآخرين ؛ وفى أثناء حديثه أحاط به الرجال الثلاثة ، واستمعت اليه الملكة حتى النهاية وقالت له : « أنت خائن » وأدارت له ظهرها ، وشهر الرجال الثلاثة سيوفهم ..

وسمع المركيز صليل السيوف ، وأدار الطرف فيما حوله ، وأمسك بذراع الملكة ، وأخذ يسايرها ويتابعها من ركن الى ركن فى الشرفة ، وهو يعتذر لها ويتوسل اليها بكلمات مؤثرة ، لتؤمن باخلاصه وصدق توبته وشدة ندمه على خطيئته ، وتركته الملكة يقول ما عنده ، ولم تفارق وجهها النظرة الصارمة ولم يتبدل لونها ، وكان فى قوة التصميم والاعتزام المنبعثة من ناظريها المركزين فى وجه المركيز ما يبعث الفزع ويثير الاضطراب ، وأخيرا انتزعت نفسها من قبضته ؛ دون أن تظهر أى لون من ألوان الغضب ، وحينذاك : أحاط به الرجال الثلاثة وسيوفهم مسلولة ، وساد الصمت ، وخاطبتنى الملكة قائلة :

« أيها الأب ، انى أوصيك بأن تكون شاهدا على أنى عاملت هذا الرجل بغاية النزاهة ، وانى أمنح هذا الخائن الذى لا قيمة له الوقت الكافى ليسوغ عمله اذا ستطاع الى ذلك سبيلا » ، ولما سمع المركيز هذا الكلام أخرج بعض الرسائل التى كانت مخبأة فى ثيابه وأعطاها للملكة ، مع مجموعة من المفاتيح ، وأشارت الملكة الى الحراس الثلاثة فتراجعوا نحو احدى نوافذ الشرفة ، وابتعدت كذلك حتى لا أسمع ما يدور بينهما ، واستمر هذا الاجتماع ساعة من الزمن ، أشارت الملكة فى نهايتها الى الحراس بالعودة الى أماكنهم حوله ، ثم اقتربت منى وقالت بصوتها الواضح المجلجل « لا حاجة بى الى البقاء هنا ، وانى أترك هذا الرجل فى رعايتك ، فافعل

ما تستطيع من أجل روحه ، فقد أخفق فى الدفاع عن نفسه وتبرير عمله ، وقد قضيت بهلاكه » .

وكان لهذه الكلمات وقع بالغ فى نفسى ، ولما سمعها المركيز ارتمى على قدميها وركعت على ركبتى الى جانبه ، ورجوتها العفو عنه ، أو أن تعاقبه بعقوبة أخرى غير الموت ، فوجهت الكلام الىّ وحدى قائلة : « لقد أصدرت حكمى ، وليس فى الأرض قوة تجعلنى أنقضه لقد وثقت بهذا الرجل كما أثق بأخ لى ، وقد خان الأمانة ، ونكث العهد فاستحق القتل ، وأنا أمارس حقوقى الملكية على حياة هذا الخائن ، وأعيد على مسامعك أنه محكوم عليه بالموت » .

وبهذه الكلمات غادرت الشرفة وتركتنى مع المركيز مونالدسكو والحراس الثلاثة ، فجثا الرجل البائس على ركبتيه ، وتوسل الىّ أن أتبع الملكة وأبذل مجهودا آخر للعفو عنه ، وقبل أن أقول كلمة أطبق عليه الحراس وأمروه أن يعترف لى بذنوبه ، فرجوتهم أن يتريثوا ما وسعهم التريث ، ليعطوا الملكة فرصة للتفكير ، فقد تغير رأيها وتتردد فى تنفيذ ما قضت به ، ونجحت فى اقناع رئيس الحرس حتى تركنى وذهب لمقابلة الملكة للتأكد من ثباتها على رأيها ، وعاد بعد غياب قصير وقال لمونالدسكو « استعد للقاء الموت » فتوسل الىّ الرجل لأقوم بمحاولة أخيرة لانقاذ حياته ، فقلت لكبير الحراس « أتنتظرون حتى أعود ؟ » فخفضوا سيوفهم المنشورة وقالوا : « ننتظر » ، ووجدت الملكة فى حجرتها لا يبدو

على وجهها أى أثر للانفعال والتأثر فرجوتها وتوسلت اليها ، وتحدثت عن الرحمة والعفو وغفران الذنوب وأفضت فى الحديث وهى تسمع غير متأثرة ، واجترأت على أن أبصرها بأنها ليست فى السويد ، وانما هى ضيفة على ملك فرنسا ، وأنها تقيم فى أحد قصوره ، فقالت لى فى برود « انه يكفى اقتناعها بأن جريمة مونالدسكو من الجرائم التى لا تغتفر لتحكم عليه بالموت ، وأن ملك فرنسا لا سيطرة له عليها ، وأنها حرة فى أن تصنع ما تشاء فى أى زمان وفى أى مكان » ، ولم يثن ذلك من عزمى ، وظللت أرجو وأتوسل وأستشفع حتى أمرتنى فى النهاية بمغادرة حجرتها ، ولما عدت الى الشرفة سألنى الحراس : « أيعيش أم يموت ؟ » ولم تكن هناك حاجة الى الكلمات ، فقد كان فى ملامح وجهى ما يكفى للاجابة ، وأنّ المركيز أنينا مؤلما ، وتأوه تأوها موجعا ، ولكنه لم يقل شيئا ، وجلست على كرسى بدون مسند للظهر ، وأشرت اليه بالاقتراب منى وقد استولى علىّ الهم والحزن ، ورجوته أن يفكر فى الندم والتوبة ويستعد للعالم الآخر ، فجثا عند قدمى وبدأ اعترافه ورأسه على ركبتى ، وبعد أن استرسل فيه هنيهة جفل وتملكه الرعب وأرسل صيحة فزع ، فحاولت تهدئته وتوجيه تفكيره الى الأشياء السماوية ، فأتم اعترافه ، وكان يتكلم مرة بالفرنسية وأخرى بالايطالية ، حسبما استطاع أن يعبر عن نفسه ، وهو فى تلك الحالة التعسة التى كان يعانيها ويتجرع مرارتها ، ولما أتم اعترافه دخل الشرفة قسيس الملكة الخاص ، فتركنى دون

أن يتلقى الغفران وأسرع الى القسيس وهو ما يزال متعلقا بالحياة تعلق اليائس ، وتحادث الاثنان فى صوت خفيض ، ورجاه أن يتدخل فى أمره لدى الملكة ، ولما انتهى حديثهما غادر القسيس الشرفة وصحب معه رئيس الحراس الثلاثة ، وبعد قليل عاد رئيس الحراس وحده وقال فى ايجاز للمركيز « التمس الغفران واستعد للموت » .

ويسترسل هذا الشاهد الأمين فى وصف مقتل مونالدسكو ويعطينا صوة غاية الوضوح لمصرعه ، وكيف اعتوره الحراس بسيوفهم حتى تفلق رأسه وسال دمه وبرد جسمه وأسلم روحه وأقف من روايته عند هذا الحد .

وقدكان لمصرع مونالدسكوعلى هذه الصورة أثر سيء فى النفوس ، وقد أثار على الملكة غضب أوروبا جميعها ، واعتبر أكبر بقعة سوداء فى حياة الملكة كريستينا ، وقيل : انه مهما كانت الأسباب التى دعتها الى الانتقام فان تصرفها لم يسلم من النقد والمؤاخذة ، وكبر الأمر على الكردينال مازارين الذى كان مهيمنا على شئون فرنسا فى هذه الفترة ، ولكنه لم يستطيع أن يفعل شيئا ، لأن فقهاء القانون فى أوربا أفتوا بأن الملكة لها مطلق السيادة ، بالرغم من تنازلها عن العرش ، وأراد مازارين أن يستر الفضيحة ، فأرسل اليها من يشير عليها بأن تزعم : أن مونالدسكو قتل فى مبارزة فأبت ذلك ؛ وأرسلت الى مازارين رسالة شديدة اللهجة ، تقول ضمنها مشيرة الى جريمتها : « والذى أدهشنى هو أنك أنت وسيدك الملك

قد اجترأتما على أن تبديا عدم موافقتكما على ما صنعت ، فاعلموا جميعا ، خدما وسادة ، صغارا وكبارا أن سرور سيادتى هو الذى اقتضانى أن أفعل ما فعلت ، ولست مدينة لأحد ، ولا أنا مضطرة الى تقديم الحساب عن ذلك لأى انسان ، وعلى الأقل لانسان ضخم مثلك ، ومن الخير لك أن تعرف أن كريستينا لا تعبأ فتيلا ببلاطك ، وأقل من ذلك بك أنت ، وحينما أريد الانتقام لست فى حاجة الى الاستعانة بنفوذك الذى لا يغلب ، وقد اضطرنى الشرف الى أن أفعل ما فعلت وارادتى هى القانون الذى أتبعه ، وعليك أن تعرف كيف تحترمه ، واذا كان ذلك يسرك فانى جد مسرورة ، واذا كان ذلك لا يسرك فانى برغم ذلك سأظل مسرورة ... » وختمت كتابها هذا اللاذع بتهديد مازارين ؛ زاعمة أن لها أعوانا وأصدقاء لا يحجمون عن تنفيذ أية رغبة تخطر لها على بال ..

وبالرغم من عجز مازارين عن أن يمسها بسوء فان هذه الجريمة شوهت سمعتها وهبطت بسكانتها ، فلما مات ابن عمها وحاولت استرداد عرشها كانت هذه الجريمة من أكبر العقبات فى سبيلها وحالت دون عودتها الى اعتلاء العرش ..

نابليون وغزو روسيا

تكاد تتوافى آراء معظم المؤرخين — الذين تناولوا حياة نابليون وأعماله — على أن الغزوة الروسية كانت أشأم الغزوات التى قام بها ، وأنها من أكبر الأخطاء الخطيرة فى تاريخ الحروب ، وسير العظماء والأبطال قاطبة ، وقد يعجب الانسان فى تورط مثل هـذا الرجل الفذ العظيم ، والقائد الحربى القليل النظير فى مثل هذا الخطأ الواضح ، الذى قد يدركه رجال لا يدانونه فى قوة التفكير والواقعيـة وصـحة الحكم على الأشياء ، وقد ظهرت فى سنة ١٩٣٣ المذكرات التى كتبها عن عهد نابليون القائد السياسى كولينكور ، وهى تلقى ضوءا كاشفا على الحملة الروسية ، وتوضح لنـا كيف كان نابليون يصر على القيام بهذه الحملة ، ولا يطيق أن يستمع الى نصيحة من يحذره عاقبتها ، ويبصره ما قد يتبعها من النكبات والفواجع ، وقد نستخلص من بعض ما نقرؤه من هذه المذكرات : أن الرجل كان ضحية لأهوائه العارمة ، وفريسة لنزعة الميل الى الحرب ، وحب العدوان الغالبة على طبعه ، والتى كانت تفسد عليه كل تدبير ، وتقرب فى نظره البعيـد ، وتهون من شأن العقبات والأخطار .

وكولينكور — كاتب هذه المذكرات — رجل جدير بالاعجاب والاحترام ، وقد امتاز بين معاصريه بالشجاعة والاقدام والنبل والصراحة والاخلاص والوفاء ، وكان لا يداهن سيده نابليون ، وبرغم اعجابه به واكباره لعبقريته كان لا يتملقه ولا يترضاه بالباطل ، ولا يغض الطرف عن أخطائه وعيوبه ، ويقدم له نصيحته الخالصة ، ويصارحه برأيه الموفق فى كل موقف من المواقف الحرجة ، وفى كل مشكلة من المشكلات المعقدة ، ولا يبالى أخف عليه ذلك أم ثقل ، وأرضاه وأقنعه أم أغضبه وأثار ثائرته ، وكان نابليون يبرم به ، ويضيق ذرعا باحتمال صراحته ، ويتهمه بأنه لا يضمر له الحب ، ولا ينطوى له على الود ، ولكنه يأبى مع ذلك ابعاده ويحرص على استبقائه الى جانبه ، ويروقه الاستماع الى حديثه ، وان كان فيه ما يزعه ويكف من غرب أطماعه ، وانما كان نابليون يحتمله ويصبر على مرارة صراحته ، لأنه كان يثق ثقة تامة باخلاصه وصدق رجولته ورجاحة تفكيره ، ويعرف أنه أصدق وأوفى وخير له من سائر المتملقين الذين يحيطون به ، ويسمعونه بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، ويترضونه ليظفروا بالمناصب والجاه والقوة والمال ، ولا يبالون بعد ذلك أصلح أمره أم فسد ، وعلا نجمه أم هوى ، واستقر ملكه وثبت أم عدت عليه العوادى وطاحت به الطوائح .

ولا نزاع فى أن ما اشتهر عن كولينكور من متانة الأخلاق ورجاحة الفكر ، والارتفاع فوق المغريات يجعل لمذكراته التاريخية

قيمة كبيرة ، ويعين على استشفاف الكثير من خفايا عصر نابليون وبخاصة حملته الروسية .

وقد انتهت مشاركة كولينكور فى الحياة العامة فى أعقاب معركة واترلو ، ولكنه لم يبدأ جمع مذكراته وتنسيقها الا فى سنة ١٨٢٢ ، وقد انتهى من سرد قصته فى سنة ١٨٢٥ ومات فى سنة ١٨٢٧ فى الثالثة بعد الخمسين من عمره .

وكولينكور : من أسرة من أعرق أسر پيكاردى ، وكان أبوه قائدا ثم صار عضوا فى مجلس النواب ، ونال لقب الكونتية فى عهد الامبراطورية ، وكانت والدته وصيفة الملكة هورتنس ؛ وذلك للصلة القديمة بين أسرة بوهارنيه وأسرة كولينكور .

وقد ولد كولينكور سنة ١٧٧٣ وسار فى آثار أبيه ، والتحق بخدمة الجيش فى الرابعة عشرة من عمره ، وفى سنة ١٨٠١ أوفده القنصل الأول — نابليون — برسالة خاصة يهنىء بها القيصر الاسكندر لترقيه عرش القياصرة ، وعلم فى عودته أنه قد عين ضابط أركان حرب ، وفى سنة ١٨٠٣ أصبح قائد فرقة ، وحدثت مأساة قتل الدوق دانجين ، فألقت ظلالا قاتمة على حياته ، لأنه لم يوفق فى تفنيد خرافة اشتراكه فى تلك الجريمة ، ولما عين فى مفوضية سنت بطرسبرج فى سنة ١٨٠٧ تلقاه المجتمع فى العاصمة الروسية بنفور واضح ، حتى اضطر الى أن يقدم للقيصر الوثائق التى تثبت براءته من الاشتراك فى الجريمة النكراء ، وفحص الاسكندر الوثائق بنفسه واقتنع ببراءته من الاشتراك « فى هذه المسألة الفظيعة » ،

وفى عهد الأمبراطورية رقى كولينكور الى منصب الخيّال الأعظم ، وكان يشرف على ركائب الامبراطور ، وينظم رحلاته وتنقلاته ، ويصحبه فى ذهابه الى الجيش ويحافظ على سلامته ، ولم يكن محبوبا لأنه كان شديد الاحتجاز منقبضا عن الناس ، ولكن كفايته العظيمة كانت موضع اعجاب عارفى قدره ، قال عنه القيصر الاسكندر لمدام چينو : « انه الرجل الذى أقدره أعظم تقدير ، ففى نفسه بطولة واباء ، وانه لرجل أمين » .

وقد كان كولينكور من خاصة الامبراطور وأقرب الناس اليه ، وصحبه فى غزواته الظافرة اللامعة بين سنة ١٨٠٥ ، ١٨٠٧ ، وبعد عودة السلام اختاره وزيرا مفوضا فى سنت بطرسبرج ، وقد تلقاه الاسكندر كما يتلقى الانسان صديقه القديم ، واجتذبته شخصية الاسكندر فصار يثق به ، ويحسن الظن بسلوكه ، فحينما غادر الاسكندر عاصمته الى ارفرت كتب كولينكور الى نابليون من رسالة « ان كلماته وأعماله تؤكد لى أن جلالتكم تستطيعون الاعتماد على هذا البلاط مهما كان سير الحوادث » .

وحضر كولينكور مؤتمر ارفرت ، وبالرغم من أنه لم يشترك فيه اشتراكا عمليا فقد عبر عن أفكاره بصراحة للامبراطور ، وكان عمله فى السلك السياسى قد أكسبه خبرة ، ومكنه من أن يجس نبض أوربا ، وأفضى الى الامبراطور بمخاوفه ، وصارحه بأن ترك حامية فرنسية فى ألمانيا أثار المخاوف ، وابتعث أظانين السوء ، وجعل كل انسان يعتقد أن هناك خطرا يتهدده ، فقال له نابليون « ما هى

الأغراض التى يعتقد الناس أننى أرمى الى تحقيقها ؟ » .

كولينكور : الانفراد بالسيطرة .

نابليون : ولكن فرنسا قد بلغت ما يكفيها من العظمة ، وماذا أستطيع أن أطلب بعد ذلك ؟ أما تكفينى مشكلة اسبانيا ومحاربة بريطانيا ؟ .

كولينكور : لا نزاع فى أن هناك من المشكلات أكثر مما يطيقه أحد غير جلالتكم ، ولكن وجود جيوشكم فى ألمانيا وتصميمها على المحافظة على مراكزها ، الى جانب نهر الأودر يحملان على الاعتقاد بأن جلالتكم لكم غايات أخرى ، وأن طموحكم لم يقنع بعد ، وانى أصارح جلالتكم بأنى واثق الثقة كلها من ذلك » .

وقال له الأمبراطور وهو يضحك من هذه المخاوف : « وكيف أزيل هـذه الظنون ؟ » فأجابه السـفير : « يلزم أن تسترد ألمانيا استقلالها ، فاسحب جيوشك من ألمانيا يا مولاى ، وبذلك يستقر السلام » ولكن الامبراطور رفض هذه النصيحة وقال له : « انها سياسـة ضعف ، وهى تفقـده ثمرات تضحياته لاسقاط بريطانيا التى استلزمت اغلاق ثغور القارة فى وجه التجارة البريطانية ، فأجابه كولينكور : « ان تقييده حرية التجارة يمكن أن يتم بغير الاستعانة بالجيوش » وضايق ذلك نابليون فقال له : « انك لا تفهم سير الأمور » وبعد ساعات من هذا الحديث أرسل نابليون ديروك ليعرض على ناقده الجرىء وزارة الخارجية ، فرفض كولينكور

هـذا العرض ، ولكن الامبراطور استمر يدافع عن سياسته ، وقال له : « ان امبراطورك الاسكندر عنيد كالبغل ، وهو يتعمد ألا يسمع الأشياء التى لا يريد أن يفهمها ، ولقد كلفتنى كثيرا مشكلات اسبانيا الكريهة » ورغم استيائه فقد أوصى كولينكور وتاليران بجس نبض القيصر من ناحية امكان الطلاق والزواج ، وأجاب الاسكندر اجابة ودية ، ولكنها لا تدل على أنه سيقوم بأى عمل ، وبالرغم من أن المؤتمر كان يبدو ناجحا موفقا ، فان هاوية الخلاف بين الامبراطورين صارت بعده أكثر اتساعا وعمقا مما كانت قبل عقده .

ولم تكن سنوات كولينكور الأخيرة فى روسيا سعيدة ، فقد أخذت السحب السود تتجمع فى الجو ، وظل الاسكندر يحسن معاملته ، ولكنه أصبح يحتاط ويتحفظ فى حديثه معه ، وطلب كولينكور نقله من روسيا ؛ لأنه كان يشقى بجوها ، وصمم على الاستقالة اذا أهمل طلبه ، وأقر الامبراطور نقله فى ربيع سنة ١٨١١ وتلقاه بفنتور عند حضوره الى سنت كلو ، ودار بينهما حديث طويل استمر خمس ساعات ، قال فيه الامبراطور عن الاسكندر : « انه خيدع موالس » ، ودافع عنه كولينكور ، وأكد له صحة التقريرات التى كان يرسلها من العاصمة الروسية ، وأثر ذلك فى الامبراطور ، فاستمر يذرع الحجرة جيئة وذهابا قرابة ثلث ساعة وقد التزم الصمت ، ثم خرج من صمته قائلا :

— اذن تعتقد أن روسيا لا تريد الحرب ، وأنها تظل

فى محالفتها لنا ، وتؤيد الحصار القارى اذا أرضيتها فى مسألة بولنـــدة ؟ .

كولينكور : ليست المسألة الآن مقصورة على مسألة بولندة ، ولكنى واثق الثقة كلها من أن الروسيين سيرضيهم ويقنعهم سحب الجزء الأكبر من القوات المرابطـة فى دانزيج وبروسـيا ، وهم يعدونها موجهة ضد روسيا .

نابليون : اذن الروس خائفون ؟ .

كولينكور : كلا يا مولاى ، ولكنهم قوم عقلاء ، ولذا يفضلون الحرب المكشوفة على السلام الكاذب .

نابليون : يريدون أن يملوا علىّ ؟ .

كالينكور : لا يا مولاى .

نابليون : ولكن طلب اخلاء دانزيج تحكم واملاء .

كولينكور : الامبراطور الاسكندر يتجنب التهديد ، ولكنه يشعر بأن وجود جنود جلالتكم على الحدود الروسية لم يحدث ليقوى من أواصر التحالف ، ولقد أدركت ما يشغل باله ويثير همه ، ولذا استطعت أن أفضى الى جلالتـكم بما يطمئن خاطره ويزيل قلقـــه » .

نابليون : الروسيون يريدون ارغامى على اخـــلاء دانزيج ، ولست لويس الخامس عشر ، والأمة الفرنسية لن تقبل مثل هذا الاذلال ، أنت تريد اذلالى ؟ .

كولينكور : لا أريد اذلال جلالتكم ولا اذلال فرنسا ، وانما

طلب منى أن أبين كيف أحافظ على التحالف ، وأنا أفعل ما طلب منى .

نابليون : أتنصح بقبول هذا الاذلال ؟ .

كولينكور : أريد أن أحافظ على الموقف بعد ارفرت ، وليس فى هذا اذلال ، ولكن اذا كنتم جلالتكم تفكرون فى ارجاع بولندة — وهو ما يخالف التحالف — فان ملاحظاتى ليس لها لزوم .

نابليون : لقد قلت لك اننى لا أريد أرجاع بولندة .

كولينكور : لست أفهم ما الذى يجعل جلالتكم تضحون بالتحالف ؟ .

نابليون : ان روسيا هى التى نقضته ؛ لأنها تكره الحصار القارى ، أنت تحب الاسكندر ؟ .

كولينكور : كلا يا مولاى ، انى محب للسلام .

نابليون : أراك تكثر من التحدث عن السلام ، ليس للسلام معنى الا حينما يكون سلاما دائما وشريفا ، فاعترف بأن الاسكندر يريد الحرب .

كولينكور : كلا يا مولاى ، انى أراهن برأسى على أنه لن يطلق الرصاصة الأولى .

نابليون : اذن قد اتفقنا ؛ لأننى لا أريد الحرب ولا اعادة بولندة .

كولينكور : اذن يا مولاى يتطلب وجـود جيوش جلالتكم فى دانزيج التوضيح والتفسير .

وكان الامبراطور قد عقد العزم على محاربة روسيا ، فقد أتبع هذا الحديث بقوله لكولينكور :

« فى حالة الحرب سيخشى أعيـان الروسيين على قصـورهم ومغانيهم ، وبعد المعركة الظافرة سيرغمون الأسكندر على طلب الصلح » ، وحينما قال نابليون ذلك تذكر كولينكور ما قال له الاسكندر وهو : « اذا حاربنا نابليون فان من المحتمل أن يكسب الغازى المعارك ، ولكن هذا لن يضمن السلم ، ولقد هزم نابليون الاسبانيين ، ولكنه لم يقهرهم ويسحقهم ، وليس لهم جو روسيا ولا مواردها ، ولا ما لديها من جيش قوى ، ومتسع للمناورات » وأكد القيصر أنه ينسحب الى شبه جزيرة كمشاتكا ، اذا تحرجت الأحوال وضاقت به الحيل ، ويمتنع عن تسليم المقاطعات ، وامضاء معاهدة ليست سوى هدنة ، وأن الشتاء حليف روسيا .. ، مر ذلك كله فى ذاكرة كولينكور فاجترأ على أن يقول لنابيلون : « انك مخطىء يا مولاى » ، وبدا على نابليون التأثر من حديثه ، ولكنه لم يلبث أن أجابه : « ان المعركة الظافرة تكفى لنجاح الحيلة » وشكا بعد ذلك للسفير الروسى قائلا : « لقـد أصبح كولينكور روسيا ، وقد أغراه الاسكندر واستماله الى صفه » .

ثم تحول الى كولينكور وقال : « ألم تصبح روسيا ؟ » .

كولينكور : انى فرنسى شديد الاخلاص يا مولاى ، وسيثبت

الزمن لجلالتكم أننى قلت الحق بوصفى خادما أمينا .

نابليون : انى أعرف أنك رجل شجاع ، ولكن مصانعة الامبراطور الاسكندر قد خدعتك وغرتك حتى صرت روسيا .

وفى أوائل سنة ١٨١٢ دار بينهما حديث سياسى آخر قال فيه كولينكور لنابليون : « ان الحرب القادمة ليست من أجل بولندة وانما لازالة المنافسين فى أوروبا ، ولجعل الجميع أتباعا خاضعين ، وان عاهل فرنسا لم يحشد كل هذه الجيوش ويعد كل هذه المعدات دون أن يكون غرضه ارضاء النزعة الحبيبة الى نفسه .

نابليون : وما هى هذه النزعة الحبيبة الى نفسى ؟ .

كولينكور : الحرب يا مولاى .

فعارضه الامبراطور معارضة ضعيفة ، ولكنه تلقى الملاحظة بصدر رحب ، فشجع ذلك كولينكور على أن يقول : ان طلب السيادة على أوربا سيثير العداء الذى سيكون قاضيا على الآمال ان عاجلا أو آجلا ، وان عصر الملكيات العامة الشاملة قد تولى ، وان فرنسا متسعة الرقعة ، مترامية الأطراف ، وان أملاكه فيما وراء الرين ستؤدى الى نشوب الحرب .

وصحب كولينكور نابليون حينما تجرد لمحاربة القيصر . وقال له على ضفاف نهر النيمن :

« فى مدى شهرين ستطلب روسيا الصلح » والتزم كولينكور الصمت البليغ حتى تضايق نابليون ، ولما دخل نابليون ڤلنا ، بدون أن يشتبك مع الجيش الروسى فى معركة قال : « ان روسيا سنسلم

له بعد شهر » وانه سيدفع الروس الى سهوبهم الثلجية ، حتى يمسكوا عن التدخل فى الشئون الأوربية مدة ربع قرن » وعاد الامبراطور — فى حضرة أحد مندوبى الروس — الى اتهام كولينكور بأن القيصر قد خدعه وغرر به ، وساء ذلك كولينكور ، وبخاصة — لأن الامبراطور وجه اليه هذا الاتهام ازاء رسول القيصر ، وكان يرى : أنه قد أخلص النصيحة للامبراطور ، ويفخر بأنه كان معارضا لفكرة محاربة روسيا ، فطلب من نابليون قبول استقالته من عمله ، والتمس ارساله الى أسبانيا ، ولكن نابليون احتمل غضبته فى هدوء وقال له : « من الذى يشك فى اخلاصك ؟ لقد كنت أمازحك ، وأنت تعرف احترامى لك » ولكن كولينكور كان قد تملكه الغضب ، وهم بالكلام فجذبه اثنان من أصدقائه من سترته وتوسلا اليه فى التزام الصمت .

وفى اليوم الثانى — بعد أن أخفق الوسطاء فى اصلاح ما بينهما وتهدئة غضب كولينكور — طلب نابليون مثوله بين يديه وحماه بهذه الكلمات : «كيف تصل بك الحماقة الى الرغبة فى مفارقتى ؟ انى أقدرك ولم أرد على الاطلاق جرح شعورك » ولم يجد كولينكور بعد ذلك مندوحة عن البقاء الى جانب الامبراطور ، وان كان الامبراطور قد ظل بعد ذلك يقول له :

« صديقك الاسكندر الذى خدعك وغرر بك » .

وبالرغم من نقد كولينكور للحملة الروسية فقد ظل على اعجابه

بعبقرية نابليون ، واعتقاده بأنه سما بأخلاق الفرنسيين ، ولقنهم دروسا فى الوطنية .

ولما دخل نابليون موسكو ، واقترب شهر أكتوبر ولم يطلب القيصر الصلح ، سأل الامبراطور مستشاره الجرىء : « هل يقبل القيصر عرض شروط الصلح ؟ » فأجابه كولينكور : « ان التضحية بموسكو لا تدل على ذلك ، وان الشتاء القادم فى مصلحة الروسيين » ولما طلب اليه الذهاب الى بطرسبرج لمقابلة القيصر وعقد الصلح ، اعتذر كولينكور وقال : « ان القيصر سيرفض مقابلته ، فخالفه نابليون ، وأكد له : أن القيصر متلهف على عقد الصلح لأن الأشراف يريدون السلام ، فرفض كولينكور القيام بهذه المهمة ، فاختار الامبراطور غيره ، ولما طال انتظار نابليون قال لكولينكور : « ان القيصر عنيد وسيأسف على ذلك » فأفهمه كولينكور : أن القيصر يعرف قوة موقفه الى جانب حيرة الغازى وقلقه فاستولى الغضب على نابليون ، ولكنه سرعان ما تغلب عليه وقال لكولينكور : « أترى أن نغادر موسكو ؟ » .

كولينكور : نعم يا مولاى .

وأكدت الحوادث التالية صدق نصيحة كولينكور ، وصحة رأيه وبعد نظره ، ورأى نابليون بعد فوات الأوان خطورة الموقف ، واضطر الى العودة والارتداد ، وأخفقت مغامرته الكبيرة وأسفرت عن خسائر فادحة ، ولما أراد الاسراع فى الوصول الى باريس اصطفى كولينكور ليكون رفيقه الوحيد فى الطريق .

الملكة هورتنس ونابليون

من المراجع المهمة — التى تعين المؤرخ على تصور الماضى وتمثل أحداثه وواقعاته — المذكرات واليوميات التى يكتبها بعض كبار الساسة وأقطاب الدولة ، الذين اشتركوا فى صنع الحوادث ومعالجة المشكلات ، وألموا بتفصيلاتها الخفية ، وملابساتها المجهولة ، أو التى يسجلها بعض الذين لم يشتركوا فى توجيه الأمور وممارسة المعضلات ، وانما مكنتهم علاقاتهم واتصالاتهم من مشاهدة هذه الحوادث عن قرب ، والاشراف على مراحل تطورها وطرائق تناولها ، وبطبيعة الحال — لا تسلم أمثال هذه المذكرات الشخصية من الفرطات والنزوات ، والتماس المعاذير والتعللات ، ولا نزاع فى أن كتابها قد يجدون صعوبة فى قهر عواطفهم الخاصة ، ومقاومة نوازع التعصب والتحزب وجموح الخيال وشرود الذاكرة ، ولكن هذا لا يقلل من أهمية هذه المذكرات ، وانما يستوجب منا التحفظ والتحرج والاحتياط ، ويجمل بنا أن نخضع مذكراتهم للبحث والتمحيص ، ونعرضها على محك النقد الفاحص ، وأن نتعرف ميول كتاب المذكرات وعقائدهم الدينية واتجاهاتهم السياسية ، ولابد لنا — قبل الاعتماد

على مشاهداتهم والاطمئنان الى أخبارهم — من الوقوف على مدى حظهم من الصدق والأمانة والاخلاص والنزاهة ، وقد أثبتت مراجعة أمثال هذه المذكرات أنها حينما تقرأ بعناية فائقة وروية يقظة لا تلقى ضوءا على فهم بواطن الرجال وأسرار الحوادث فحسب ، وانما تمكننا كذلك من التهدى الى معرفة روح العصر وتبين مألوف عاداته ومختلف اتجاهاته وتياراته .

وقد لوحظ تفوق الفرنسيين فى هذا اللون من ألوان الأدب التاريخى ، ومن أشهر المذكرات التاريخية التى أخرجتها العبقرية الفرنسية مذكرات الكاردينال دى رتز ومذكرات سنت سيمون ، وقد بلغ حب الفرنسيين قراءة المذكرات التاريخية الى حد أن بعض المؤلفين عمدوا الى كتابة مذكرات زائفة مزورة ، استغلالا لهذه النزعة ، واغتناما لهذه الفرصة ، وكتاب المذكرات من الفرنسيين لا يبارون بوجه عام فى براعة التلوين ، والقدرة على التشويق ، واثارة الاهتمام ، وليس هذا بكثير على الأمة التى أخرجت للعالم مثل ديماس وبلزاك ، على أن براعة الكتاب الفرنسيين فى كتابة المذكرات لا تقلل من دسامة مادتها ، وحفولها بالمعلومات القيمة والحوادث الطريفة ، ويتلو الكتاب الانجليز الكتاب الفرنسيين فى الأهمية ، ومعظمهم لم يرتفعوا الى المستوى العالى الذى بلغه الفرنسيون فى كتابة المذكرات ، ولكن مذكراتهم مع ذلك لها مكانتها وقيمتها ، ومن أشهر كتاب المذكرات عند الانجليز

چون ايفلن وصمويل پيپز وفنى برنى [1] .

والذى يقرأ أمثال هذه المذكرات الشائقة الكاشفة يطل منها على الطبيعة البشرية ، كما عرفتها العصور المتعاقبة والأجيال المتوالية ، ولقد قال أبو تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى
فالسيل حرب للمكان العالى

فان كانت الأمكنة العالية مستهدفة للسيول الهوج المتدفعة ، فان الملوك والوزراء وكبار رجال الدولة كذلك فى مناصبهم السامية مستهدفون لسيول جائحة ورياح عاتية وصواعق مردية من الدسائس والنمائم والكراهات والأحقاد والصراع على القوة والتكالب على المال ، وبعض هذه المذكرات تريك حملة التيجان وعظماء الأرض فى مباذلهم ، وقد تحرروا من أبهة الملك وروعة السلطان ، وتكشف أسرارهم ، وبعضها يكفى فيها المثل القائل : « حسبك من شر سماعه » ، وقد تطالعك صور ليست جميلة ولا محبوبة ولا سارة ولا مشجعة ، والرجل الساخر القليل الثقة بالنفس الانسانية ، الحريص على كشف عيوبها ومواطن ضعفها قد يجد فى هذه المذكرات ما يريح خاطره وينقع غلته ، ويزوده بطائفة من النوادر والمعلومات التى تيسر له أداء مهمته وانجاز رسالته .

---

(1) يستطيع القارىء ان يجد معلومات قيمة عن أشهر كاتبى المذكرات الانجليزية فى كتاب English Diaries الذى نشره جيمس ايتكين ، اما كتاب المذكرات من الفرنسيين فيمكن لمعرفتهم الرجوع الى كتاب العلامة جوش المسمى Courts and Cabinets

ومن المذكرات التاريخية القيمة التى قد ترينا نابليون فى ضوء جديد ، وتكشف لنا بعض الجوانب الانسانية الخفية فى نفسه المعقدة وحياته العاصفة ، مذكرات الملكة هورتنس ، زوجة أخيه لويس بونابرت ، الذى أقامه نابليون ملكا على عرش هولندة ، وأم نابليون الثالث وابنة چوزفين ، وقد ظهرت هذه المذكرات كاملة سنة ١٩٢٧ ، وقد قرأت فى حياتها نبذا منها ، وشذرات لبعض أصدقائها المقربين ، وكتب نجلها تعليقات عليها ، وسمح لبعض المؤرخين الذين تولوا الدفاع عن نابليون — مثل ماسون وهوسيه — بالرجوع اليها والافادة منها والنقل عنها .

والملكة هورتنس كانت تعد أكثر النساء اللواتى ظهرن على المسرح النابليونى جاذبية ، فبولين الحسناء — شقيقة نابليون — كان ينقصها العقل والروح ، وكانت چوزفين مستهترة شديدة الأثرة ، فهى تثير شيئا من العطف ، ولكنها لا تبعث على الاحترام والتقدير ، وكانت زوجته الثانية مارى لويس أشبه بدمية من الدمى ، أما والدته : فقد كانت سيدة محترمة وقورا ، ولكنها كانت تتحاشى الظهور ، وتعمل على جمع القرش الأبيض الذى ينفع فى اليوم الأسود ، لأنها لم تكن مؤمنة ببقاء دولة نجلها ، وكانت تحس أنه يبنى على الرمل ويطلب المحال ، وكانت الامبراطورية التى تقوم على كاهل رجل فرد لا تبعث فى نفسها الثقة والطمأنينة .

ولم تكن الملكة هورتنس امرأة موفورة الحظ من المعرفة والثقافة ، ولكنها كانت مع ذلك تجيد الكتابة ، وتحسن الوصف ،

ومعرفتها المباشرة لبيئة الأسرة النابليونية ومختلف أفرادها تثير طلعتنا ، وتجعلنا نشاهد الحوادث بعيوننا ، ونكاد نلمسها بأيدينا .

وقد كان والد هورتنس الفيكونت فرانسوا دى بوهارنيه من قواد الجيش الفرنسى ، ورأس مجلس طبقات الأمة فترة قصيرة ، وكان من ضحايا المقصلة قبل انقلاب ترميدور بقليل ، ذلك الانقلاب الذى أودى بحياة الطاغية روبسبيير وأنهى عهد الارهاب ، وقد أنجت المصادفة المحضة زوجته چوزفين من المقصلة ، وقد شاركته فى السجن ، ولما جاء الثائرون لسوقها الى المقصلة أغمى عليها ، فقال رئيس الجماعة : « سنحضر لأخذها فيما بعد » ، وقد حاول يوجين بوهارنيه أن يستعين بتالين صديق چوزفين وعدو روبسبيير الماكر الحول ، ولكن تالين لم يسعفه بحيلة ، ولم يشر عليه بتدبير ، وقال يوجين لأخته هورتنس « اهدئى وقرى عينا فانى لن أتخلى عنك » ، وكان لا يزال حينذاك غلاما يافعا ، وقد بر بوعده ، وحافظ على عهده ، وظل طوال حياته كثير التعهد لأخته ، جم العطف عليها ، وكان هذا الوفاء الأخوى ظاهرة بيضاء جميلة فى سواد العصر القلب الذى عاشا فيه .

وهى تصف فى مذكراتها أيامها الباكرة فى المدرسة وعلاقتها بمدام كامپان وصيفة الملكة مارى أنطوانيت السابقة ، وكانت تعطف عليها وتخصها بعنايتها ، وكانت مدام كامپان بعد الثورة قد أنشأت مدرسة داخلية للبنات ، التماسا لأسباب الحياة ، ولم تكن هورتنس امرأة رائعة الجمال بادية القسامة ، وانما كانت

فاتنة جذابة ، مأنوسة المحضر ، خفيفة الظل ، وقد اجتذبت قلوب الناس ، واستخلصت ودهم ، والشخص الوحيد الذى لم يؤخذ بفتنتها ولم يقدر محاسنها هو زوجها الذى اختير لها !

وكانت چوزفين تدعو ابنها وابنتها الى باريس ، وفى يناير سنة ١٧٩٦ قالت لولديها : انها ستتناول طعام الغداء مع براس ، وانهما سيكونان معها ، فقالت هورتنس : « كيف ياوالدتى تزورين أمثال هؤلاء الناس ؟ هل نسيت أحزان أسرتنا ؟ » فأجابتها چوزفين فى لطف ورقة : « انها منذ وفاة والدها وهى تجاهد لانقاذ ما بقى لهم من الأملاك ، وان عليها تقدير جميل هؤلاء الذين ساعدوها وشملوها بعنايتهم » ولم تذكر لهما بطبيعة الحال أنها كانت خليلة براس وحظيته ، وكان المدعوون الى لوكسمبرج — مقر الدايركتورى — كثيرين ، وجلست هورتنس بين والدتها ورجل آخر ، أتعبها منه توقد ذهنه ، واشتعال قوى نفسه ، وقد وصفته بأنه كان « جميل الصورة ملامحه قوية التعبير » ، ولكن شحوب وجهه يسترعى النظر ، وكان يتحدث بحرارة واهتمام ويقبل على والدتى اقبالا واضحا » وهذا الرجل هو الجنرال بونابرت ، وقد بدأت صداقته لچوزفين بحادثة وصفتها هورتنس فى مذكراتها ، فقد صدر أمر فى سنة ١٧٩٥ بألا يملك أى مواطن أسلحة ، فذهب يوجين الى بونابرت وطلب استرداد سيف والده ، ودافع الغلام بعناية واهتمام واصرار ، فلبى نابليون رغبته ، وسأله عن المرأة التى أشعلت فى نفسه مثل هذه الحماسة .

وكان يوجين وهورتنس يخشيان أن تتزوج والدتهما ، ولذا كانا لا يرحبان بزيارة نابليون لها فى منزلها ، وكانت هورتنس تلحظ فى كل مرة تزور فيها باريس زيادة اهتمام بونابرت بوالدتها ، وأفضت اليها بمخاوفها ، وتوسلت اليها أن تقلع عن الزواج ، ولكن تأثير بونابرت فى نفس چوزفين كان أقوى ، ولما عين قائدا للجيش الذاهب الى ايطاليا قبلت چوزفين الزواج منه ، وتقول هورتنس « انها كانت تحبه ، ولكن حبه لها كان أقوى وأعنف من حبها له » ، وعهدت چوزفين الى مدام كامپان فى نقل خبر زواجها الى وندیها ، وقد كان له فى نفس هورتنس أسوأ وقع ، وحاولت مدام كامپان أن تهدىء نفسها وتهون عليها الأمر ، وتقنعها « بأن هذا الزواج يعود بالنفع على أخيها يوجين ، ويمهد له سبيل الترقى فى الجيش ، وتؤكد لها أن بونابرت من أسرة تدبمة محترمة ، وأنه زوج مناسب » ، ولما عاد نابليون من ايطاليا متوجا بالنصر أخذت هورتنس تراه فى ضوء جديد ، وذاع اسمه فى أنحاء باريس ، وامتلأ منزل چوزفين الصغير بالزائرين القادمين ليروا فاتح ايطاليا ، وقد كسب هورتنس الى صفه بعطفه ورعايته لا بمجده وشهرته ، قالت عنه هورتنس فى مذكراتها « لقد أظهر لى عطف الوالد وحنانه » .

ولما بلغت هورتنس السابعة عشرة من عمرها أخذت والدتها تفكر تفكيرا جديا فى مسألة زواجها ، وفكر نابليون فى أن يزوجها لديسيه ، ولذا كان مصرع ديسيه فى مارنجو صدمة أليمة له ،

وقد قال فى رثائه : « أى رجل ممتاز ! وأى خسارة منى بها الوطن! لقد كنت أنوى أن أزوجه هورتنس ! ولو تم هذا لكان زواجا سعيدا ، وهذا مما يثير أسفى ويحرك همى! » ، وكانت عيناه تذرف الدمع وهو يرسل هذه الكلمات ، ولما ترك الحجرة قالت چوزفين: « ان الناس يجهلون نابليون ، فهو جم الحيوية ، ولكنه طيب القلب » وزواج چوزفين بنابليون قرب هورتنس من أفراد الأسرة النابليونية ، وكان لويس بونابرت يتردد على منزلها ، وظهرت عنايته بها ، والتفاته اليها ، وكانت هى ترهب جانبه ، ولا تطمئن اليه ، وأعلن نابليون چوزفين بأن لويس هو خير زوج لهورتنس، وأنه يعتبر أخاه لويس بمثابة الابن ، وأنه هو نفسه قد لا يرزق أولادا ، وأن أولاد لويس سيكونون بمثابة أولاده ، ولكنه اشترط موافقة الطرفين على الزواج ، وقد شجعت مدام كامپان هورتنس فى قبول الزواج بلويس بونابرت ، وكانت مترددة فى قبوله ؛ ولما قالت لمدام كامپان « انى لا أحب هذا الاحتقار الذى يظهره لويس للنساء » أجابتها مدام كامپان « الزوجة العفيفة تستطيع أن تغير آراءه » ؛ وكان لويس بونابرت من هذا الصنف من الرجال ، الذى لا تستطيع امرأة أن تسعده ، أو أن تظفر بالسعادة معه ، وكان من أسباب سعادة أى رجل آخر غيره أن يظفر بزوجة مثل هورتنس ! ..

وفى سنة ١٨٠٤ عند اعلان الامبراطورية أصبحت مدام لويس بونابرت الأميرة لويس وفى سنة ١٨٠٦ أصبحت ملكة هولندة .

وقد ظل نابليون الى آخر أيام حياته يعطف على هورتنس ويحترمها ويجلها ، ولم تكن العلاقة بين هورتنس وزوجها علاقة مرضية ، وكانت أسوأ ناحية فى أخلاقه سوء ظنه بزوجته ، لذى لم يكن هناك ما يسوغه ، سوى سقم نفسه وفساد طويته ، وقد لامه أخوه نابليون على سوء معاملته لها .

ولما صمم نابليون على طلاق چوزفين ، رغبة فى الحصول على وارث لعرشه قال لهورتنس : « ان فرنسا جميعها تريد هذا الطلاق ، وانه لا يستطيع مقاومة رغبات بلاده ، وانه لا الدموع ولا التوسلات تستطيع أن تثنيه عن عزمه » فأجابته هورتنس فى هدوء وسكينة « انها ستخضع للأمر ، واننا جميعا سنذهب بعيدا حاملين فى نفوسنا ذكرى عطفك علينا » فلما سمع نابليون هذه الكلمات تغيرت لهجته ، ودمعت عينه ، وسالت الدموع على خديه ، وعز عليه ابتعادها عنه ، وذكر : أنه لو كان الأمر يتعلق بسعادته الشخصية لضحى بها ، ولكن المسألة تتعلق بسعادة فرنسا ، وألح فى بقائهم على مقربة منه ، حتى استطاع فى النهاية اقناعهم ، وظل فترة من الزمن يزور چوزفين بعد الطلاق ويكتب اليها الرسائل .

ولما جاءت مارى لويس الى فرنسا كانت العلاقة بينها وبين هورتنس على ما يرام ، وتقول هورتنس « ان فرنسا كانت تشعر بالسعادة والعزة ، وتميل الى الاستمتاع بالسلام والأمن ، وكان الامبراطور يدرك ذلك ، ولكنه تورط فى محاربة روسيا ، وغامر

بمهاجمتها واكتساح بلادها ، ولما جاءت أخبار الهزيمة أسرعت هورتنس الى التويلرى ، حيث وجدت الامبراطور متعبا منهوك القوى ، غارقا فى المشكلات ، ولكنه لم يكن قانطا خافض الجناح ، وقد لحظت هورتنس : أنه كان فى الأوقات الحرجة يظهر سيطرة على نفسه قليلة النظير .

ودخلت جيوش الحلفاء باريس ، وحمل الامبراطور منفيا الى جزيرة البا ، وفرقت العواهل المنتصرة بين الأسرة النابليونية وأسرة بوهارنيه ، ففى ابريل سنة ١٨١٤ شاهدت هورتنس — حينما وصلت الى ما لميزون — والدتها تمشى فى الحديقة مع القيصر الاسكندر مشتبكى الساعدين ، وحينما وقعت عينها على ابنتها قالت للقيصر : « هذه ابنتى وصبيتها الصغار أقدمهم لك » فصافح القيصر هورتنس ، ولاطف الصبية وقال لهورتنس : « ماذا تريدين أن أصنع لهم ؟ اسمحى لى أن أكون قيما على أمورهم » فأجابته هورتنس : « انها ليست فى حاجة الى شىء »، ولما انصرف القيصر عنفتها والدتها على جوابها الجاف للقيصر ، فأجابتها هورتنس : انها لا تستطيع أن تتحمس للرجل الذى أعلن عداءه الشخصى للامبراطور ! ، ولكن القيصر كان شخصية محبوبة وقد استطاع بعد ذلك أن يظفر بثقتها ، حتى صارت تعتقد أنه حامى أسرتها ، وصرح القيصر لبعض خاصته : أنه لم يعجب قط بامرأة اعجابه بها ، وقد ساء البونابرتيين فرط اهتمامه بأسرة بوهارنيه ، وسعت هورتنس الى المثول بين يدى الملك لويس الثامن عشر

لتشكر له موافقته على بقائها حاملة للقب « دوقة سنت ليه » وأحسن الملك لقاءها ، وأثر فى نفسها عطفه وبساطته ، وقبل يدها فى ختام المقابلة ، وقال لها : انه يسره أن يراها حينما تشاء ، ولما أجابته : أنها ترى نفسها امرأة قد تقدمت بها السن ويجمل بها الاعتزال ، ضحك الملك ، ولما انصرفت قال لخاصته : انه لم ير امرأة مثلها فى حسن السلوك ، ورقة الحاشية ، ودماثة الخلق .

وبلغت نابليون — وهو فى جزيرة البا — أنباء بقائها فى باريس واتصالها بأعدائه ، ولذا — تلقاها بفتور ، حينما زارته فى قصر التويلرى بعد عودته من البا ، وساءها ذلك ، ففى اليوم التالى : صحبت أولادها ، ودخلت اليه فى مكتبه وهى خافقة القلب ، وتلقاها نابليون لقاء فاترا ، وأعرض عنها قليلا ، وبعد هنيهة قال لها : « لم أكن أظن انك تتخلين عن قضيتى » .

هورتنس : انى يا سيدى لم أتخل عن قضيتك ! ولست أملك الرغبة ، حتى ولا القدرة على ذلك .

نابليون : ليس من حقك أن تفصلى فى شئون أولاد أخى بدون اذنى ، ومن حق زوجك أن يسوءه ذلك .

هورتنس : أنت يا سيدى لا تعرف الظروف التى أرغمتنى على البقاء فى فرنسا ، لقد طلبت ذلك والدتى ولم يكن لها سواى ، وزوجى لم يقدم لى مساعدة ، فالى أين أذهب ؟

نابليون : تصحبين أخاك .

هورتنس : ولكن أخى لم يكن له منصب يشغله ، وقد ذهب الى ڤينا ليدبر أمره .

نابليون : كان فى استطاعتك أن تذهبى الى هناك معه .

هورتنس : لقد كان قيصر الروس عدوا كريما ، وقد أراد أن يضمن مستقبل أولادى ، فهل أرفض مساعدته ؟

نابليون : كان يجب أن تغادرى فرنسا ، وقطعة من الخبز الأسود كانت أفضل من ذلك ، ولا تتصورى أن أبناءك كانوا سيفيدون من هذه الامتيازات المزعومة ، لقد تصرفت تصرف الأطفال ، وحينما يشارك الانسان أسرة فى صعودها وارتفاع شأنها فان عليه أن يقاسمها شقاءها ورزاياها .

هورتنس : (وقد فاضت دموعها) آه لقد أخطأت الحساب وأسأت التقدير ، وظننت أننى أقوم بواجبى فى انقاذ أولاد أخيك من النفى ، ولم أستطع الكتابة اليك ، لقد كنت متعبة ، وأين الأصدقاء الذين كنت أستطيع أن أعهد اليهم فى المحافظة على الأولاد ؟

نابليون : (وقد رق صوته) ليس عندك أسباب قوية لتقديمها الىّ ، ولكنك تعرفين أننى والد طيب النفس ، وقد سامحتك !

ولما أثنت على القيصر ، وأكدت رغبته فى استقرار السلام ، وكراهته لعودة البوربون قال لها نابليون : « هل قال القيصر

ذلك ؟ انه اذن كذاب مخادع » ، ولما لقيته بعد عودته من واترلو حياها بهذه الكلمات : « ما الذى بلغك ؟ » فأجابته : « بلغنى يا سيدى أنك كنت سيىء الحظ » ، فلم يزد على ذلك ، وكان يبدو عليه التعب والاعياء الشديد ، وطلب اليها البقاء ، وتناولت الغداء معه ، ولكنه لم ينبس بكلمة واحدة ، وكانت تزوره كل يوم لتطمئن على سلامته التى كان يبدو أنه لا يحفل بها ، ونصحت له بمغادرة فرنسا ، والالتجاء الى امبراطور النمسا ، فقد يتذكر ما بينهما من لحمة النسب ، وذكرت له : أنها تثق بالقيصر الاسكندر ، ونهته عن التسليم للانجليز ، ولكن نابليون رفض الالتجاء الى النمسا ، وقال : « ان تسليم نفسه للقيصر معناه الالتجاء الى فرد ، أما تسليم نفسه للانجليز فمعناه : الالتجاء الى أمة » .

وقد لينت هورتنس من قسوة هذه الأيام القلقة الأخيرة ويسرت لنابليون احتمالها ، ولم تبال بنصائح الذين أشاروا عليها بالابتعاد عنه وهو فى محنته ، وقالت لهم : « ان هذا هو الوقت الذى تظهر فيه وفاءها وعرفانها الجميل » .

بين الإمبراطور ومستشاره

فى ذات يوم — وحرب القرم دائرة الرحى حامية الوطيس — اصطحب الوزير البروسى ارنست ڤون بيلوف نجله برنارد — الذى كان حينذاك لا يتجاوز السابعة من عمره — فى جولة خلوية بأحد طرق فرانكفورت الواقعة على المين الزراعية ، وشاءت المصادفة أن يلقيا فى أثناء سيرهما السياسى الألمانى الخطير أوتو ڤون بسمارك ، وبعد تبادل التحية وتجاذب أطراف الحديث بدا لارنست ڤون بيلوف أن يسأل الداهية الألمانى عن رأيه فى نجله ، فأجابه بسمارك ضاحكا : « يبدو عليه الطموح » فقال والد الغلام : « هـذا يحزننى ، وانى أوافق جماعة « الهرنهيتر » — وهى طائفة دينية — على قولهم : « اعصمنا يارب من فتنة تحقيق أطماعنا الضارة » ، فظل بسمارك صامتا هنيهة ، ثم قال : « ان جماعة الهرنهيتر على حق ، وماذا يجدى الانسان اذا كسب العالم جميعه وخسر روحه ؟ » ومرت أسابيع على هذا اللقاء ، حضر بعدها الغلام الناشىء مناقشة بين والده وبسمارك ، حاول فيها بسمارك أن يقنع فيها الوالد بضرورة استيلاء بروسيا على أرض تصل بين ولاياتها الشرقية وولاياتها الغربية ، وقد عارض الفكرة ارنست فون

بيلوف ، بحجة : أن هذا العمل لم يكن له مسوغ شرعى ، ولا سند قانونى ، وأنه مما تأباه الأخلاق ، فهز بسمارك كتفيه حينما سمع هذا الكلام وأجاب :

« لقد سرق فردريك الأكبر سيليزيا ، وبرغم ذلك فانه يعد من أعظم رجال التاريخ ! » .

وهذا الخلاف بين وجهة نظر السياسة الواقعية والسياسة القائمة على المبادىء والأخلاق ترك أثره العميق فى نفس الغلام الناشىء الغضة المتطلعة الطامحة المتوثبة ، وقد أعجب بآراء بسمارك الذى قدر له أن يخلفه فى منصبه ، ويترسم خطواته فى سياسته .

ومرت الأيام والأعوام على ذلك اللقاء المفاجىء فى فرانكفورت وتتابعت الأحداث المثقلات بالعجائب ، وفى أحد أيام شهر يونيو سنة ١٨٩٧ تلقى برنارد فون بيلوف برقية من الامبراطور وليام الثانى عاهل ألمانيا ، يأمره فيها بالحضور الى كيل ليتلقى نبأ اختياره وزيرا للخارجية خلفا للبارون مارشال فون بيبر ستاين ، وكان فون بيلوف حينذاك وزير ألمانيا المفوض فى روما .

وقد انتظم برنارد فون بيلوف فى السلك السياسى وهو غض الشباب ، وتنقل فى مراحله من نصر الى نصر ، وكانت تقاليد الأسرة تميل به الى ايثار هذا المسلك ، وترجيح هذه الخطة ، فأسرة بيلوف : من أعرق الأسر الألمانية محتدا وأقدمها تاريخا ، وكانت الصداقة المتينة التى ربطت أسرته بأسرة لبسمارك تؤكد

هـذا الاتجاه وتقرب أسبابه ، وقد ظل برنارد مواليا لبسمارك معجبا به مثنيا عليه منذ ذلك اليوم الذى لمح فيه السياسى بنظره الثاقب طموحه ، وهو ما يزال غلاما ناشئا الى نهاية حياته ، ومن أنبل مواقفه وأنصع صفحات حياته : أنه لم يقطع علاقته بسلفه العظيم ، كما فعل غيره ممن رفع شأنهم بسمارك ، ولم يتنكر له فيمن تنكر حينما أبعد عن منصبه ، وكان الاقتراب منه أو الثناء عليه مما يثير غضب الامبراطور ، ويخلق له العثرات فى طريق الطموح وسبيل المجد !

وحينما حاول بيلوف أن يقضى سنة تحضيرية لدراسة الأعمال الادارية فى متز قبل انضمامه الى السلك السياسى أعطاه والده نسخة حسنة التجليد من كتاب «مرشد الدبلوماسى» ، وزوده بهذه النصيحة « فى مجال الدبلوماسية يتعلم الانسان من الحياة أكثر مما يتعلم من الكتب ، والذى يريد أن يكون مفنّاً عليه أن يتعلم أصول مهنته ، وأسترعى نظرك الى أن الدبلوماسية ليست علما وليست — لسوء الحظ — فرعا من علم الأخلاق ، انها فن » .

وهكذا كانت هذه الكلمات ترن فى أذنيه حينما بدأ الابحار فى عباب السياسة والدبلوماسية ، وقد انتهى به المطاف الى أكبر مناصب الدولة ، وبلغ قمة المجد فى السياسة الدولية والمكانة العالمية ، وقد تقدم هذا الفتى الجميل المحيا ، الجذاب الحديث المتوقد الذكاء فى سبيل السياسة الوعر ثابت الخطوات ، مجتمع العزم ، مترامى الأمل ، بعيد الطموح ، تزيل من طريقه العقبات

لباقته وسرعة خاطره ، وطرافة شخصيته وجاذبيتها ، وقد عاش ملء حياته ، وعب من اللذات ما شاءت له أهواؤه ونزواته ، فلم تند عنه تجربة من التجارب ولا متعة من المتع ، وهو لم يتورع فى مذكراته عن ذكر غزواته وانتصاراته فى ميادين الحب والمغازلة ، وأرسل نفسه على سجيتها ، كأنما عز عليه أن تندثر هذه الذكريات الغالية وتضيع معالمها !

وكان بيلوف من هذا الصنف من الناس الذى يعرف كيف يفيد من كل صداقة ، ويستغل لمصلحته كل علاقة ، ويتخذ من كل مناسبة وسيلة لتقريب غايته وتحقيق أمله ، وقد عين فى الثلاثين من عمره سكرتيرا لمؤتمر برلين المشهور ، فوقع من نفس دزرائيلى أجمل موقع ، فكتب الى الملكة فيكتوريا يقول لها من ضمن رسالة بعث بها اليها : « انه من أجمل الشبان المهذبين الذين تقيتهم ، وأحسنهم بزة وأبرعهم أدبا وسلوكا » .

وقد اختاره بسمارك وزيرا مفوضا فى بخارست وظل هناك حتى سنة ١٨٩٣ ونقل منها وزيرا مفوضا فى ايطاليا ، وكان يشغل هذا المنصب حينما جاءته البرقية فى ٢١ يونيو سنة ١٨٩٧ التى غيرت مجرى حياته وجعلته أحد العوامل المؤثرة فى سير السياسة العالمية .

وكانت علاقة الامبراطور وليام الثانى بمارشال فون بيبر ستاين وزير خارجيته قد ساءت الى أقصى حد ، وظن الامبراطور به الظنون ، وعرف أن أيام المارشال فى الحكم قد أصبحت معدودة ،

وصارت مسألة من يخلفه من المسائل الهامة ، ففى أوائل سنة ١٨٩٧ لقى فون بيلوف الأمير ايلنبرج صديق الامبراطور الحميم وأقرب الناس اليه فى ميران ، وحاول ايلنبرج أن يقنع بيلوف بقبول هذا المنصب الخطير — منصب وزير خارجية الدولة الألمانية — وكان هذا المنصب هو المكان الطبيعى للوثوب الى أرقى المناصب فى ألمانيا ، وهو منصب المستشار أو رئيس الدولة ، وكان رئيس الدولة الألمانية حينذاك وهو الأمير هوهينلو رجلا متقدما فى السن ، والظاهر أن بيلوف أخفى طموحه عن ايلنبرج وتظاهر بالتمنع ، فما زال به ايلنبرج حتى حمله على القبول كما يزعم هو ، وقد ذكر له ايلنبرج فى خلال حديثه معه كيف يتناول الامبراطور ويعامله ، ووصفه له قائلا : « ان الامبراطور يسد أذنيه دون سماع الحجج المقنعة ، وهو لا يتأثر الا بوجهات النظر الشخصية ، والمؤثرات الخاصة الفردية ، فاذا أردت أن تخدم بلادك فعليك أن تظفر بحب الامبراطور ، وأنت رجل جذاب تعرف كيف تأسر النفوس وتختلب العقول ، وقد فتنت الكثيرين وخلبت ألبابهم ، فاعمل على اجتذاب الامبراطور والأخذ بمجامع قلبه ، واذا دعا الأمر الى معارضته ونقض آرائه فلا تتأخر عن ذلك ولا تحجم ، ولكن لا تفعل ذلك الا اذا كنت مختليا به ، ولا تضايقه فى المسائل الصغيرة بدون داع ، ولن تستطيع عمل شىء مع الامبراطور الا اذا أيقن أنك تحبه وتريده ، وتعجب به وتكبره ، وأنت فارس خيال ، والامبراطور جواد ، لا تمتطى صهوته الا اذا

كنت خفيف اليد ، وقد يحتمل هذا الجواد ضغط فخذى الراكب ، ولكنه لا يحتمل الشكم ، ولا ينبغى أن يرخى له العنان فى كل الأوقات بغير حساب ، ويلزم قبل كل شىء ألا تنقطع عن اعطائه قطعا من السكّر ، وبدون هذا السكر لا يستطيع هذا الحصان أن يتخطى العقبات ، ولا أن يمنع من الانطلاق والشرود ، بل لا يمكن ركوبه على الاطلاق » .

وهكذا كان مدى فهم الأمير ايلنبرج للامبراطور وليام ، وكان ايلنبرج حينذاك أعز أصدقاء الامبراطور وآثرهم مكانة فى نفسه ، وكان بيلوف على ما يظهر أعمق دهاء من ايلنبرج ، وكان له من مكره وسعة حيلته وحسن تأتيه ما يغنيه عن هذه النصيحة ، ولكنه مع ذلك عمل بها ، ولعل ما أخذ عليه فى اتباع هذه النصيحة القيمة هو أنه كان يكثر من اعطاء السكر ويقلل من جذب العنان ، وربما كان هذا هو الذى مكنه من أن يظل على مقربة من الامبراطور فترة طويلة ، فان معظم هؤلاء الناس الذين يضعهم القدر فى القمم العالية يضيقون بقرب من لا يحرق لهم على الدوام البخور .

والواقع : أن أكبر مشكلة واجهت بيلوف حينما قبل منصب وزير الخارجية كانت مشكلة طبيعة علاقته بالامبراطور ، فحينما كان بسمارك مستشارا للدولة كان منصب وزير الخارجية قليل الشأن ضئيل الأهمية ، لأن سلطان المستشار بسمارك كان ينبسط

على السياسة الخارجية بحذافيرها ، وقد تغير الحال بانسحاب الرجل الحديدى من الميدان ، وكان المستشار كابريفى الذى خلفه من رجال الجيش ، الذين لا يعرفون الدبلوماسية سوى معرفة قليلة ولا يميلون اليها بطبيعتهم ، وكان المستشار هوهينلو الذى تلاه مستعدا لالقاء أزمة السياسة الخارجية الى يد وزير الخارجية الجديد ، الأصغر منه سنا ، والأوفر منه نشاطا وهمة ، وكان الامبراطور وليام على ذكائه وحماسته قلقا لا يثابر على عمل ولا يصبر طويلا على متابعة خطة من الخطط ، ولذا كان تدخله المتقطع فى شئون السياسة الخارجية مما يثير المشكلات ، ويخلق الارتباكات ، ويلقى بالصخور والأحجار فى طريق فون بيلوف ، ويرى بعض المؤرخين : أن عجز فون بيلوف عن كبح جماح الامبراطور فى الفترة الخطيرة من التاريخ التى تولى فيها منصب وزير الخارجية ، ثم منصب المستشارية بعد ذلك بثلاث سنوات ، من الأسباب التى أدت الى نشوب الحرب الكبرى الأولى .

وكان بيلوف يسرف فى الثناء على الامبراطور ويضفى عليه الأوصاف البراقة والنعوت الخلابة ، فهو الفيصل فى شئون العالم والرجل الفذ الممتاز ، وهو وفردريك الأكبر والمنتخب الأعظم أعظم رجال أنجبتهم أسرة الهوهنزلرن ، وما الى ذلك من المبالغات التى كانت تخدع الامبراطور عن حقيقته ، وتملى له فى غروره ، وتزيده امعانا فى غيه وتماديا فى طغيانه ، وكان هذا السلوك يبعث الامبراطور على عدم التحرج من تلك التصريحات المدوية التى

كان يرسلها فى غير روية ، فتثير المتاعب ، وتوقظ نائم الفتنة ، وتنبه عقارب الشر .

وفى مناسبتين تاريخيتين عرف فون بيلوف كيف يجعل الامبراطور كبش الفداء ، لخلاص نفسه ونجاته من الأزمة المستحكمة والزوبعة القاصفة ، وقد كانت المناسبة الأولى فى سنة ١٩٠٥ حينما قام الامبراطور بعقد معاهدة بيوركو مع القيصر نيقولا الثانى ، فقد نصح المستشار بيلوف الامبراطور — قبل اجتماعه بالقيصر — بأن يكتفى بالحصول على موافقة القيصر على مبدأ التحالف الدفاعى ، وأن يترك التفصيلات ليتولى هو ولا مسدورف بيانها وكتابتها ، وأصر الامبراطور على أن يجتمع بالقيصر منفردين وزين له غروره : أنه بقوة شخصيته ومتانة حجته يستطيع أن يحمل القيصر على الموافقة وامضاء المعاهدة ، وأقر الامبراطور المعاهدة مخالفا نصيحة مستشاره ، وأرسل اليه برقية تفيض رقة ، يصف فيها كيف أمضى المعاهدة ، ولما اطلع فون بيلوف على المعاهدة لم ترقه فأرسل الى سيده الامبراطور نقدا شديدا للمعاهدة ، وأضاف الى نقده : أنه لا يستطيع أن يحتمل تبعة الموافقة على مثل هذه المعاهدة العرجاء ، فكتب اليه الامبراطور رسالة يدافع فيها عن عمله ، وذكر فيها : أنه بذل من الجهد ما بذل ، واحتمل من العناء ما احتمل ، ليرضى مستشاره الأمين ، فكيف يتخلى عنه بعد ذلك ويقدم استقالته ؟ وهل يعامله هكذا أعز أصدقائه عليه وأسماهم مكانة فى نفسه ؟

وذكر الامبراطور أنه لا يستحق هذه المعاملة القاسية ، وأنه يخشى أن يصيبه انهيار عصبى اذا أصر بيلوف على تركه ، وتوسل اليه ليبقى فى منصبه ، ويظل متعاونا معه مؤيدا له ، وكتب فى ذيل الكتاب حاشية ضمنها : أنه ان لم تصل اليه برقية تطمئنه ببقاء المستشار فانه لن يكون حيا فى اليوم التالى لتقديم الاستقالة ، وختم الحاشية بقوله : « فكر فى زوجتى البائسة وأولادى » وحمل الرسالة اليه مولتكه ، ووصف له سوء حالة الامبراطور ، ورجا منه أن يكتب اليه كلمة ترفه عنه وتهدىء ثائرته ، ولما أرسل اليه بيلوف أنه باق فى منصبه تلقى هذه البرقية من الامبراطور « أشكرك من أعماق قلبى ، لقد ولدت من جديد » ولم يقبل السياسى الروسى لا مسدورف المعاهدة ، وبذلك ظلت هذه المعاهدة قصاصة ورق ، وانفرجت أزمتها .

وقد انتصر المستشار فى سنة ١٩٠٥ ، ولكن هل كانت العلاقة بينه وبين سيدة تحتمل صدمة أخرى من هذا القبيل ؟ لقد جاء الجواب على هذا السؤال فى سنة ١٩٠٨ حينما حدثت مشكلة حديث الامبراطور مع مراسل الديلى تلغراف ، ففى أوائل أكتوبر سنة ١٩٠٨ كان فون بيلوف فى منزله الخلوى بنوردرنى ، وهناك تلقى غلافا به مخطوط ضخم ، بحروف غير واضحة ، ومعه رسالة طلب اليه فيها : الموافقة على نشر ما تضمنه المخطوط فى أعمدة الجريدة الانجليزية اذا لم يكن عنده مانع ، وزعم بيلوف أن أعماله كانت من الكثرة والازدحام بحيث لم تترك له متسعا من

الوقت للاطلاع على ما تضمنه المخطوط ، ولذا بادر بارساله الى ادارة الشئون الخارجية ، وأوصاها بأن تدقق فى مراجعته ، وبعد أن راجعه اثنان من كبار موظفيها وغيرا عددا قليلا من ألفاظه أعادوه الى فون بيلوف ، ولم ينشـــط فون بيلوف الى قراءة المخطوط بعد ذلك ، واكتفى باعادته للامبراطور ، ونشر المقال فى جريدة الديلى تلغراف ، وظن الامبراطور أن هذا المقال يقلل من حدة توتر العلاقات بين البريطانيين والألمان ، ويؤدى الى حسن التفاهم ، ولكنه أخطأ التقدير ، فقد كان للحديث أسوأ وقع فى نفوس البريطانيين ، ولما تلقى فون بيلوف فى ٢٩ أكتوبر برقية تتضمن خلاصة الحديث أشتد تعجبه ، فقد ورد فى الحديث « أن الرجل الانجليزى العـــادى يتشبث بفكرة خاطئـــة عن مشاعر الامبراطور نحو انجلترا ، وأن صبر الامبراطـــور الطويل كاد يضيق ويذهب ، وأن فرنسا وروسيا دعتا الامبراطور الى الانضمام اليهما للتدخل فى أثناء نشوب حرب البوير ، وأنها قالتا له : ان الوقت لم يحن لانقاذ جمهوريات البـــوير فحسب ، بل لاذلال انجلترا وارغام أنفها ، وان الامبراطور رفض ذلك ، وأرسل الى الملكة ڤيكتوريا صورة ما كتبه فى الرفض ، وانه حينما توالت هزائم البريطانيين أرسل الى الملكة ڤكتوريا خطة محكمة للتغلب على البوير فى ميدان القتال ، وأضاف الى هذا القول : أن الخطة التى اتبعها بعد ذلك اللورد روبرتس وتغلب بها على البوير تشبه الخطة التى اقترحها الامبراطور من وجوه كثيرة »

ولما أثار هذا الحديث ثائرة الرأى العام الألمانى من ناحية وغضب الانجليز من ناحية أخرى لم يجد فون بيلوف مندوحة عن أن يتقدم الى مجلس الرشتاغ ببيان يلطف فيه من وقع الحديث. ولما ذهب الى بوتسدام قبل القاء البيان ليقابل الامبراطور حيته الامبراطورة بهذه الألفاظ « ترفق بالامبراطور ، فانه محزون مكروب » وكانت أول كلمات استقبله بها الامبراطور قوله له . « ساعدنى ، خذ بيدى ، ما الذى سيصيبنا ؟ هل نخرج سالمين من هذه الورطة ؟ » فأجابه فون بيلوف : ان السلامة مضمونة على شرط أن يكف الامبراطور فى المستقبل عن مثال هذه الفلتات الخطرة » فأحنى الامبراطور رأسه وقال : انه سيراعى ذلك فى المستقبل ، ولما ودعه المستشار أعرب له الامبراطور عن عظيم ثقته به ، وقبله فى وجنتيه قائلا له : انه يشكره من أعماق قلبه .

وأعلن فون بيلوف فى بيانه للرشتاغ : أن جلاله الامبراطور « سيلتزم فى المستقبل جانب الحيطة حتى فى أحاديثه الخاصة » وهكذا عرف فون بيلوف كيف يلقى اللوم جميعه على كاهل الامبراطور ويخرج من الأزمة سالما ، ولكن هذا الأسلوب الذى اتبعه قضى على ما بينه وبين الامبراطور من صداقة وتفاهم وثقة واطمئنان ، ولم تبدر من الامبراطور بادرة تدل على التغير ، ولم يفه بكلمة تؤذن بقرب القطيعة ووقوع النفرة ، ولكن الهاوية التى وجدت بينهما أخذت فى الاتساع ، وعلم فون بيلوف أن الامبراطور يبحث عن رجل آخر ليرشحه لمنصب المستشارية ،

فانتهز فرصة خلاف يسير نشأ بينه وبين الرشتاغ وقدم استقالته فى يوم ١٥ يوليو سنة ١٩٠٩ .

ويذكر خصوم فون بيلوف : أنه اطلع على الحديث الذى أثار الضجة ولم يجد فيه ما يستحق الاعتراض ، ولكن حينما وقعت الأزمة واشتدت العاصفة وجد هذا المكياڤلى الألمانى — كما كان يلقبه بعض المعجبين به — أن الأجمل به والأسلم له أن يتنصل من التبعة ، ويزعم بأنه لم يطلع عـلى الحديث لضيق وقته وكثرة أعمـاله .

وهكذا انتهت حياة هذا الرجل السياسية اللامعة ، التى وصفها وصفا شائقا فى مذكراته المشهورة .

(١)

أقطاب أوربا

فى مطالع القرن العشرين

فى مطلع القرن العشرين كانت أزمّة العلاقات السياسية بين الدول الأوربية الكبرى — انجلترا وألمانيا والنمسا وروسيا وفرنسا — لا تزال فى أيدى أفراد معدودين ، وكان هؤلاء الأفراد من الناحية النظرية البحتة خاضعين لرقابة المجالس النيابية ، ولكنهم من الوجهة العملية كانوا حاكمين بأمرهم ، لا معقب لكلمتهم ولا مرد لأحكامهم ، ففى روسيا : كان القيصر هو المسيطر على السياسة الخارجية ، كما كان الحال فى عهد القيصر الأسكندر الأول ومترنخ ، وفى انجلترا : كانت التقاليد المرعية تملى على الحكومة سياستها الخارجية ، وتحتم متابعتها والسير بمقتضاها ، ولذا كانت السياسة البريطانية الخارجية تكاد تكون بمعزل عن رقابة البرلمان ، فمهما تبدلت الوزارات وتعاقبت الأحزاب التى تلى الحكم فان السياسة الخارجية تسير سيرتها المعهودة بغير انحراف ولا شذوذ ، وكان وزير الخارجية فى فرنسا أقل استئثارا بالسلطة وحرية التصرف من أمثاله فى الدول الأخرى ، ولكن الوشائج

الخفية بين كبار الموظفين الدائمين وأصحاب المصالح الكبيرة والشئون المالية الخطيرة أدت الى نتائج شبيهة بما فى الدول الأوتقراطية .

وهكذا ظلت العلاقات بين الدول على ما كانت عليه من الاضطراب والتقلقل فى القرن التاسع عشر ، ولم يتناولها شىء من التجديد ، وذلك على حين أن قدرة الدول فى ايقاع الشر والأذى قد تزايدت وتفاقمت ، فالعلم والصناعة غيرا فن الحرب وجعلا من الميسور أن يخصص للحرب وانتاج أدوات الهلاك نسبة أكبر من عدد السكان ، وأظهرت سهولة المواصلات وسرعة النقل أن من الميسور غزو بلاد الأعداء فى وقت أقصر مما كان يستغرقه الغزو فى العصور السالفة ، ومن ثم خافت الدول بعضها البعض ، ومن شأن هذا الخوف الملازم أن يضل التفكير ، ويثير العاطفة ، ويولد القومية المتطرفة والوطنية المتعصبة ، وأخذت الأمم تتأهب للغزو المفاجىء والحرب الخاطفة .

وكانت السياسة الأوربية تأخذ مجراها فى تكتم شديد وغموض والتواء ، ومن حسن حظ التاريخ والحقيقة : أن أسرار تلك السياسة الخفية قد أصبحت مكشوفة معروفة ، وصار فى مستطاع المؤرخين أن يعرفوا البواعث والنيات والمرامى التى كانت تحرك هؤلاء الأشخاص ، الذين كانوا فى علاوة السياسة وذروة النفوذ ، وكانوا يقودون الأمم ويدبرون الأمور فى الفترة السابقة للحرب الكبرى الأولى .

وفى طليعة هؤلاء الرجـال الأعلياء : القيصر نيقولا الثانى ، وامبراطور ألمانيا وليام الثانى ، وامبراطور النمسـا فرانسيس چوزيف .

ومن أواخر سنة ١٩٠٥ كانت مقاليد السياسة الخارجيـة البريطانية فى يد السير ادوارد جراى ، وكانت السياسة الخارجية الفرنسية لا تنى يتغير رجالها ، ولكن الرجلين اللذين كان لهما النصيب الأوفى فى توجيهها هما : بوانكاريه ودلكاسيه .

ولم يكن هؤلاء الرجال الأعلام والأقطاب الكبار يمثلون نزعات جديدة أو تيارات شعبية ، وانما كانوا يؤثرون فى الحوادث والاتجاهات بفرديتهم الخاصة ، ويطبعونها بطابعهم ، وينفضون عليها لون مزاجهم ، وملامح شخصيتهم ، وسمات كيانهم .

وكان هناك عامل ثابت فى السياسة الأوربية يكيف حوادثها ، ويؤثر فى مذاهبها منذ سنة ١٨٧١ حتى سنة ١٩١٤ ، وهذا العامل : هو العداوة الشديدة التى استعرت نيرانها بين فرنسا وألمانيا منذ نشوب الحرب السبعينية .

وقد قبل السياسى الألمانى — الداهية الخطير بسمارك — هذا الموقف واعتبره أمرا لابد منه ولا محيص عنه ، وأقام عليه سياسته ، وأدار حوله خططه ، وعمل على تحسين العلاقات مع روسيا من ناحية ، وعلى أن يشجع انجلترا وفرنسا وايطاليا على المغامرات الاستعمارية من ناحية أخرى ، وقدر أن هذا التنافس الاستعمارى سيوسع بينهما شقة الخلاف ، ويحدث الخصومة

ويثير الحقد والكراهية ، وبعد سقوط بسمارك أخذ الفرنسيون يحسنون موقفهم السياسى ، فعقدوا الاتفاق الروسى الفرنسى ؛ ثم تقربوا من انجلترا وعقـدوا معها اتفاقا ؛ ولما تحسن موقف فرنسا قوى أملها فى استرداد الألزاس واللورين ، وبخاصة اللورين لما فيها من الحديد الخام .

وكان أكبر رجال أوربا شأنا وأسماهم مكانة وأبعدهم نفوذا وأعظمهم سطوة بحكم مركزه ومنزلة أمته هو الامبراطور وليام الثانى ، وقد قضى أيام شبابه فى رعاية جده وليام الأول ، وجدته الملكة ڤكتوريا ، وكانت والدته — أكبر بنات الملكة ڤكتوريا — زوجة ولى العهد الأمير فردريك ، الذى ظل يرتقب تسلمه العرش حتى بلغ السابعة بعد الخمسين ، وارتقاه وهو مريض لا يرجى ، وخلفه ابنه الامبراطور وليام ، وقد ولد وله ذراع مشلولة ، ولم يكن محبوبا من والدته ، التى كانت تراه فظا غليظ القلب ، وكانت امرأة بعيدة الطموح ، حريصة على فرض ارادتها ، وكانت تمقت بسمارك ، ولا تضمر الحب لألمانيا ، ولا تكتم شعورها بأنها انجليزية ، وكان زوجها خاضعا لها متأثرا بأحكامها ، وقد أدركت أنها سوف لا تستمتع بالحكم طويلا ، فعمق ذلك هاوية الخلاف بينها وبين ابنها ، وحدث بينهما نزاع شديد فى أثناء ساعات زوجها الأخيرة ، وكانت كراهة الامبراطور وليام لأمه من أسباب كراهته للانجليز قاطبة ، ولكنه برغم كراهته لهم كان معجبا بهم ، وقد كان اعجابه بانجلترا مصدره : اعجابه بجدته الملكة ڤكتوريا ، كما كانت كراهته

لأمه سببا لكراهته لانجلترا ، وأثرت ذراعه المشلولة تأثيرا سيئا فى تكوين أخلاقه واتجاه تفكيره ، وولدت فى نفسه الغرور والخيلاء ليدارى هذا النقص ، وكان غروره يغريه بحب الظهور ، والميل الى الابراق والارعاد والارغاء والازباد والتنفج والاستطالة ، ومركزه باعتباره رئيسا لأسرة هوهنزلرن كان يحتم عليه أن يبدو فى صورة الجندى الرائع المظهر ، الذى تتطامن لهيبته النفوس ، وتنكس الهامات ، وقد بذل مجهودا ضخما يستحق أن ينوه به ، ليتعلم ركوب الخيل ، حتى لا يفوته أن يتراءى فى شكل الفارس المقدامة ، والبطل الصنديد !

وكان لا يخلو من صفات لامعة رائعة ، فقد كان واسع الأفق ناهض العزم ، مشغوفا بالمعرفة ، مستفيض الخبرة ، قوى الذاكرة ، لا تغيب عنه التفصيلات الدقيقة ، وكان شديد الشعور بالواجب صادق الوطنية ، ولكنه مع ذلك كان حقودا كثير الاضغان ، محبا للملق الرخيص ، لا يملك عنان نفسه فى بعض المواقف الهامة ، وكثرة انفعالاته العصبية جعلت بعض وزرائه يتساءلون عن حالته العقلية ، وكانت رغبته فى المشاغبة ، والتزام خطة التحدى والمفاخرة والمنافرة ، وكثرة التشدق بالألفاظ الجوفاء ، وارتجال الخطب الحماسية المنتفخة الطنانة — كان ذلك كله مجنا يتقى به الاتهام بنقص الرجولة ، ووهن القوة ، وضعف الفروسية ، والذى يكشف لنا ولعه بالملق والاطراء والمداهنة معرفتنا برجال حاشيته وخاصته المقربين منه ، وفى طليعتهم الكونت الينبرج ، وكان رجلا ناعم

الملمس ، مخنثا ، متهم السيرة ، موسوما بالانحراف والشذوذ ؛ مثل أكثر حاشية هذا العاهل الهمام ، وكان يشبه بكاليسترو كونت دى مونت كريستو ، وقد طبعت مذكراته عن وليام الثانى وعهده فى سنة ١٩٢٣ ، ولوحظ عليه فيها : أنه يطلق بخور الثناء على سيده وولى نعمته ، ثم يفوق اليه خلال سحبها المعقودة السهام المسمومة .

ولما ارتقى وليام الثانى العرش فى يونيو سنة ١٨٨٨ وهو شاب لا يتجاوز الواحدة بعد الثلاثين من عمره أراد أن يثبت وجوده ويؤكد شخصيته فقال : « ليس فى هذه الديار سوى سيد واحد وهو أنا » ، وكان المستشار بسمارك كلما تقدمت به السن ازداد ميله الى الانفراد بالسلطة وكراهة المعارضة ، وقد أدار دفة السياسة الألمانية باقتدار وتبصر ، مدة تربو على ربع القرن ، وقد احتمله وليام السنتين الأوليين من حكمه ، ولكن فى سنة ١٨٩٠ عزله من منصبه ، واتفق فى خلال ذلك أن مسألة هامة كانت ستعرض للنظر والبحث ، وهى تجديد المعاهدة السرية التى تولى عقدها بسمارك بين روسيا وألمانيا ، وكانت المعاهدة التى عقدت بين النمسا وألمانيا فى سنة ١٨٧٩ قد أخذت تهدد ألمانيا بنشوء تحالف بين فرنسا وروسيا ، وهو الأمر الذى كان يرمى الى منع وقوعه بسمارك ، ولذا أراد بسمارك أن يتحاشى ذلك بعقد اتفاق سرى مع روسيا ، وكان لروسيا والنمسا مصالح متناقضة فى البلقان ، ولكن بسمارك كان مصرا على مصادقة الطرفين ، ولذا

عقد مع روسيا اتفاقا فى سنة ١٨٨٧ لمدة ثلاث سنوات ، واستطاع بذلك أن يجعل فرنسا فى عزلة ، ويدفع عن ألمانيا خطر الوقوع بين طرفى الكماشة .

هذه كانت سياسة بسمارك ، وهى سياسة حازمة معقولة ، ولكن بسمارك قد أبعد عن الحكم ، وأصبح مغضوبا عليه من الضالين ، ولذا أصبحت سياسته كذلك منبوذة ملعونة مغضوبا عليها ، بغض النظر عما تنطوى عليه من أصالة وبعد نظر ، وفى فترة الاضطراب — الذى أعقب اقصاء بسمارك عن مسرح السياسة واضطلاع الامبراطور وليام بأعبائها — كان الذى يعلم دخائل السياسة الألمانية الخارجية ويعى أسرارها هو البارون هولستاين، فنصح بعدم تجديد الاتفاق مع روسيا ، لأن الحكومة الروسية كانت تتردد فى عقد الاتفاق مع رجل آخر غير بسمارك ، وصاحبنا يكره بسمارك ، ولا يريد عودته الى السياسة الخارجية ، ولذا قدم هذه النصيحة وأدلى بهذا الرأى ، فاتجهت روسيا الى فرنسا ، وتقربت منها على بعد ما بينهما فى مذاهب الفكر وعقائد السياسة ونظم الحكم ، وتم بينهما الاتفاق والتعاهد فى سنة ١٨٨٩ ، وتجدد التحالف فى سنة ١٨٩٤ وكان له أثره فى سير السياسة الأوربية .

وهو لستاين — الذى كان له تأثير كبير فى توجيه السياسة الألمانية الخارجية — رجل عجيب الأخلاق غريب الأطوار ، وشخصيته شيطانية بغيضة ، وقد كان سكرتيرا للمفوضية

الألمانية فى باريس ، ونزل على أمر بسمارك ، فأعد الدليل على اتهام رئيسه الكونت أرنيم — وكان بسمارك قد صمم على هدمه واسقاطه — واضطر هولستاين الى أن يظهر علنا فى المحكمة باعتباره من شهود الاثبات ، وكان أرنيم محبوبا فى أوساط برلين الاجتماعية ، فأصبح هولستاين مكروها فى تلك الأوساط ، التى عابت عليه تجسسه تحت ستار الصداقة ، وعاش هولستاين منذ ذلك عيشة اعتزال وانقطاع عن الناس ، ولم يتشرف بالمثول بين يدى الامبراطور سوى مرة واحدة ، بعد أن دعاه مرارا لزيارته ، وكان يعتذر بعذر : أنه لا يملك بذلة رسمية لحضور البلاط .

وكان يستمتع بقوته الخفية ونفوذه المستور ، ويتعزى بذلك عن فقد مكانته فى الهيئة الاجتماعية ، وعقد صداقة مع ايلنبرج ، وفى الوقت نفسه كان يجمع الأدلة التى تمكنه من أن يرسل بصديقه الحميم الى السجن حين يشاء ، ويروى : أنه فى ليلة ماطرة آوى الى مشرب من مشارب الجعة المشبوهة السيئة السمعة ، فوجد حوله رجلين متنكرين فى ملابس البحارة ، وعرف أن أحدهما هو ايلنبرج ، وأدرك بعد سنين أن الآخر : كان فون بيلوف ، وقد عرف ذلك من صوته ، وهذه المعرفة التى بدأت بهذا الحادث جعلت له سيطرة على هذين الرجلين غريبة ، وأغرته بأن يدفع بهما الى الأمام ، وأن يعينهما على الترقى فى سلم المناصب العالية ، ولكن على شريطة أن يصدرا عن رأيه ، ويتبعا أوامره ونواهيه ، مهما تسامى بهما المركز وتعاظم نفوذهما ، ومنذ سنة ١٨٩٠ التى

سقط فيها بسمارك الى سنة ١٩٠٦ كانت سياسة ألمانيا الخارجية من وضع هذا الرجل المريب ، ومن املائه ووحيه ، فهو الذى أوصى برفض تقدم چوزيف تشامبرلين لعمل اتفاق بين انجلترا وألمانيا ، وهو الذى أوصى فون بيلوف بالسياسة التى اتبعها فى مراكش وفرضها على الامبراطور فرضا .

وكان هذا الرجل مرهوبا مخوفا ، يحذره الجميع ويخشون بأسه ودسائسه ، وعلمه بأسرارهم الخفية وعيوبهم ومثالبهم ، وقد سقط من علياء نفوذه ، وفقد مكانته فى عالم السياسة فى سنة ١٩٠٦ من جراء حادثة كانت غير منظورة ، فقد أغمى على فون بيلوف فى الرشستاغ ، وعهد الى تشيرسكى — من أعوان بيلوف — فى حمل أوراقه الرسمية ومستنداته الحكومية ، وكان بين تلك الأوراق استقالة مقدمة من هولستاين ، كان يرمى من وراء تقديمها الى الضغط على فون بيلوف لارغامه على تلبية مطلب من مطالبه ، ولم يكن لتشيرسكى أسرار مريبة يخشى اذاعتها مثل غيره من رجالات ذلك العصر ، ولذا بادر الى تقديم الاستقالة للامبراطور ، وقبلت الاستقالة ، واعتقد هولستاين أن ايلنبرج هو الذى حفر له هذه الحفرة ، فعمل على هدمه وتلويث سمعته ، ومات هولستاين فى سنة ١٩٠٩ فقيرا معدما ومهجورا مذموما ، وكان هذا الرجل واسع المعرفة لا يكل من العمل ، ولكنه كان من ذوى النفوس المسيخة الشائهة ، والطبائع السقيمة المدخولة ، وكان لا يرى طريقة يرحض بها عن نفسه عار الخيانة ، ومسبة التجسس ،

سوى الافراط فى تصيد التهم ، وتعقب سير الناس ، لاستطلاع عيوبهم ، وتقصى مساوئهم ، وهذه الطبيعة المنكرة — المجبولة على الظنون السيئة واللؤم والخبائث — جعلته فى المواقف الحرجة الفاصلة يدلى بالنصائح المسمومة ، ويشير بالتوجيه الخاطىء ، وقد ساعدت سياسته الملتوية على خلق الجو الخانق الفاسد ، الذى هيأ العالم لوقوع كارثة الحرب الكبرى الأولى .

وسعى الامبراطور وليام فى التقرب من روسيا ، واستغل استياء القيصر من الانجليز فى سنة ١٩٠٥ بعد هزيمة الروس فى الشرق الأقصى ، وحادثة اطلاق أسطول البلطيق النيران على بعض سفن الصيد البريطانية ، وزار القيصر فجاءة فى بجوركو ، ولم يستصحب أحدا من وزرائه ، وعقد معه معاهدة وصفها بأنها « ستكون أساس السياسة الأوربية ، وأنها ستبدأ صفحات جديدة فى تاريخ العالم » وحسب بذلك أنه قد تخلص من قيود الاتحاد الروسى الفرنسى .

ولكن بيلوف أعلن أن المعاهدة ملغاة ، لأن الامبراطور أضاف اليها كلمتين لم تكونا موجودتين فى الأصل ، وامتنع وزير خارجة روسيا عن اقرارها ، لأنها لا تتسق مع تعهدات روسيا لفرنسا ، وهدد بيلوف بالاستقالة ، ولكن الامبراطور ناشده سحب الاستقالة والبقاء فى الحكم ، وبقى بيلوف فى الحكم وألغيت المعاهدة .

ومع ذلك — ظل الامبراطور يراسل القيصر ، ويسخر فى رسائله

بالصحافة البريطانية والفرنسية ، ويعيب عليها زرايتها بنظام الحكم القيصرى ، وتأييدها للأفكار الثورية التى تشجع الحركات الانقلابية ، وينتقد الحكومات النيابية ويعدد عيوبها ، ولكن برغم ذلك اتسعت مسافة الخلف بين روسيا وألمانيا ، ولم يستطع الامبراطور أن يسد الثغرة ويرأب الصدع .

وكان الامبراطور وليام ينفس على الانجليز نفوذهم المترامى ، وكلمتهم المسموعة فى أنحاء العالم ، وامبراطوريتهم التى لا تغيب عنها الشمس ، وأسطولهم الضخم الذى يمكنهم من السيادة على البحار ، والخروج من كل مأزق ، وظن أنه يستطيع تقليم أظافر الانجليز ، وكسر شوكتهم ، واذلال كبريائهم اذا عمد الى بناء أسطول يناظر أسطولهم ، ويماثله فى الضخامة والمناعة ، وكان الذى يشجعه على ذلك ويملى له فى سلوك هذه الخطة : رجل فنى ، حماسته أقوى من ادراكه السياسى ، وهو فون تربتز ؛ وقد تبين فون بيلوف وپتمان هلفج الخطر الذى تستهدف له ألمانيا من انتهاج هذه الخطة ، واثارة حفيظة الانجليز على هذه الصورة ، وأدركا : أنه اذا اشتبكت ألمانيا فى حرب فان الانجليز سينحازون الى صفوف أعدائها ، ورغبا فى عقد اتفاق بحرى مع انجلترا ؛ وكانت انجلترا تلمح الى ذلك ، ولكن الامبراطور رفض التفاهم فى هذه المسألة رفضا باتا ، وصرح : بأن اثارة هذا الموضوع واشتراط الحد من بناء السفن الحربية معناه الحرب ، وكانت الفكرة المستولية على ذهن الامبراطور وصاحبه تربتز هى : أن

انجلترا قد تفاجىء الأسطول الألمانى بالهجوم وتحطمه ، قبل أن يشتد ساعده ويستكمل قوته ، وكانت خطبه وتصريحاته وأقاويله تثير ريب الانجليز وتشعل غضبهم ، مثل قولته المشهورة : « مستقبل ألمانيا على متن الماء » ، وقد جرح شعورهم جرحا بليغا بالبرقية المعروفة التى بعث بها الى الزعيم البويرى كريجر يهنئه بانتصاره ، وساءهم بأحاديثه فى طنجة سنة ١٩٠٥ ، مما دعا صاحبه هولستاين الى أن يقول عنه : « لا يمكن أن يصبح سياسيا حتى لو عاش الى أن يبلغ المائة » .

(٢)

أقطاب أوربا

فى مطالع القرن العشرين

وصفت فى الفصل السابق سياسة الامبراطور وليام الثانى والرجال الذين قرّبهم وأظلهم برعايته وصفا عاما موجزا ، وقد ازدادت العلاقات بين ألمانيا وانجلترا توترا بسبب مضى الامبراطور فى تنفيذ برنامجه البحرى ، وفى سنة ١٩١٢ أمسك الامبراطور وليام وفون ترپتز عن المعارضة فى عقد الاتفاق البحرى مع انجلترا ، ولكنهما اقترحا شروطا لا يمكن الانجليز قبولها ، أخصها الوعد بالحياد اذا نشبت الحرب بين الألمان والفرنسيين ، وهو أمر لا يتفق مع التزامات انجلترا لفرنسا وبلجيكا ، ولذا استمرت العداوة واشتدت المنافسة البحرية بين انجلترا وألمانيا بالرغم مما كان يراه ساسة الألمان من سوء عاقبة ذلك ، وقد أدرك فون بيلوف وپتمان هلفج ان الحرب التى قد تؤدى اليها هذه السياسة ربما لا تكون نتيجتها فى مصلحة ألمانيا ، وكان الامبراطور وليام هو المسؤول عن السياسة البحرية لتأييده ترپتز ومخالفته فى ذلك نصائح مستشاريه ووزرائه ، وكان رأيه أنه بعد اجتياز ما كان يسميه « منطقة الخطر » — وكان يقصد بذلك الفترة السابقة لاستكمال الأسطول الألمانى عدته وعديده — يكون

الأسطول الألمانى من القوة بحيث يعجز الأسطول الانجليزى عن التصدى له ، ويحجم عن منازلته ، ولما أعلنت انجلترا أنها عقدت العزم على أن تكون قوة أسطولها معادلة لمجموع أسطول دولتين من الدول الكبرى أكد ترپتز للامبراطور ان انجلترا لا تستطيع السير طويلا فى هذه السياسة التى ترهق دافعى الضرائب ، ولم يخطر ببالهما ان الاعتماد على تفوق الأسطول من الأسس التى قامت عليها السياسة البريطانية ، وأنها لا تستطيع التخلى عن هذه السياسة مهما كلفها ذلك من النفقات والأموال الطائلة .

ولم تكن هذه السياسة التى اتبعها الامبراطور وليام سياسة موفقة ، فقد وثقت العلاقات بين انجلترا وفرنسا وروسيا ، وأحيت آمال فرنسا فى استرداد الألزاس واللورين ، وجددت عند الروسيين الرغبة فى الاستيلاء على القسطنطينية ، وقوت مطامعهم فى البلقان ، ومعظم ما حدث فى السياسة الأوربية من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩١٤ كان مصدره اهتمام انجلترا بمشكلة زيادة الأسطول الألمانى ، ولما ثارت الحرب كان هم الامبراطور الاحتفاظ بلعبته المحبوبة — أسطوله العزيز — فهو فى السلم والحرب كان شديد الولع بأسطوله مفرطا فى حبه والتعلق به ، والمحافظة عليه وتكحيل عينه بمشاهدة سفنه وبوارجه ونسافاته ، ولعله كان وهو يرى وحداته تشق عباب الأرزق الرجراج يشعر شعور المتنبى فى قوله :

ولو انى استطعت خفضت طـــرفى
فـــلم أبصر بـــــه حتى أراكا

وكانت روسيا أكثر امعانا فى الأوتقراطية من ألمانيـــا ، وقد اعتلى القيصر نيقولا الثانى العرش فى سنة ١٨٩٤ ، وتزوج القيصرة بعد تسنمه العرش ، ووقع تحت تأثير زوجته ، وكانت رغبته فى أن يعيد الصليب الى جامع أيا صوفيا بعد أن يحيله كنيسة كما كان قبل تغلب الأتراك على البيزنطيين هى التى تملى عليه سياسته ، وكانت تغمر نفسه روح دينية قوية ، وكان يعتقد أن حسن القيام بالواجب ورعاية مصلحة أمته والعمل لرفع شأنها يفرض عليه ذلك ، ولم يكن الرجل سياســيا محنكا ولا له خبرة واســعة بالشؤون العامة ، وانما كان رجلا يحب زوجته ويخلص لها ، ويعنى بأولاده ويعطف عليهم ، ويميــل الى ركــوب الدراجة والجرى بها فى حدائق قصره ورياضة الغنــاء ، وكان له ولع شــديد بلعبة الدومينو ، وكان ما ينقص القيصر من الصرامة ومضاء العزيمة متوفرا فى القيصرة ، وكانت تشــبه فى تحريضها لزوجها على الشر والأذى والتشدد امرأة مكبث فى رواية شكسبير المعروفة ، والعجيب أن هذه الســيدة الغطريسة المزهوة كانت تخضع وتنقاد لرأى راسپوتين « رجل الله » الذى يتلقى الوحى من عل ، والذى كانت له قوة معجزة على شفاء نجلها مما يعرض له من العلل والأوصاب ، وكانت تعتقد أن هذا الرجــل الملهم وحــده يستطيع انقاذ الامبراطورية من الأخطار الماحقــة والخطــوب

الساحقة ؛ أما الاصلاح والأخذ بأسباب النهوض والتقدم فهذا جميعه من الأمور الثانوية التافهة التى لا تقدم ولا تؤخر فى الموضوع ما دام رجل الله فى جانب الامبراطورية الروسية ، وسيقود السفينة ببركته وقداسته الى بر الأمن والسلامة ،ويجنبها الصخور، وكان رجل الله فى هذه الحقبة من تاريخ العالم مكبا على جمع المال وابتزازه بشتى الطرق ومختلف الحيل ، مفرطا فى الشراب والعربدة والفسق والفجور ، وكان هذا الرجل من أصحاب ذلك المذهب الذى يرى الخلاص عن طريق الخطيئة ، ولم يكن هو وحده الدجال أو الممحزق الذى يرتدى ثياب الصوفى وبرد الروحانى ، فقد كان لأمثاله من المشعوذين مكانة عند القيصر وذمة مرعية ، لأن عرش القيصر نفسه كان قائما على الاعتقاد بالخرافات والسخافات ، وأمثال هذه العروش فى العصر الحاضر لا تقوم على غير التدجيل والخرف واستغلال سذاجة الناس وقصور تفكيرهم ونقص معرفتهم ، ومادام القيصر التقى النقى قد رفض الاصلاح وأبى التجديد فلا بد له أن يعيش فى عالم الوهم والخرافة ، ومن أبى مواجهة الواقع وغالط فى الحقيقة نفسه أنس بالأسطورة ولاذ بالوهم وطلب المحال .

وكان وليام الثانى ونيقولا الثانى أقوى رجلين فى العالم خلال السنوات العشرين التى سبقت الحرب الكبرى الأولى ، ومن الخطأ الظن بأن السياسة التى سارا عليها كانت من صنع وزرائهما، فقد كانا يختاران الرجال الذين يأتمرون بأمرهما ويصدرون عن

مسيئتهما .

وكان هناك عاملان آخران قد لعبا دورا لا يخلو من الأهمية ، وهما الامبراطور فرنسيس جوزيف والملك ادوارد السابع ، وقد صعد فرنسيس العرش سنة ١٨٤٨ وقد صحب الدنيا طويلا حتى تقلبت على عينه حوادثها ، ونابتة نوائبها ونزلت به كوارثها ، حتى صار يعتقد أن نصيبه من الأيام هو الهموم الصادعة والخطوب المتتابعة ، فقد هزمته بروسيا ، وفقد ولاياته الايطالية وأرغم على جعل المجر مساوية للنمسا فى الحقوق والمكانة السياسية ، وقتل فى المكسيك أخوه السيىء الحظ الامبراطور مكسميليان ، واغتال أحد القوضويين زوجته ، ومات ابنه فى ظروف غامضة ويظن انه انتحر ، وكان يعتمد فى أعوامه الأخيرة على ابن أخيه الأرشيدوق فرنسيس فرديناند ، وكان فى نية الأرشيدوق أن يمنح السلاف الذين تضمهم حكومة النمسا والمجر الاستقلال ، ويجعل الدولة المزدوجة ثلاثية ، فخاف الوطنيون السربيون ذلك لأنه يغرى السلاف الجنوبيين بالانضمام الى الامبراطورية النمساوية ، فتآمروا عليه وقتلوه ، وأشعل قتله شرارة الحرب الكبرى .

وكان الملك ادوارد السابع لا يميل الى ابن أخته الامبراطور وليام ويحب الفرنسيين ، وكان الفرنسيون يبادلونه حبا بحب واعجابا باعجاب ، وكان فى ميله هذا يخالف والدته الملكة ڤكتوريا التى كانت تؤثر ألمانيا والنمسا وتكره فرنسا .

وكان ادوارد يمقت بسمارك ويحب أخته ، ولذا انحاز الى

صفها فى الخلاف الذى نشب بينها وبين نجلها الامبراطور وليام.

وقد بدأت الحكومة الانجليزية سياسة التحالف مع فرنسا ، ولكن لا نزاع فى أن الملك ادوارد كان من عوامل تقوية تلك السياسة وتأكيدها ، فقد خاف الانجليز فى أثناء حرب البوير أن تتحالف أوروبا على محاربتهم ، ولتجنب ذلك كان عليهم أن ينضموا اما الى الاتحاد الثلاثى الذى يشمل النمسا وألمانيا وايطاليا ، واما الى التحالف الثنوى المكون من روسيا وفرنسا ، وكان هناك تنافس بين فرنسا وانجلترا فى افريقية كاد يؤدى فى بعض مراحله الى التصادم والحرب ، وكان هناك من ناحية أخرى تنافس بين روسيا وانجلترا فى آسيا ، فحاولت انجلترا فى بادىء الأمر أن تتفق مع ألمانيا ، ولكن ألمانيا التزمت الاغضاء والتباعد ، ونصح هولستاين بأن الابطاء فى قبول صداقة الانجليز خير من الاسراع لأن انجلترا ستعجز عن الاتفاق مع فرنسا آو روسيا ، ولا تجد فى النهاية محيصا عن الارتماء فى أحضان ألمانيا ، وتستطيع ألمانيا حينذاك أن تملى عليها شروطها ، وفضلا عن ذلك فان امبراطور ألمانيا كان قد بدأ انشاء الأسطول الألمانى ، وكان لابد من انقاص عدده وجعله صغيرا محدودا اذا تم الاتفاق مع انجلترا ، وقد أدرك فون بيلوف بعد فوات الأوان أن الاتفاق بين فرنسا وانجلترا ليس مستحيلا كما توهم هولستاين .

وقد تم الاتفاق بين انجلترا وفرنسا فى سنة ١٩٠٤ وعقد التحالف بين روسيا وانجلترا سنة ١٩٠٧ وكان من عمل السير

ادوارد جراى ، وهو سياسى راجح العقل ووطنى مخلص ، ولكنه بالرغم من نبل أخلاقه ونزاهة مقاصده كان يستمسك بالنظرية الارستقراطية القائلة بأن الأشخاص العاديين لا يستطيعون فهم دقائق السياسة الخارجية ، ولذا سمح للقواد الانجليز أن يعدوا مع القواد الفرنسيين الخطط الحربية الكفيلة برد غارة الألمان ، واتفق مع الفرنسيين على أن يتولى الأسطول الانجليزى الدفاع عن بحر الشمال ، وأن يقوم الأسطول الفرنسى بأعباء الدفاع فى البحر الأبيض المتوسط ، ولم يفض الى مجلس النواب بشىء عن ذلك ، واحتفظ بسرية الاتفاق ، بل كان يؤكد أن انجلترا غير مرتبطة بفرنسا فى حالة نشوب حرب ، وأخيرا فى ٣ أغسطس سنة ١٩١٤ أفضى بالسر ! وكان الشعب فى حالة اهتياج ، وقد ثارت حميته واتقد غضبه فأطرى بعد نظره ، وبين سنة ١٩٠٦ و ١٩١٤ لم يكن هناك رقابة على السياسة البريطانية الخارجية أكثر مما كانت فى ألمانيا أو النمسا ، وكانت السياسة البريطانية الخارجية هى مايراه السير ادوارد جراى أو ما يشير به عليه الموظفون الرسميون سرا وخفية .

ولم تكن الشعوب موافقة الموافقة كلها على سياسة الأقطاب وتوجيههم للأمور ، ولكن الأمم كانت قد وضعت مقاليد السياسة فى أيدى أفراد قلائل ، ولم تستطع النظم السياسية السائدة آن تكبح جماحهم وتقيد خطواتهم ، وكان يمكّن هؤلاء الأفراد القلائل من العواهل المملكين والساسة المبرزين انقاذ الوقف ودفع

الكارثة وتصفية الجو لو تبصروا فى الأمر ، واصطنعوا الحكمة ، وربما كان هذا التبصر ومغالبة الأهواء ونهنهة المطامع يؤدى الى تغيير محمود العواقب فى النظام الدولى والأوضاع الأممية ، ولم تكن الدول راغبة فى خوض غمار الحرب ، ولم يكن الأقطاب كذلك راغبين فى نشوب الحرب ، ولكن لم تكن هناك هيئة دولية محترمة مرهوبة الجانب تفصل فى الخلافات ويرجع الى رأيها فى الأزمات ، وكانت السياسة التى اتبعها الأقطاب من العواهل والساسة ودعاة القومية المتطرفة وأنصار التوسع فى الاستعمار لابد أن تؤدى الى الحرب ، ولما وقعت الكارثة ونشبت الحرب الكبرى الأولى فى سنة ١٩١٤ كان الجميع ينتظرونها فى غير شوق اليها ولا ترحيب بها ، وقد ظل العالم يعانى عقابيل تلك المجزرة المروعة حتى ابتلى بالحرب الكبرى الثانية ، وأثر الحرب الكبرى الأولى فى اثارتها بين واضح ، وهكذا كل حرب تضع بذور الشر التى تهيىء لنشوب حرب أخرى ، وللأحوال الاقتصادية والملابسات الحضارية أثر غير منكور فى خلق هذا الموقف وتهيئة الأسباب ، ولكن هذا لا يبرر جناية الأقطاب على العالم المنكوب بسياستهم الشقى بمطامعهم ، ولعل أقطاب أوروبا وأمريكا فى العصر الحاضر يكونون أبعد نظرا وأنزه غرضا وأسمى حكمة من أقطاب أوروبا فى مطالع القرن العشرين ، ولعلهم يوفقون فى حسم الخلافات وتدعيم السلام حتى تستطيع الانسانية أن تضمد جروحها الرغيبة وتجمع شملها المبدد ، وتسير الى الأمام فى طريق الحق والخير والجمال .

فهرس

صفحة

مقدمة ٣
(١) الأسرة والعصبية والعرب ٧
(٢) الأسرة والعصبية والعرب ١٧
قيس بن سعد ٣١
بين الأخلاق والسياسة ٤١
نصر بن سيار ٥٥
يوم الهاشمية ٦٧
زرياب ٧٩
الخليفة المنكوب ومصيره المجهول ٩٣
يوسف بن تاشفين ١٠٩
مصرع شاعرين كبيرين ١٣١
لغز العقد الماسى ١٤٥
انتقام الملكة كريستينا ١٥٧
نابليون وغزو روسيا ١٧٣
الملكة هورتنس ونابليون ١٨٥
بين الامبراطور ومستشاره ١٩٩
(١) أقطاب أوربا فى مطالع القرن العشرين ٢١١
(٢) أقطاب أوربا فى مطالع القرن العشرين ٢٢٣

الدار القومية للطباعة والنشر